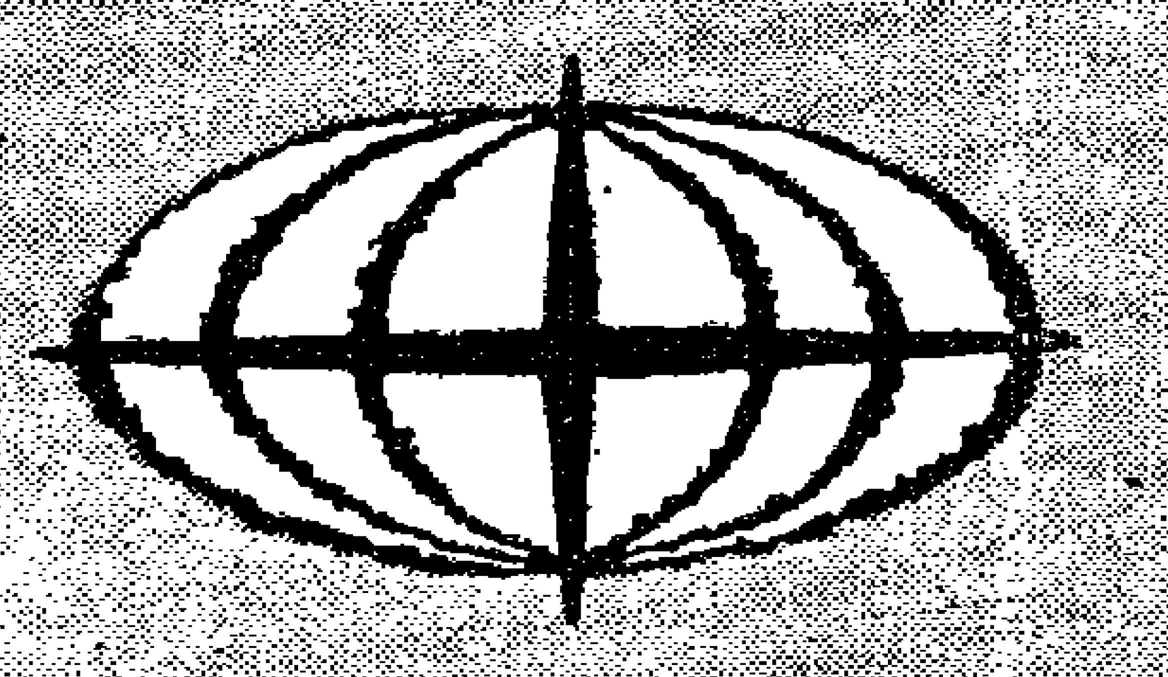


من الشرق والغرب

نافذة على الفكر العالمي الحر

أفريقيا القديمة

تكتشف من جديد

تأليف بازيل دافيدسون

ترجمة: نبيل بدر

وسعد زغلول

مراجعة: محمود شوقي الكيال



من الشرق والغرب

أفريقيا القديمة

تكتشف من جديد

تأليف : باسيل دافيدسون

ترجمة : نبيل بدر

و سعد زغلول

مراجعة .. محمود شوقي الكيال

تقـــديم

هـذا الكتـــاب يسرد تاريخ افريقيـــة والافريقين ، جنوب الصحراء ، خـــلال الف وخمسمائة عام أو اكثر قبل بداية الاستعمار .

وهو يقـــدم اطارا لما هو معروف الآن ، أو ما يبدو انه الاعتقاد الســـائد عن المظـــاهر الرئيسية والملامح البارزة للحضـــارة والحيـــاة الافريقية فى ذلك الوقت ، وهو بذلك يســـهم فى القاء الضوء على أصول افريقية اليوم .

ويعتمد الكتاب على الحقائق التى توصـــل اليها المتخصصون خلال أعوام كثيرة ، وخـــلال السنوات العشر أو العشرين الاخيرة بصفة رئيسية وخاصة فيما يتعلق بتاريخ افريقية القديم .

مقدمة

لم تكن أوربا ، عندما بدأ التوسع التجاري والكشف الجغرافي ، تعلم عن جغرافية أفريقية أكثر من الحدود الساحلية لها وامتدادها لمسافة قصيرة الى الداخل فى بعض المناطق المتفرقة • ثم تتابعت رحلات الرواد الأوائل والمكتشفين والبعثات التبشيرية حتى كان القرن التاسع عشر فتبدد الكثير من الغموض الذى أحاط بافريقية ، وظهرت الخرائط التى تحدد بوضوح أماكن ومواقع ومعالم ثابتة ، حلت محل التخبط والاساطير التى كانت تحاك حول جغرافية افريقية •

ومنذ مائة عام تقريبا بدأت حركه كشفية أخرى تستهدف التعمق فى البحث عن التاريخ الافريقى وجذوره الممتدة عبر القرون السحيقة الموغلة فى القدم ، حتى تحددت معالم هذا التاريخ وانقشعت الظلمات التى سربلته دهورا طويلة ، واتضحت حقيقة الرجل الافريقى وما شيده من حضارات فى وقت كانت فيه أوربا تغط فى سبات عميق •

لقد افترى العالم على الافريقيين وأنكر عليهم أن يكون لهم حضارة قديمة من صنع أيديهم ، وقيل فى ذلك : انه لو كان لهم تاريخ فانه لا يستحق الرواية • والادعاء بأن الافريقيين عاشوا فى تخلف وجمود حتى جاء الأوربيون انما يظهر صداه فيما روى من آلاف القصص عن البؤس والجهل والوحشية التى وصم بها الافريقيون ، وهو الاتجاه الذى غذاه المستعمرون تأييدا لمصالحهم ، وما عللوا به استعمارهم ، من أن هؤلاء الافريقيين (الذين لم يتطوروا بعد) يحتاجون الى من يحكمهم حتى يستطيعوا تولى أمورهم بأنفسهم •

ولكن لم يعد لهذا الوهم الباطل من أساس اليوم ، فالكشوف الجغرافية والتاريخية الحديثة ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك مدى التطور والنمو الاجتماعى والمدنية التى رفرفت على افريقية حقبة طويلة من الزمان •

حقيقة أن هناك بعض النقاط فى تاريخ افريقية القديم ، لا يزال يكتنفها الغموض أو أنها غير مؤكدة ، ولذا فمن الخطأ وضع تعميمات شاملة بالنسبة للقارة الافريقية ، ولكن الحقيقة الثابتة أن علماء التاريخ قد وضعوا أيديهم خلال السنوات القليله الماضية على الكثير من الحقائق الباهرة المؤكدة التى كشفت النقاب عن جانب كبير من تاريخ افريقية •

لقد عانى التاريخ الافريقى ألوانا من التحامل الصارخ أو التعاطف الأجوف البعيد عن الروح العلميه ، وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أكون محايدا وموضوعيا متوخيا ابراز الحقيقة وحدها ، وقد بذلت فى ذلك كل جهدى ٠

انها قصة الفشل والنجاح ، الهزائم والانتصارات ، قصة لا تختلف فى جوهرها عن قصة الانسان فى أى مكان ٠ وان اعادة الكشـــف عن افريقية من جديد لهى بمثابة الاعتراف بوحدة شعوب افريقية وتاريخها مع بقية شعوب العالم ٠

الفصل الأول

استيطان افريقية القديمة

احتمالات التاريخ الافريقى :

منذ نحو خمسين عاما ، جلس أحد البلجيكيين فى مكان مكشوف بغابة من غابات الكونغو يدون ملاحظاته ٠

وبالنسبة لذلك الوقت والمكان كان هذا البلجيكى واسمه ــ اميل تورداى ــ يختلف عن غيره من الرجال ، وكذا عن غيره من الأوربيين ، فلم يكن يريد مطاطا أو عاجا أو عملا بالسخرة ، بل معلومات عن الماضى ، وقد أتى من بعيد بحثا عنها ، فبعد أن قطع عدة مئات من الأميال عبر نهر الكونغو ابتداء من مصبه على المحيط الاطلسى واستمر فى طريقه الى قلب افريقية ، وتوغل فى نهر الكاساى ثم على ضفاف نهر سانكرو حتى وصل الى مكان فى قلب افريقية غير معروف للعالم الخارجى ، وهناك وجد شعب البوشنجو وجلس يستمع الى حديث زعمائهم ويدون ملاحظاتهم ٠

وقد كان من حظ هذا الأوربى ــ وكان من أوائل الذين وقعت عليه أنظارهم ــ أن شيوخهم تذكروا أساطيرهم وماضيهم ، ولم يكن ذلك عسيرا عليهم لأن تذكر الماضى كان أحد واجباتهم ٠ وحكوا قصتهم فى عبارات موزونة واستطردوا فيها على مهل ، وسردوا قائمة ملوكهم الـ ١٢٠ ملكا الى أن وصلوا للملك الاله الذى وضعت معجزاته أساس أمتهم

وكان هذا رائعا ، ولكن هل كان تاريخا ؟ هل كان يمكن تحديد زمن كل ملك أو ربطه ــ على الأقل من حيث الزمن ــ ببقية العالم ؟

لقد كان تورداى متحمسا واستمر يدون الملاحظات ولكنه كان يتلهف على تاريخ (وعلى حين غرة أعطوه اياه) ٠ كما تذكر هو فيما بعد !

فبينما كان الشيوخ يتحدثون عن الأحداث العظيمة فى مختلف عهود الحكم ووصلوا للزعيم الثامن والتسعين بوكاما بوما تكالا قالوا : انه لم يحدث شىء جدير بالملاحظة أثناء حكمه سوى أن الشمس فى أحد الأيام اختفت عند الظهر وساد ظلام تام لفترة قصيرة ٠

«وما أن سمعت ذلك حتى فقدت كل سيطرة على نفسى ، وقفزت من مكانى وكنت أريد أن أفعل شيئا يائسا ٠ وظن الشيوخ أن عقربا لدغتنى»

« ومرت شهور قبل أن أعرف تاريخ هذا الكسوف ــ ٣٠ من مارس سنة ١٦٨٠ حينما كان هناك كسوف كلى للشمس مر بالضبط فوق بوشنجو ٠

ولم يكن ثمة احتمال للخلط مع كسوف آخر ، لان هـذا كان هو الوحيد الممكن رؤيته فى المنطقة فى القرنين السابع والثامن عشر ٠

وكان عمل تورداى كشف احتمالات تاريخ افريقى فى القرون التى سبقت الوثائق المكتوبة ٠ وعن هذه القرون ٠ يبحث هذا الكتاب لحد كبير، وسترى أنه قد أمكن معرفة الكثير منذ قيام تورداى بدور الرائد من حوالى خمسين سنة ٠

ولكن لا بد للتمهيد لذلك من الرجوع الى الماضى البعيـد ـ فما الذى يمكن قوله ـ اذا أمكننا شيء على الاطلاق ـ عن الأصـول الأولى للجنس البشرى فى افريقية ـ عن الرجال الأوائل أو المخلوقات التى تشـبه الرجال فى فجر ما قبل التاريخ ؟

فقد عاش رجال كالقرود فى افريقية منذ مليون سنة ٠ واكتشف الكثير من حفرياتهم طوال الأربعين عاما الماضية ، هل كانوا رجالا كالقرود أو قرودا كالرجال ؟ ما زال السـؤال معلقا لأن « الحلقـة المفقودة » بين الأسلاف التى تجمع بين القرود والرجال والمخلوق الذى مهـد الطريق « للرجل العاقل » مسائل لا تزال مبهمة ٠

وهناك عديد من المتنازعين الاقوياء فى هذا الميدان تمثلهم حفريات أتت أساسا من جنوبى افريقية وشرقيها ٠٠ وهذه الحيوانات القـديمة المتعددة الأنواع سواء كانت أقرب للقرود أو للرجال فى اصطلاحات التطور بلا شك رجال من قبل التاريخ المدون من نوع ما أو كما عرفهم البروفيسور ريموند دارت :

« كانوا يتأرجحون على حافة الانسانية » ٠

وتؤيد الشواهد من شرقى افريقية النظرية القائلة بأن افريقية مهد أول تطور للانسان نفسـه ٠ وتضم الأشياء التى عثروا عليهـا فى شرقى افريقية ـ وخاصة فى أوغندا وكينيا من الدلائل والشـواهد عن الرجل العاقل ما دفع ببعض علماء الانثروبولوجيا للقول ـ ولم يخالفهم أحد حتى الآن ـ بأن افريقية كانت مهد الحضارة ، وتوحى هذه الاكتشافات بأن الرجل العاقل « لم يتطور من أنماط غير كاملة ،ومن ثم من أنواع مندثرة من الانسان مثل رجل نياندرتال ، بل أيضا من نوعه نفسه أى من خط تطوره الذى لم يكتشف بعد ٠

ما التواريخ التى يمكن أن نأمل تطبيقها ؟

ليست هنـا جدوى من محاولة تقسيم عصر ما قبـل التاريخ ٠٠ الى سنوات لأن السنين تمتد بالآلاف والملايين حتى تتجاوز كل خيال ٠ وكل مايمكن عمله هو تحديد بعض المعالم على هذا الطريق الذى تتردد أصداؤه من بعيد ـ وحتى هذا اذا اعتبرنا الصعوبات ـ يجعل تقصى ما قبـل التاريخ عملا ملحوظا ولكن غير مؤكد ٠

وقد وصل علماء ما قبل التاريخ أخيرا الى اتفاق ما زال محلا للاختبار

على تعاقب محتمل لتغيرات مفاجئة فى شرقى افريقية ـ وكانت هذه الشواهد من القيمة لدرجة أنهم حاولوا ايجاد ترابط بين هذا التعاقب وتغييرات مفاجئة فى أجزاء أخرى من افريقية وأوربا ٠

واستطاعوا تمييز أربع فترات مطيرة فى شرقى افريقية عبر حوالى ٥٠٠ر٠٠٠ سنة،ويعتقدون أن هذه الفترات ربما تصادفت مع أربعة العصور الجليدية فى أوربا ٠ والسبب الرئيسى فى اعتقادهم أن « الرجل العاقل عاش فى افريقية أولا هو أن الادوات الحجرية تمت استعادتها من مخازن مخبأة فى أول هذه الفترات المطيرة على حين تم العثور على هذه الأدوات الحجرية بعد ذلك بكثير فى التعاقب الطويل للعصور الجليدية فى أوربا وما بينها ، وعلى هذا قد تكون الأدوات التى أمكن العثور عليها فى أوغندا أقدم أدوات أمكن العثور عليها فى مكان ما ٠

وقد سميت هذه الفترات المطيرة ـ تبعا للمواقع التى اكتشفت فيها الأدوات أو الحفريات ـ كاجران ، كامسيان ، كانجران ، وجاميليان ولكن لم يصبح للقصة مدلول كبير لا فى فترة « جاميليان » التى بدأت من حوالى ١٢ر٠٠٠ أو ١٤ر٠٠٠ سنة مضت ٠ وفى فترة جاميليان كان « الرجل العاقل » قد استقر فى شرقى افريقية وفى أجزاء أخرى من افريقية وكان قد دخل فى العصر الحجرى القديم منذ مدة وكان فعلا بالنسبة لمقاييس العصر المطير رجلا حديثا ٠

ولم يعد ـ منذ زمن طويل يقلقه منافسوه الذين استطاع أن يعيش من بعدهم أو حتى أعداؤه الذين تعلم قتلهم أو صيدهم أو حتى ترويضهم ٠

وفى وقت ما خلال هذه الفترة المطرة الأخيرة اختفى من افريقية آخر منافس للرجل ومن أشباهه ـ رجل نشرلاند ورجل روديسيا وآخرون لحقهم جمود التطور ،ومنذ الآن تأخذ قصة العصر الحجرى للانسانية شكلا متسقا ـ بالرغم من الثغرات الكبيرة ـ فقد أرسى الأساس بأمان ورسخ النوع البشرى الملائم ٠ وبعد ذلك بقى للانسانية أن تنمى قدراتها داخل نفسها : أن تهاجر وتتكاثر وتعمر الأرض ٠

خطوط الهجرة :

بلغة الزمن الجغرافى فان تزايد الرجل فى افريقية ـ كما فى كل مكان آخر ـ لم يبدأ الا بالأمس ، غير أنه بلغة العصور وآلاف السنين بدأ منذ زمن غابر حتى أن الطرق التى اتبعها والظروف التى هيأها تعتبر من أعمال التخمين ٠

كيف كان هؤلاء الرجال والنساء من عنصر جاميان ؟ لقد كانوا على الأرجح لا يشبهون أى ناس آخرين يعيشون فى افريقية اليوم مع احتمال استثناء بعض البوشمن فى صحراء كلاهارى وأقزام الكونغو ، فربما كانوا الأسلاف المباشرين لهؤلاء الصيادين ذوى الجسم اللدن والقامة الصغيرة وتقاطيع الوجه الغريبة بالنسبة لنا ، وربما كانوا ينتمون لنوع من الأجناس يطلق عليه الانثروبولوجيون أنهم « ساكنو الادغال » أو (Baskapaid) حتى يتجنبوا ما يوحى بالتأكيد ٠

ومهما يكن من أمر فقد انتشروا وتزايدوا واحتفظوا بالأرض وعثر على آثارهم فى عدة مناطق من القارة. وفى وقت ما حوالى سنة ٥٠٠٠ ق.م ظهرت أنماط جديدة من البشرية فى افريقية وكان الزنوج أو النوع الزنجى سائدا بينهم وقد عثر على أقدم بقاياه - حتى الآن من نفس خطوط العرض نفسها فى افريقية - جمجمة - من الحفريات وبعض قطع أخرى من موقع بالقرب من الخرطوم بالسودان يعود لمنتصف العصر الحجرى وجمجمة أخرى وبعض العظام تحت طبقة من الطين فى (anelar) وتبعد حوالى ٢٠٠ ميل شمال شرقى تومبكتون فى غربى السودان .

وهؤلاء الناس من الزنوج ، لأن التفرقة الجنسية الطفيفة لها دلالة بسيطة هنا - وتكاثر لا شك فى السنوات التى تلت سنة ٥٠٠٠ ق . م وان تحليلا لحوالى ٨٠٠ جمجمه تقريبا من عصور ما قبل الأسرات فى مصر من وادى النيل الأعلى - من حوالى ٣٠٠٠ ق . م ، يبين أن ثلثهم على الأقل كانوا من الزنوج أو من سلالة الزنوج الذين نعرفهم ، وهذا قد يؤيد جيدا ، الرأى الذى تؤكده دراسة اللغة بعض الشىء ، وهو أن أسلاف افريقى اليوم القدامى كانوا عنصرا هاما وربما كان سائدا فى السكان الذين رعوا الحضارة المصرية القديمة .

وقد أتى عام ١٩٥٨ بايضاح باهر لسجل كان هزيلا . فقد عاد مكتشف الصحراء الفرنسى هنرى أيوت بمجموعة عجيبة لنسخ من رسوم وحفر على الصخور ، وكان معرضه الذى عرضها فيه ، عملا رائعا .

فقد عرض التاريخ الانسانى على نطاق واسع ، وكانت طبقة وراء الأخرى من النماذج الصحراوية تحكى التعاقب المدهش لأناس عبر آلاف من السنين لا يحصيها عد ، ما بين صور عجيبة حساسة للحيوانات الى صور أشخاص لاتقل عنها حساسية - صور لرجال ونساء - والكلمة هنا ليست قوية كما ينبغى ، ومن صور للحرب لمناظر الرعى فى سلام ، ومن آلهة وآلهات أتوا قطعا من مصر القديمة الى أقنعة ووجوه لم تأت من هناك قطعا ، وكان كثير من هذه الأعمال من صنع الزنوج فى وقت قبل أو بعد سنة ٤٠٠٠ ق . م بقليل . وشواهد كهذه توسع وتردد صدى أناس فى القرون الخالية وكان من المعتقد - وهذا الرأى يفيد فى فهم التعقيد الذى صاحب استيطان افريقية - أن الصحراء قد عرفت أربع فترات من السكنى خلال عصرها الخصيب . وكان أولهم قوما يعملون بالصيد تبعهم أخيرا قوم يرعون الماشية ، وهؤلاء أو خلفاؤهم حصلوا على الخيل سنه ١٢٠٠ ق.م. وداخل هذا الاطار المجرد أضاف لوت ثروة من الشواهد بعثت فيها الحياة فجأة وبشكل غريب . واستنادا على التغييرات الملحوظة وأسلوب الحفر استنتج وجود مالايقل عن ١٦ مرحلة مختلفة من السكان بين عصر الصيادين والرعاة وهو يقول : «انها حقيقة مدهشة وثورية لانه لم يكن أحد يتصور أن الصحراء عرفت كل هذه الشعوب المختلفة .

وهذا التلميح الى التعقيد المتزايد الذى اتصف به استيطان الصحراء القديمة - وبالطبع فى غير الصحراء القديمة - يفيد المرء حينما يواجه صعوبة متابعة خطوط الهجرة الافريقية والانماط البشرية التى تبعتها حقا . وقد يمثل البوشمن - وهم نادرون جدا فى افريقية الحديثة

الصلة القريبة الوحيدة لشعوب ال « Baskapaid »فى الماضى البعيد. والزنوج لاشك شعوب افريقية قديمة أخرى ــ ولــكن القصة لا تنتهى عندهم فقد كان فى افريقية منذ زمن بعيد نوع أنسانى آخر وهو وان كان يجمعه اليوم اساس لغوى متقارب الا أن خصائصه لاتعود فى جذورها الى البيبوسكوبويد أو الزنوج ، وهؤلاء يطلق عليهم الحاميــون . وهؤلاء الحاميون هم أصلا جنس أبيض ، ويبدو أنهم ينتمون الى الشـــعوب القوقازية التى خــرج منها معظم الأوربيين أيضـــا منذ زمن بعيد جدا حتى ان قراءة « أبيض وأسود » بالمعنى الحديث وتطبيقها على الحاميين والزنوج لا معنى لها على الاطلاق .

ويقســـم علماء الانثروبولوجيا الحــــاميين فى افريقية عادة الى فرعين كبيرين : الحاميين الشرقيين والشماليين . وبدايتهم فى أفريقية مجهولة كبداية الزنوج وهم كالزنوج ربمـــا بدأوا فى افريقية أو آسية أولا ثم قدموا لافريقية بطريق الهجـــرة فهى مســألة غير مؤكدة . وفى خطاب للمؤلف من الدكتور K BSbleak وهو أحد كبــار المتخصصين فى تاريخ الأجناس فى افريقية وهذا يعطى وزنا خاصا لعدم تيقنه من هذه النقطة ، يقول : ان الزنوج تبعوا الحاميين الى شرقى افريقية وظنى ــ وهومجرد تخمين وليس لهأساس خيرا من الآراء الأخرى ــ أنانحاميين ظهروا فى شرقى افريقية منذ ســنة ٥٠٠٠ ق .م وما بعد ذلك وأنه فى تاريخ متأخر عن ذلك كثيرا جاء غزو زنجى أدى الى أن أصبح السكان نصف حاميين وربما حدث الشىء نفسه بالنسبة للبانتو .

ومهما يكن من أمر سبق الهجرة فان ثمة قليلا من الشك فى أن اختلاط البوشمس أو Baskapaid والزنوج والحاميين فى زمن موغل فى القدم أو بعيد بعض الشىء ــ أنتج أســــــلاف معظم الافريقيين المحدثين وهكذا يبدو أن البوتنتون فى جنوبى أفريقية نتجوا من اختلاط البوشمن والحاميين .

والشعوب الكثيرة والمتزايدة لمجموعة لغة البانتو تسود فى النصف الجنــوبى من القارة على حين يظهر « الزنوج الأصليون » غالبا فى غربى افريقية ، وأغلب المميزات هى تلك التى تتعلق باللغـــة او الخصــائص الانثروبولوجية المتوارثة ليست لها سوى ولالة بسيطة على أسبقية الهجرة القديمة والاستقرار ولا دلالة اطلاقا على «التفوق» أو «التأخر» وهذه النقطة تستحق التأكيد لما يتخيله البعض من تفوق الحــاميين على الزنوج والبيض والحمر على السود مما كان ، ومازال تقدمة غير مفهومة كما سماها مستر Twstice Hopmes مرة فى موضوع آخر .

وهذه التقدمة ليس لها أســـاس من الحقائق فى افريقية القديمة أو الحديثة نســـبيا ، ذلك أن المفتاح الكبير للتطور والتقدم فى افريقية كما فى كل مــكان آخر ــ لا يكمن فى الجنس ، ولكن الظروف المحيطة ، وليس هناك فى العالم ما يبين أو يوحى بأنه لو عاش الزنوج فى شمالى افريقية بدلا من وســطها ما كانوا قد أتوا بالقـــدر نفسه من الخير أو الشر كغالبية الحاميين المصريين أو بربر وادى النيــل وشــاطىء البحر المتوســط . كما كان يحــدث فى فترة متقدمة من التــاريخ يغزو رعاة

القطعان الحاميون الأراضي التي كان أكثرها أرضــا زراعية يســكنها الزنوج أو Baskapaid أو مزيج من الاثنين ويفرضون نظم مجتمع أكثر تأخرا على آخر أكثر تقدما .

ولــكن أســطورة « التفوق الحامي » التى تحجب حتى الآن غالبا التقدمة العظمى غير المفهومة « وهى أن الزنوج منحطون بالطبيعــة لاتزال تجد من يصدقها . فمنذ وقت قليل صرح أحد الدارســين الجادين لانثروبولوجيا شرقى افريقية ــ لولا ماقاله ــ عندما وصف بقايا أناس بدائيين عثر عليها فى كينيا وسجل « انه من الصعب أن يتصور كيف أن قوما متحضرين كالحاميين عاشوا فى هذه المنطقة » .

ويشــبه ذلك قولنا : ان شعبا متحضرا كالايرلنديين يعيشون فى المستنقعات ، فلم يكن الجنس هو الذى مكن الايرلنديين أو أى قوم أو هؤلاء الناس فى افريقية من أن يحققوا المدنية لأنفسهم بل انها ظروف البيئة المختلفة .

وثمة سبب آخر لتأكيد هذه النقطة ، فالوقت وما حققه الرجال فى افريقية ــ الرجال الافريقيين . نسبا لأناس مجهولين «من خارج افريقية» ولم يوضح من هم . فلم يكن الحاميون فقط هم الذين أفسحوا المجال « للتقدمة العظمى غير المفهــومة » عن الانحطــاط الافريقى أو الزنجى الذى طبعوا عليه وخلال الخمسين عاما الماضــية أو نحو ذلك كان كلما يكتشــف شىء يســترعى الاهتمام أو لايمكن تفسيره ، يستدعى موكب من غير الشــعوب الافــريقية أو غير الزنجية لتفســير ذلك . فيجلب الفينيقيون لتفسير Zimbabire فى روديسيا ويأتى المصريين الاغريق السيدة البيضاء » فى Brandberg فى جنوب غربى افريقيه ويعرض الاغريق والبرتغاليون كمعلمى وملهمى أولئك الذين استخدموا البرونز والصلصال فى غربى افريقية أثناء العصر الوســيط . وحتى الحيثيــون كان لهم يومهم ، بيد أنه من المتفق عليه أن كل هذه الاعمال والظواهر كان لهــا أصل افريقى خالص . وان مشكلات التقدم ، والتأخر ــ حتى لو وجدت حقا فى مكان ما وكانت أكثر من مجرد وهم داخل اطــارات التفــكير الاوربى البحتة ــ يمكن تفسيرها باتباع هذه الخطوط البسيطة فلا يمكن ارجاعها لأسباب جنسية . فالظروف المحيطة لا الجنس هى مفتاح الموقف ولهذا السبب نجد أنه حتى عندما استمد الافريقيون الكثير من الخارج فى أوقات وأماكن مختلفة فان طريقة استعارتهم للأســاليب الفنية أو العقائد كانت تتعرض دائما للتعديل بحكم الظروف والجــو المحيط فى مجتمعات وثقافات وحضارات أصــبحت بشــكل محدد بارز افريقية والنجــاح والفشــل يمكن ارجاعهما لنفس السبب المعقــد الملىء بالمتعة وهو تفاعل الانسان والبيئة .

الحاجز الصحراوى :

بدأت الصــحراء تفقد خصــبها فى وقت ما فى الأربعة الاف سنة التى ســبقت الميلاد . وبدأت أنهارها العظيمة التى كانت تجرى جنوبا للنيجر وشرقا للنيل ــ التى يمــكن متابعة وديانهــا القــاحلة فى معالم

لانبت فيها ــ بدأت تجف وتختفى وبدأت بحيراتها فى الاختفاء وسكانها فى الهجرة الى أماكن أخرى . وهناك كثير من الشواهد على هذا التغيير الطويل المخرب . فأقدم زنوج العصر الحجرى فى الخرطوم وهم الذين وضعوا أساس كثير من مظاهر حضارة النيل وكانوا يصنعون الآنية حتى قبل أن تصنع فى جريكو أقدم مدينة عرفت فى العالم ــ كانوا يعيشون بجانب نهر يرتفع فيضانه بين ١٢ و ٣٠ قدما أكثر مما يحدث اليوم .

وكانوا يستخدمون رءوس رماح مدببة من العظم استبدلوها بعد ذلك برمح صيد له أكثر من ثلاث شعب وثقب فى مؤخرته ، وأقرب رماح صيد مشابهة نجدها فى وادى النيل فىبعض الاماكن فى وادى آزواك على بعد الفى ميل غربا فى الصحراء القاحلة التى نعرفها اليوم .

وحتى فى الثلاثة آلاف سنة الأخيرة كان من المعروف أن قطعانا كبيرة من الماشية كانت ترعى فى النوبة السفلى حيث تسود الظروف الصحراوية البالغة القسوة اليوم ، حتى أن مالك ساقية تجرها الثيران يجد صعوبة فى الاحتفاظ باثنين أحياء فيها خلال السنة ، كما يقول « أركل » .

ويلاحظ كل من سافر فى هذه البقاع المتربة كيف أن تيها من الرمال والصخر يقع غربى النيل لمسافات بعيدة فى الوديان الخاليةالتى تتخللها عدة أحواض ، وديان كانت تحمل مددا موسميا ثابتا من الماء ولكنها اليوم جافة كهواء الصحراء والاسباب المباشرة لهذا الجفاف الطويل القاسى الذى مازال مستمرا ــ مازالت مجهولة ، وهى ترجع بوضوح كاف لنفس النظام الكبير نفسه فى الاحداث التى وقعت بخط الاستواء جنوبا ، خلال العصور ــ وتحكمت فى الثلوج المتقدمة والمتراجعة . وحددت سير الاعصار والعاصفة فى عصر ما قبل التاريخ . والنقطة الهامة هى أن الصحراء أضحت حاجزا كبيرا للطريق الانسانى منذ حوالى ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ سنة مضت ــ فى الوقت الذى بدأت فيه الشعوب الافريقية نفسه تقريباتتزايد وتتحرك وبدات الزراعة المستمرة تنمو فى شمالى افريقية .

وشمالى هذه الصحراء الواسعة الشاسعة الأطراف كان هناك اتصال عظيم لم يقطع الا نادرا ــ بين المدن والحضارات النامية فى شمالى افريقية ــ والشرق الاوسط والبحر الابيض . وفى جنوبى الصحراء لم يكن هناك ما يعوق الحركة والاتصال فى الأرض الرئيسية للقارة . حتى اننا نجد اليوم الشعوب الزنجية فى كل مكان فيها تقريبا وكان تباعد الشمال عن الجنوب يزداد يوما بعد يوم كما اتجه التطور فى كل منهما اتجاها مختلفا .

وهذه الحقيقة الكبيرةتخضع لبعض التحفظات فلم ينقطع الاتصال تماما بين الشمال والجنوب ، اذ كانت طرق الاغارة والتجارة والهجرة تتجه جنوبا من فزان للنيجر او بجوار الساحل جنوبا على البحر الاحمر وحول القرن الشرقى لافريقية .

وقد امتدت تجارة قرطاجنة جنوبا على طول الساحل الغربى

برغم أن السرية التى التزمها الفينيقيون قد حالت دون معرفة الأجيال التالية حجمها أو مداها . وكانت الخيول والعربات مألوفة فى الصحراء لعدة قرون بعد سنة ١٢٠٠ ق م وبعد ذلك كانت الجمال . غير أن الطرق عبر الصحراء كان من العسير متابعتها لطولها وخطرها ، حتى ان العرب فى العصور الوسطى وهم يسافرون بين آبار معروفة كانوا يقضون أحيانا شهرين لاتمام الرحلة بل ان بعض من بدأوا لم يصلوا قط لأهدافهم .

وليس معنى ذلك ــ بالطبع ــ القول بأنه لولا جفاف الصحراء لاتبع نمو المجتمع الانسانى داخل افريقية نمط البحر الابيض فهذه القارة الفسيحة المتنوعةلابد ان نموها كان دائما وفى جميع الاحوال دون انتظام ، ودون تساو وبعض سكانها كانوا يسبقون غيرهم لأن طبيعة البلاد وغاباتها وسهولها وكذا مرتفعاتها الصحية ومستنقعاتها المملوءة بالملاريا ، ووفرة بعض أنواع النباتات والنقص الشديد فى بعضها ــ كل ذلك لابد أنه فرض أنماطا فريدة غير منتظمة من النمو .

بيد أن جفاف الصحراء بالرغم من هذا ليس أقل أهمية فى هذا الصدد .

ففى شمال الصحراء كانت حضارات الهلال الخصيب حرة فى أن تفعل وتتفاعل مع غيرها تأتى باختراع اثر اختراع وتمارس ضغطا متجددا ابدا من المنافسة بعضها مع بعض ومع جيرانها حتى انتقلوا عبر القرون من بداية بدائية لأمجاد النظام الملكى الدينى فى عصر البرونز .

أما فى جنوب الصحراء فلم ينفذ للشعوب التى كانت تعيش فى قحطها الا الصدى الخافت لهذا الغليان فى الشمال . ثم تلاشى الصدى .

واذا سألنا لماذا ظهرت الحضارة القديمة فى وادى النيل وفى الشرق الأدنى وحول الفرات لافى شمالى أوروبا أو جنوبى افريقية ــ فان هذا يدعونا أولا للتأمل ففى هذه المرحلة من المعرفة لا يعدوا الأمر الا أن يكون كذلك . ويبدو أن .. الزراعة فى وادى النهر هى مفتاح الموقف . فقد نشأت كل الحضارات القديمة فى وديان الأنهار العظيمة ، وهذه الأنهار مهما اختلفت كانت تتميز بالرى الطبيعى وتجديد التربة وفى كل عام كانت هذه الأنهار تعطى أرضا جديدة بصورة غير عادية ــ للزراعة . وبذلك مكنت الرجل الذى كان يكتشف امكانية زراعة الطعام بدلا من جمعه أو صيده ليغير من حياته القائمة على التنقل والترحال وعندما فعل ذلك ــ عندما استقر فى مكان واحد عدة سنين مرة واحدة واجهته المشكلات الفنية للزراعة المنتظمة ــ وعندما تمكن من حل هذه المشكلات ــ حيث كان الرى من النهر يمنح فى كل عام أرضا جديدة حل أيضا مشكلة انتاج فائض من الطعام .

وعندما طرأت هذه الظاهرة التى لم تعرف حتى الآن . وهى فائض الطعام ظهرت أسس التجارة . ولكن التجارة كانت أساسا ، فى مقابل ذلك ــ للاستقرار النهائى ، وكان معنى الاستقرار النهائى تقسيم العمل ونمو المدن ، وكان معنى نمو المدن الحضارة و الحكومة

المركزية للحكم الاتوقراطى الالهى الذى ميز العصر البرونزى فى مصر وحضارات قديمة أخرى .

وهكذا كانت الظروف ملائمة عندما يتطلب الأمر الحساب ولو لعد البضائع التى كان الكهنة يكدسونها فى شون ومخازن الفرعون ، وكانت الوسائل الأولى للحساب هى التى قادت بدورها وسائل الكتابة وقد اكتشف علماء الآثار بعد خمسين سنة من الاكتشافات الثورية كثيرا من الأمور المعقدة ـ ولكنها أظهرت مدى آلية النمو . واذا كانت المراحل الدقيقة ما زالت محل سؤال فان الطبيعة العامة لهذه القضية مقبولة .

وفى جنوبى الصحراء ـ التى حرمت الاتصال بحضارات العالم القديم كانت الأمور تجرى بشكل مختلف. ويبدو أن ظروف الاستقرار فى وديان الأنهار التى كانت جاثمة فى الشرق الأوسط والهند والصين فشلت فى قلب افريقية . وليس هذا فحسب ، بل ان الأرض كانت من السعة حتى ان الحاجة لفائض من الطعام كانت معدومة أيضا . وعندما كان السكان الأولون تعوزهم الحاجة كانوا ينتقلون ببساطة لمكان آخر وعندما نشأت بعد ذلك كثافة أكثر من السكان لا تحتملها مساحة معينة بعد وسائل الزراعة وعصر المعادن حدث الشيء نفسه مرة ثانية فكانت فروع القبائل تشد رحالها من ارض القبيلة الأم الى أرض جديدة .

وكانت تنتقل فى أغلب الأحوال الى أرض بكر . وكانت تصطدم أحيانا بمهاجرين أو رحل سبقوها وعندئذ كانت تتحاشاهم حتى تتسرب أمواج الهجرة الجديدة عبر الغابات والسهول ، ولهذه الصورة البسيطة استثناءات واضحة غير أنه يجدر الاحتفاظ بهذه الصورة فى ذهننا لأنها تساعد على توضيح الوسائل والحوافز لاستيطان افريقية تاريخيا .

والآن نعرف كثيرا من القصص القبلية ـ وهى ـ بصفة عامة تحوى قصة الهجرة والاستقرار فى مكان جديد . وهى غالبا ما تحكى التحرك من الاتجاه الشمالى أو الشرقى ومن المرجح جدا أن يكون الميل العام للهجرة من الشمال للجنوب .

وهكذا تصبح صورة جنوبى الصحراء تمثل حركة لاتستقر ، تزداد سرعتها عبر القارة دون أن تقف سلاسل الجبال العظيمة أو الصحراوات الواسعة عقبة فى طريقها . وحتى الغابات الكثيفة التى تحيط بنهر الكونغو شهدت هذا التوغل لقبائل مجهولة فى أزمان غابرة، وكانوا يتحركون كجحافل معالنجوم غيرالمرئية جنوبا وغربا ثم يعودون بعد فترة من الوقت فيتجهون شرقا وشمالا فى مدارات خفية لا نعلم من أمرها شيئا .

عمالقة وابطال :

ولم يكن هذا التعمير لقلب افريقية خلال نحو ١٥٠٠ سنة مضت بوساطة الشعوب التى نعرفها اليوم . ذلك أن هذه الشعوب طواها النسيان ولم يعد لها وجود الا فيما يروى من اساطير عن الأسلاف ،

رجال يعيشـــون على الاعجـــاب ، عيونهم براقة وشجاعتهم لا تقهر ــ وهؤلاء الابطال هم فيين وبيووف الذين انحدر منهم ســــكان افريقيا الحديثون ، والذين مازالت القلوب تردد أصداء فتوحهم بكل اعجاب . (كما قال رجـــل عجـــوز من Bunijoro فى أوغندا لجراى الرائد من Bachuezi فى العصور الوسطى :

« كانوا يجولون بلا مانع أو عقبة لأماكن لم يطأها انسان من قبل »

وكان لا يمكن النظـر اليهم فى وجوههم . لأن عيونهم كانت ذات بريق يؤذى عيون من ينظر اليهم ، كما يحدث عند النظر الى الشمس »

ويبدو Sao القديم من بحيرة تشــــاد كما يقـــول لييف بيدوفى الأسطورة كعمالقة ذوى قوة خارقة ويحتفل بالأعمال المدهشة بأسمائهم وكانوا يســـدون الأنهار بيد واحدة وكانت أصواتهم من القوة لدرجة انه كان بامكانهم أن ينادوا من بلد لبلدة وكانت الطيور تطير فزعة اذا سعل أحدهم وكانت رحلاتهم للصـــــيد تنأى بهم عن أماكن سكناهم ــ وكان هؤلاء الصيادون المحظوظون يحملون صيدهم من الفيلة وأفراس النهر على أكتافهم بسهولة ــ وكانت أسلحتهم أقواسا من جذوع النخيل .. وحتى الأرض كانت تتحمل ثقلهم بصعوبة !

ولسنا بحاجة الى أن نقول ان الأسطورة القبلية لا تعطينا معلومات محددة عن السكان الأولين أبدا . ولكنها بقايا على بقايا ــ وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نزيح طبقة بعد طبقة حتى تتداعى المعلومات كلها .

وبالنسبة لشعوب كثيرة ــ من مجموعه المتحدثين بالبانتو ــ يمكن أن تتم هذه الازاحة لمدى ٣٠٠ او ٤٠٠ سنه في الماضى وهنا وهناك كما هو الحال على سبيل المثال مع البوشنجو الذين قابلهم توردای لمدى أطول من ذلك بعض الشيء . وقد وصل كثير من الشعوب التى تعيش الآن فى وسط وجنوبى القارة ــ كما يبدو الى أماكن سكناهم خلال عدة مئات من السنين مضت غير أن بعضهم وصل فى الوقت نفســـه مع أقاربهم الذين وجدوهم أو خلفوهم بعد ذلك بمدة طويلة .

وتدل حالة البوشنجو على طول الاستقرار . ويبدو أنهم عاشوا فى منطقة نهر ساتكارو سبعمائة أو ثمانمائة سنة وخلال هذه المدة طوروا ثقافة متميزة كانت بارزة سواء فى نظامهم الاجتماعى أو انتاجهم الفنى . ويمثل السالا أحد شعوب ايلا ــ تونجو فى شمال روديسيا وغربها عكس هذه الحالة. فهم يمثلون شعوبا استقرارها جديد نسبيا . ويقول جاسيان: « يقال ان تاريخ السالا بدأ حوالى سنة ١٨٢٠ حين ظهرت زعيمه تدعى نامومت من مقاطعة شمال غربى لوساكا وأسست قرية ثم ماتت ناموميب حوالى سنة ١٨٣٥ وورثت أختها مانتجا الزعامة ولكن أقصاها بعد ذلك شونجو بن ناموميب . وفرض ضريبة على عاج الفيلة كلها وجلود الصيد التى يصطادها رعاياه .

وربما اتضحت الدوافع التى أدت الى اعادة تشكيل القبائل وكانت أحيانا من عناصر مختلفة ، من رجال ونساء من قبائل متباينة من كثير

من تلك التواريخ القبلية ، ومن أبرز الامثلة على هـذا اللوندا الجنوبيون وجيرانهم الذين ينتمون اليهم فى حوض الكونغو الأعلى ٠

وكما يقول ما كلوش كانت أول هجرة على نطاق واسع من مملكة لوندا هجرة الشنجولى والشيناما أشقاء لويجى وكانت لويجى الزعيمة الكبرى للوندا بين عامى ١٥٩٠ ، ١٦١٠ ٠ ولأتباعهم بين عامى ١٥٩٠ ، ١٦٢٥ ٠ وكان من أسباب رحيلهم بحسب التقاليد المختلفة عدم الرضا عن وصول أختهم للسلطة ٠٠٠ فذهب شنجولى غربا وأسس أخيرا شعب بانجالا الذين يعيشون شمالى أنجولا وغربى الكونغو (البلجيكى) وذهب شنتياما جنوبا ثم غـربا وأسس هو وأتبـاعه لوينا شـعوب شـوكو ولوشازى ٠

وكان التقدم معقدا واستمر مدة طويلة ٠ وعن شعوب يتشوانالاند كتب الينبرجر فى سنة ١٩١٢ « لما كان نابو أخو موشولى الصغير غير راغب فى العيش كقشة تحجبها شجرة ، فقد ترك أخاه الاكبر وهاجر جنوبا فى حوالى نهاية القرن الخامس عشر ٠٠٠ ولهذا يضيف شابيرا الذى كتب بعد ذلك بسنوات قليلة كل الذى يمكن قوله بثقة هو أن ايتسوانا الذين يعيشون فى تيشوانا لاندا اليوم كانوا فعلا فى النصف الشرقى من مكان سكناهم الحالى حوالى سنة ١٦٠٠ بعد الميلاد وخلال القرنين اللذين تليـا ذلك واستمر انخراط عقد المجموعات الموجودة ٠ وكانت ظاهرة دائمة الحدوث فى تاريخ تسوانا أن تنفصـل قبيلة يقودها أحد أفراد العـائلة الملكية غير الراضين وتتحرك الى موقع جديد ٠ وهنـاك كانت تقيم قبيلة منفصلة تحت زعامة قائدها وتسمى باسـمه ـ الذى أصبحت تعرف به غالبـــا ٠

والتواريخ تقريبية غير أن ثمة شكا قليلا فى أنها صحيحة على وجه التقريب ٠

ومثل هذه النماذج العارضه من تاريخ الهجرة ـ قد تضللنا الى حد كبير لو جعلتنا نحس بأنها مجرد حركة متكررة داخل اطار اجتماعى راكد أو غـير قادر على النمو ٠ فمع اتبـاعهم لخطوط نموهم نفسها فان هـذه الشعوب النشيطة المتزايدة كانت ناجحة وذات قدرة على الاختراع ونجحت فى مواصلة حياتها والاستقرار حيث لم يعش انسان من قبل ٠ وبعضهم ـ والبوشونجو مثل ملحوظ ـ بيد أنه واحد من عديد من هذه الأمثلة حققوا الاستقرار وتقدموا فى الزراعة فقد قهروا الظروف المحيطة بهم وتعلموا أن يعيشوا معها فى سلام ، ولا يمكن استخدام كلمة « بدائى » بالنسبة لهم ـ مع الانصاف الا فى حدود ضيقة للغاية وبمعنى تكنيلوجى ٠

وسيؤيد تعليق اميل (Torday) هذا الرأى ٠ فقد كان يكتب عن الملك شامبا بولونجوجو الذى بدأ حكمه للبوشنجو حوالى سنة ١٦٠٠ ويقال : أنه ألغى جيشه العامل ومنع استخدام السكاكين فى الحـرب ٠ ويقول تورداى « ملك افريقى مركزى فى بداية القرن السابع عشر كانت انتصاراته الوحيدة فى حقل الثقافة والرخاء الشعبى والتقدم الاجتماعى وما زال يذكره كل واحد فى بلده حتى اليوم لا بد أنه كان حقا شخصة

جديرا بالاعجاب » • والحق أن توردای كان متحمسا • ولو أن آراءه عن ماضى افريقية الوسطى تميل قليلا نحو المثالية الخيالية الا أنها بالرغم من ذلك أقرب للحقيقة من مباذل الفوضى الوحشية التى قدمها آخرون كوصف للماضى •

ولكن هناك عدة نقاط هامة تبرز فى وجه هذا الأساس للتقدم المتداخل للهجرة والاستقرار • فاذا كان أهل القارة الافريقيه المعاصرون بدءوا يتزايدون بعد ندرتهم منذ حوالى ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ سنة أو اقل فان عددهم لم يزد حقــا وينتشروا عبر القارة ويحصلوا على القوة التى لهم اليوم الاخلال الالف والألف وخمسمائة سنة الأخيرة .

وهذه الحقيقة المحتملة لحركتهم الكبرى وهجرتهم خـــلال عشرة قرون تقريبا قبل دخول التجارة الأوربية وتغلغلها هى التى تعطى فترة ماقبل التاريخ هذه دلالة كبيرة ، وعندما يكتب التاريخ المحدد للشعوب الافريقية ، بعيدا عن تردد المتعلمين وتكهنات غير المتعلمين فان عليه أن يفسر سير الاكتشاف ونمو الزراعة فى قلب افريقية بل أكثر من ذلك سير الاكتشاف ونمو استخدام المعادن وبخاصة الحديد .

ولهذا السبب • اذا عدنا الى الخطوط المتواضعة التى تحدد هــذا الاطار ستعتبر هذه الاسئلة بالغة الحيوية . لان التوسع فى الزراعة واستخدام الحديد بالاضافة الى مؤثرات البيئة التى تدل عليها هــذه الامور هو الذى صاحب وتحكم فى الحاجة الى الهجرة وامكانياتها بنجاح فى ارض جديدة غير معروفة ، ولم يكن هذا العمل عملا صغيرا ، فهؤلاء الناس انتشروا فى خطوط رفيعة ، وعاشوا فى هذه القارة الصعبة المتطرفة التى ينقصها الكثير من النباتات الثابتة التى يعيش عليها الانســان فى أماكن آخرى •

وهناك نقطة هامة — على سبيل المثال — وهى ان عملية الهجرة لاشك قد عاقت النمو الاجتماعي وتطور المجتمع — كما أنهم لم يتعرضوا لتلك الازمات الاجتماعية والاقتصادية التى ساعدت على سرعة التغير فى أراض أقل سعة وأكثر كثافة بالسكان ، ولأنهم كانوا فى حركة وتنقل دائمين لان الاراضى كانت واسعة وسكانها قليلين • وكان القنص وصيد الاسماك وقليل من فلاحة الارض تمدهم بوسائل مناسبة لهم •

وطالما ظلت هذه الوسائل مناسبة لم يسعوا وراء تحسينها فكانوا ينتقلون لمكان آخر ويتبعون قطعان البقر الوحشى التى تموج بها الارض •• يبحثون عن مراع جديدة أو يمهدون الارض •

غير أن سجلهم بعيد كل البعد عن الجمود ، فقد كانت هذه الشعوب من الرواد الاوائل • كانوا يحرثون حيث لم يحرث انسان من قبل وكانوا يستخرجون المعادن دون أن يريهم أحد وسيلة العمل • واكتشفوا أعشابا طبيعية استخدموها فى العلاج وكانوا ماهرين فى رى الارض والاحتفاظ بالتربة على جوانب التلال المنحدرة وانشأوا نظما اجتماعية جديدة معقدة • وقد حوروا ما أمكنهم استعارته من آخرين فى الشمال يعتبرون فنيا أكثر تقدما فى نظمهم الاجتماعية وأضافوا ولاءموا وجربوا واخترعوا ، حتى

استطاعوا بمرور الوقت أن يحصلوا على وسائل فنية متعددة ويتفوقوا فى الفنون ، وكان لهم دينهم وموقفهم وأمزجتهم التى انفردوا بها والتى كونت زنجيتهم التى نعرفها اليوم ·

والعصر المعدنى الافريقى الذى امتد فى الخمسة عشر قرنا أو العشرين قرنا الأخيرةهو باختصار عصر التكوين الأفريقى الحديث· وكان له قوته الدافقة للنمو والتغيير التى انتجت ثقافاتها وحضاراتها الافريقية الخالصة · وهى الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب ·

ولكن قبل أن ننتقل لهذا الموضوع الرئيسى يجدر بنا أن نلقى نظرة على التاريخ القديم · والى أىمدى تدين الأعمال فى العصر البسيط وماقبله للحضارات القديمة فى الشمال ؟ وكيف كانت تجرى خطوط التأثير ؟ والى أى حد كانت أهميتها ؟

الفصل الثانى

أسرار ميرو

١ ـ سيادة الحدود الجنوبية :

قبل أن يعبر يوليوس قيصر القناة الانجليزية بنحو أربعمائة عام « قام بعض الشباب المغامرين ـ كما يسميهم هيرودوت ـ من أبناء الزعماء وأصدقائهم بعبور الصحراء من الشمال الى الجنوب بعد أن غادروا سيرانيكا حيث كانوا يعيشون ٠٠ توغلوا مسافة طويلة نحو الجنوب والجنوب الغربى ٠٠ وبعد عدة أيام شاهدوا الاشجار تنمو على الأرض المستوية ٠ وأخذوا يقطفون ثمارها ٠ وبينما كانوا يفعلون ذلك هاجمهم رجال قصار القامة ٠٠٠ أقصر من نصف طول الانسان العادى وقبضوا عليهم ٠٠٠ كانوا يتحدثون بلغة غير مفهومة وبعد أن عبروا بأسراهم أرضا مملوءة بالمستنقعات وصلوا الى بلدة سكانها من الأقزام السود ٠ وكان النهر يموج بالتماسيح

وكانت هذه اول اشارة عن نهر النيجر. وربما كان نهر الكمودوجو الذى يجرى شرقا حتى بحيرة تشاد.. وربما كانت ذلك أيضا أول اشارة بقيت لنا عما كان فى يوم ما من قصص الرحلات الحية عن السفر عبر الصحراء ٠

كان كثير من الحضارات المتقدمة القديمه ٠ فى وادى النيل والشرق الأدنى من الأهمية بمكان ٠٠٠ بالنسبة للقارة الافريقية ٠٠ ولكن ليس من اليسير أن نحدد مدى هذا القدر من الأهمية ٠٠ وتؤكد المعلومات الحديثة برغم عدم اكتمالها أنها أكثر أهمية مما كان يظن من قبل ٠٠٠ وبينما كان هؤلاء الشباب يسافرون حيث لم تطأ قدم أحد من مواطنيهم فانه يبدو محتملا انهم سلكوا طريقا عرف منذ زمن بعيد قبلهم ٠٠ وكان يسلكه عادة الليبيون ٠ وبرغم ان الاكتشافات الأثرية عن الصلات بين الشمال والجنوب لا تزال فى بدايتها فان أساس ذلك يعود الى التاريخ العلمى لمصر القديمة ـ : فالحفريات فى مدينة جريكو فى السنوات القليلة الماضية أثبتت أن زراعة مستقرة كانت فى وادى الأردن ويعود تاريخها الى ثمانية آلاف عام مضت ٠ على حين يبدو أن الزراعة فى وادى النيل ، حيث توافرت امكانيات الرى السهلة قد بدأت متأخرة عن ذلك التاريخ، فقد أثبتت الاختبارات الراديوكاربونية أن شعوب العصر النيوليثى قد ضربوا خيامهم الى جانب مياه بحيرة الفيوم وزرعوا هذه المنطقه ما بين عامى ٤٥٠٠ الى ٤٠٠ قبل الميلاد ٠

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الزراعة تستقر وتنتشر لعدة مئات من

الأميال على طول ضفتي النيل الأدنى ، وقد أدخل هؤلاء نماذج متقدمة من الزراعة واحسنوا استخدام آلات الحرث والثيران ، ومن ثم استطاعوا أن ينتقلوا بأنفسهم من بداوة قبلية الى مجتمع زراعى مستقر هو أســـاس الاسر المالكه المصريه القديمة التى حكم فراعنتها أكثر من ثلاثة آلاف عام بعد ذلك ، ومع بداية الأسرة الرابعة – وربما بعد ثلاثمائة عام من هذه البداية بدأت مصر تبرز كدولة ملكية متقدمة على رأسها حكومة تسيطر على كثير من مصادر الثروة · هذه الثروة التى مكنت خوفو احد ملوكها من أن يقيم الهرم الاكبر منذ حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد · ومن ثم بدأت الأيام الخالدة لحضارة مصر القديمة ·· وهنا يبرز سؤال : الى أى مدى وصل تأثير هذه الحضارة على طول وادى النيل جنوبا وغربا ؟

هناك حقائق تتصل بهذا التأثير جنوبا · فقد كان انتقال هـــــذه الحضارة جنوبا أمرا طبيعيا · يؤكده أبناء النوبة حتى خلال حكم الأسر الوسيطة ·· كانوا يرعون قطعانا كبيرة من الماشية فى هذه المناطق فى أقصى الجنوب التى لم تكن كما هى الآن شديدة الجفاف ··· ومن ثم فقد وجه الفراعنة الأقدمون أنظارهم جنوبا وتطلعوا الى الغزو · وكان تاريخ حملاتهم الى الجنوب يسير فى خط واحد مع تاريخهم وتاريخ أسلافهم ·

هذا الى جانب صلاتهم بالشعوب الليبية غربى وادى النيل ، الا أن هذه الصلات الأخيرة لم تكن ثابتة أو دائمة · فكل ما وصل الينا من أخبار هذه الصلات لا يعدو أن يكون أخبار معارك حربيـــة قامت بـين الطرفين · فقد اكتشف لوت بين صخور وديان جبال تاسيلى فى منتصف الصحراء الكبرى شواهد على التأثير المصرى القديم فى شكل رسوم تعكس صورا لنماذج مصرية من الفن من بينها خمس صور لمراكب فى النيل فى هذا المكان الصحراوى القاحل · وكما سبق أن بينا فان هذه الصلات بين المصريين القدماء ·· وقاطنى الغرب ·· كانت صلات غزو أكثر منهـــا صلات استقرار واقامة · وكل ما وجد من آثارها لا يخرج – كما قلنا أيضا عن تاريخ الحروب أو عن صور للحياة فى مصر القديمة سمع بها الليبيون · فليس هناك ما يؤكد أن البعثات المصرية وصلت فعلا الى جبال تاسيل حيث تم العثور على هذه النماذج · وان كان هذا لا ينفى احتمال وصولها الى هناك ·· غير أن هناك الكثير الذى يثبت أن هذه الحملات المصرية اتجهت جنوبا فى النيل وعلى شواطىء البحر الأحمر · فالوثائق التاريخية حافلة بالتفصيلات الواضحة المنوعة فى هذا الصدد · فكثيرا ما وصل التجار والجنود المصريين الى بلاد بنت وبلاد كوش واثيوبيـــا والصومال وما يعرف اليوم بالسودان ·· بل وربما وصلوا الى أبعد من ذلك ·· الى شواطىء بحيرة شاد وغابات الكونغو ومرتفعات أوغندة الا انه لا توجد آثار ثابتة لمثل هذه الصلات ·

فالتأثير المصرى المباشر المؤكد لم يتوغل اذن الى أبعد من وادى النيل الاوسط والاعلى · أما المعتقدات والافكار والمخترعات المصرية القديمة فقد انتقلت الى أبعد من هذا عن طريق الكوشيين وشعوب شمالى أفريقية ·· وان كانت قصة هذه الحملات المصرية عبر الجنوب تدلنا على مدى ما كان عليه أفرادها من جرأة واصرار ومهارة ·

هناك مثلا نقوش باسم « اوسركاف » مؤسس الاسرة الخامسة (٢٥٦٠ ق‌م) على صخور الجندل الاول عند أسوان أما « ساحور » الذى خلفه فقد بعث بسفنه الى بلاد بنت ودون ما يؤكد أول اتصال مباشر مع هذه المناطق الجنوبية البعيدة (وان كان أحد أبناء خوفو من قبل قد امتلك جارية من هذه البلاد) ٠

وقد عادت هذه السفن محمله بخشب المر والابنوس والمعادن من الذهب والفضة ٠٠ وقد ذهبت حملة أخرى من الأسرة الخامسة يرأسها « بيردر » مدير خزائن فرعون ٠٠ وكان من بين ما عادت به قزم يبدو أنه من سلالة الاقزام بأفريقية الوسطى وزاد فراعنة الاسرة السادسه من توثيق هذه الصلات التجارية بالغزو المباشر حيث كان للملك بيبى الاول من السلطة والسيطرة على البلاد التى تلى الجندل الاول جنوبا ٠٠ ما مكن نبلاءه وقادته من ضم عدد كبير من أبناء الزنوج الى جيش فرعون

وقد استطاع الملك يرنيرى أن يبسط نفوذه على هذه الاماكن الجنوبية ، حيث عين حاركوف حاكما على منطقة الجندل الأول ٠ وقد اتجه حاركوف هذا أكثر من أربع مرات جنوبا الى بلاد « يام » فى رحلة استغرقت سبعة أو ثمانية أشهر ذهابا وإيابا وربما يكون حاركوف قد وصل فى رحلاته هذه الى مستنقعات أعالى النيل أو الى تلال دارفور وعلى أية حال لابد أنه وصل الى الأطراف الجنوبية لما يعرف الآن بمنطقة الصحراء ثم عاد محملا بالابنوس والعاج والبخور « وبكل بضاعه طيبة » وعندما عاد من رحلته الرابعه احضر معه قزما من « أرض الارواح » أو « أرض الآلهة » التى كان المصريون القدماء يظنون أنها غرب النيل والتى كان لها تأثير غامض عليهم باعتبارها الأرض التى ترتبط بذكرى أسلافهم ٠

وقد بدأت مع بداية المملكة الوسطى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق٠م سيطرة المصريين الدائمه على الاراضى الجنوبيه فيما وراء الجندل الاول ٠ فالغزوات جنوبا بدأت مرة ثانية بعد فترة طويله من الانحلال والتدهور الذى انتهى مع نهاية الاسرة الحادية عشرةوبداية الاسرة الثانية عشرة ، وبدأت الصلات مرة أخرى مع بلاد بنت فى عهد الملك امنمعت الثانى فى هذه الاسرة واستمرت فى عهد سيزوستريس الثانى حيث شيدت عند الشلال الثانى بالقرب من وادى حلفا قلاع مصرية مثل قلاع سمنا الثلاث ٠ وكان من الممكن بعد ذلك أن تتوغل السيطرة المصرية القديمة أكثر نحو الجنوب لولا غزوات الهكسوس الذين قدموا من آسيا سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد تقريبا ٠ وان كانت مثل هذه السيطرة قد تحققت مع قيام الاسرة الثامنة عشرة التى تعتبر بحق بداية للعصر الامبراطورى لمصر القديمة حيث قاد تحتمس الأول ـ الفرعون الثالث فى هذه الأسرة ـ حملة ناجحة ناحية الجنوب حوالى سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد فوصل الى دنقلة وتوقف كما يقول برشيد على المدخل الشمالى لاقليم دنقلة الذى يعتبر بحق الحديقة العظمى لاعالى النيل ، بمعنى أن تحتمس وصل بالفعل الى ما بعد الجندل الرابع حتى وصل كورجوس على بعد حوالى أربعمائة ميل ، مما يعرف الآن بالخرطوم ، وعلى بعد يقل عن ثلاثمائة ميل عن ميرو عاصمة الكوشيين ،

وربما تكون قواته قد وصلت الى ابعد من ذلك كما يعتقد بعض المؤرخين . ولكن هذا الاحتمال سيظل مجرد احتمال حتى تؤكده أو تنفيه نتـائج الاكتشافات الحديثة فى أطلال ميرو .

وبعد موت تحتمس الأول ثار الكوشيون فى دنقلة على المصريين ولكن ثورتهم سحقت وسادت فترة من الاتصال السلمى مع مصر بعد ذلك . ثم تأتى بعـد ذلـك أعظم القصص وأكثرها تفصيلا عن التوغل المصرى فى الجنوب البعيد .. مدونة على معبد الدير البحرى بالاقصر حيث تروى الملكة حتشبسوت قصة بعثتها الى بلاد بنت .

وتبدأ هذه القصة بخمس سفن تستعد للرحيل فى البحر الأحمـر .. ثم تبحر فى هدوء الى بلاد بنت حيث تصل بسلام ويحييها زعيم البلاد بنت بيريهو تتبعه زوجته السمراء السمينه وأطفاله الثلاثه وخدمه ... ونرى المنازل فى بلاد بنت وقد بنيت على أعمدة بين الأشجار .. ونرى خلفه زعماء البلاد الذين يلتمسون رضا ملكة مصر .

ثم نرى أيضا صورا لتفريغ حمولة هذه السفن عند عودتها مملوءة بالأعاجيب من هذه البلاد ... الأخشاب المعطرة ... وأكوام منخشب المر والصمغ والابنوس والعاج والـذهب والبخور ... والـكحل والقردة والكلاب وجلود الفهد .. وبعض سكان البـلاد الأصليين وأبنائهم .. ولكن الفراعنة مع ذلك لم يغزوا قط بلاد بنت ، ولكن سفنهم وتجارتهم كانت تزورها بين الحين والحين .

وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم بعد الملكة حتشبسوت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد سجل على الآثار أنه آتى بالبضائع من هنـاك عن طريق البحر .. وربما عن طريق البر أيضا .

واستمرت سيطرة المصريين على بلاد كوش وتجارتهم مع بلاد بنت حتى عصر رمسيس الثانى (١٢٩٢ - ١٢٢٥) قبل الميلاد على الاقل وهو أقوى فراعنة الأسرة التاسعة عشرة . وتلا ذلك فترة من الانحلال فى مصر . وبعد ذلك بنحو خمسمائة عام تمكن الكوشيون من انهاء السيطرة المصرية .. بل ومن غزو مصر نفسها ... وبدأت حضارة كوش ومملكة نباتا ؟ ... واستمرت ألف عام تمد تأثيرها الحضارة جنوبا وغربا .

مصر ... ليبيا ... كوش :

هذه هى الخطوط العريضة لصلات المصريين بالقارة الافريقية ، وهى برغم استمرارها لفترة طويلة فان هذا الاتصال كان فى حـدود خفيفة نسبيا : فقد حدث فى الفترة التى تعرضت فيها الأرض فى الجنوب والغرب للجفاف كان ان اتجه ضغط الهجرة صوب الجنوب والجنوب الغربى فى قلب القارة البعيد .

وقد حمل آخرون ثمار الحضارة القديمة فى النيل والشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط ، وفى خلال حكم الاسرة ٢٢ الذى بدأ سنة ١٩٥٠ قبل الميلاد فى فترة التدهور المصرى نمت ثلاث مناطق حضارية جديدة

وظهرت الى الوجود وقامت بعملية نقل الحضارة ... أول هذه المناطق كانت فى الجنوب فى بلاد كوش التى اصبحت قوة عالمية فى القرن الثامن قبل الميلاد .. وتمتعت بقوة ذاتية عدة قرون بعد ذلك ... وكانت فى بعض النواحى أعظم حضارة افريقية قديمة نقية .

والثانية كانت حضارة قرطاجنة وولايات البربر الليبية التى كانت على اتصال وثيق بقلب القارة الأفريقية .

ومنطقه الاشعاع الحضارى الثالث كانت فى الشريط الجنوبى لبلاد العرب (بلاد البخور) وهى المعروفة اليوم باليمن وحضرموت .

وعندما سافرت ملكة سبأ شمالا تتبعها قوافل طويلة تحمل الذهب والأحجار الكريمة والتوابل .. وأتت الى سليمان .. كانت تسافر فى الوقت نفسه جيوش سبأ لتستقر فى مرتفعات اثيوبيا .. وكانت كـل هذه الحضـارات تؤثر فى معتقدات وأفكار أبناء الاراضى التى تليها الى الجنوب .. فمنذ ثلاثة آلاف سنة بالنسبة لمصر وألف سنة بالنسـبة لقرطاجنة وكوش وجنوبى بلاد العرب كانت القوة الدافعة لهذه الحضارات تتجه الى الجنوب والجنوب الغربى وتحدث التطور والتغيير الحاسم فى قلب القارة الافريقية مثل : اكتشاف وتطوير الزراعة واستخدام المعادن وبث الأفكار والمعتقدات الخاصة بنظم الحكم والتى لا يمكن فصلها عن تأثيرهم وتأثير الاحتكاك بهم .

ويرى بعض الثقات أن صناعة الحديد وصلت الى الجنوب عن طـريق شعوب ليبيا التى نقلتها عن قرطاجنة وسواحل البحر الأبيض المتوسط .. ويرى آخرون أن هذه الصناعات وصلت الى الجنوب عن طريق كوش .. وربمـا يكون الرأيان صحيحين . وان كان من المحتمل أيضاآن يكون أبناء الجنوب قد توصلوا الى اكتشاف هذه الصناعة بأنفسهم .

وهكذا فان عهد حضارة ومدنية عالم اليوم كانت فى وديان الانهار . فى مصر والعراق وكانت أصولها فى مصر على الاقل افريقيـه كما هى آسيوية .

وبعد حوالى ٢٠٠٠ سنه نقلت هذه الحضارة الموغلة فى القدم أفكارها وفنها الى بلاد وشعوب أخرى كثيرة .. وفى الوقت نفسـه .. وخلال عصر البرونز الطويل كان الايونيون والحيتيون ينقلون خلاله ما تعلموه الى جنوب أوروبا .. على حين كان الفينيقيون ينقلون بعض حضـاراتهم لشمالى أفريقيا . على حين كانت مصر تنقل تأثيرات حضارتهـا الى كوش ومن ثم الى أماكن أخرى من القارة الافريقية .

والسؤال الآن هو ... ماذا يمكن أن نقوله بصدد هذا التوغل فى قلب القارة الأفريقية ؟..

مـيرو : ـ

تعتبر أطلال مدينة ميرو القديمة من بين أعظم الآثار القديمة فى العالم وتاريخ هذه الاطلال يمثل جزءا هاما من تاريخ الانسان . وهـذه

الأطلال على بعد مائة ميل من مدينة الخرطوم وعلى مقربة من مدينة شندى وتميزها أهرام ملكية ، وبين هذه الاطلال وضفة النيل وعبر السهل الممتد الى مدى ميلين تقريبا تبرز مجموعة من المرتفعات تحدد بالضبط مكان ميرو القديمة ٠ وعلى اليسار بالقرب من النهر معبد الشمس الذى أشار اليه هيرودوت وقريبا من خط السكة الحديديه المتجه شمالا تلين ارتفاعهما حوالى ثلاثين قدما يلمعان فى ضوء الشمس وتعتبر هذه المنطقة أغنى منطقة أثرية فى أفريقيا بل فى العالم أجمع لم تكتشف بعد ٠ وقد تم التنقيب فى جزء من هذه الأطلال واستطعنا أن نعرف الكثير عن ملوك وملكات حكموا هذه المنطقة طوال ألف سنة ، قبل سنة ٢٠٠ ق٠م ٠

وفى سنه ١٩٥٨ كان الدكتور فون فوكوتير مدير الآثار فى حكومة السودان وأحد المتخصصين فى علم الآثار المصرية القديمة يجرى أبحاثه فى هذه المنطقة الى جانب بعثة من جامعة هامبولد ببرلين برياسة البروفيسور هينتزه وهو أحد قلائل متخصصين فى النقوش الهيروغليفية بميرو ٠ وقد تم تحقيق هذه النقوش فى بعض مواقع هذه الأطلال حيث تبرز بعض المعابد على ظهر الارض فى حين اختفت باقى آثار المدن القريبة ٠ ومن بين هذه المعابد أطلال معبد « مصورة الصفراء » على طريق واد ابن نجع ـ عليه رسوم لآلهة ٠ وبالرغم أنها ليست آلهة مصرية قديمة فانها تبرز تأثيرات مصرية تتضح فى مظاهر الفخامة والترف البادية عليها ٠ وحول المقر الرئيسى فى هذه الاطلال تبدو اطلال مساكن الحاشية والكهنة والاصطبلات ومكاتب التجارة ٠

انتصار كوش :

هذه حضارة أخذت كثيرا من العالم الخارجى ٠ وعلى بعد عشرين ميلا فيما وراء أطلال «مصورة الصفراء» معابد نجع سليمة أو تكاد وتعود الى التاريخ السابق نفسه ٠ وعلى الحائط الخلفى « لمعبد الأسد » نقشت صورة أسد ذى أربع أذرع وثلاثة رءوس من الآلهة ٠٠٠ ربما يعود أصله البعيدة الى تأثير هندى أو قرطاجنى أو أفريقى قديم ٠٠٠ وفيما وراء هذه المعابد عدة مبان أخرى تؤيد السجل الحضارى الذى كان افريقيا بصورة واضحة فى مجموعة أفكاره التى كانت شائعة فى العالم المتحضر آن ذاك ٠٠ وفى متحف الخرطوم مثلا آنية معدنية ذات أسلوب صينى فى الصناعة ٠٠٠ فقد ظلت هذه الحضارة السودانية القديمة (الحضارة الكوشية فى بناتا وميرو) مركزا آفريقيا عظيما لتبادل أساليب الفكر والصناعة بينها وبين مختلف الحضارات ٠ وكان العالم القديم يعرف تماما قدر هذه الحضارة الكوشيه ٠ فعندما قابل « الحوارى » فيليب أحد أعيان كوش وعمده على الطريق المؤدية من بيت المقدس الى غزة بعد صلب السيد المسيح فترة قصيرة اعتبر الحواريون هذا العمل نصرا أكيدا لهم ٠ لما كان لكوش من مكانة فى هذه الأيام ٠٠ وان كنا لم نعثر حتى اليوم بين هذه الأطلال على ما يثبت أن أحد رعايا كوش كان مسيحيا ٠٠ ويعمل فى بلاط « مصورة الصفراء » ٠

وقبل هذا التاريخ عكر الكوشيون صفو الرومان فى مصر ، فقد

غزت القوات الكوشية فيلة ومعبد الفينيقيين على الحدود الجنوبية التى أنشأها الامبراطور أغسطس وتغلبوا علـى ثلاث مجموعات من القوات الرومانية المعينة للدفاع عن هذه المنطقة · وقد جمع « بترونباس » حاكم مصر الروماني فى هذه الأيام عشرة آلاف من المشاة وثمانمائة من الفرسان لاسترجاع هذه المواقع · وتتبعهم جنوبا لعاصمتهم نباتا (بالقرب من دنقلة) واستولى على المدينة وحطمها · وبالرغم من أنه لم يتمكن من القاء القبض على حاكم كوش الا أنه نجح فى اطلاق سراح الاسرى الرومان الذين وقعوا فى قبضته وفى استعادة تماثيل الامبراطور أغسطس التى حملها الكوشيون معهم ·

والواقع ان كوش كحقل للاكتشافات الأثرية لم تنل بعد حظها ·· فقد حجبتها اكتشافات مصر التى اعتبرت كنزا للمعلومات عن الماضى البعيد ·· كما أنها أعطتنا معروضات عديدة ملأت المتاحف ولا يمكن أن نلوم الذين تولوا الاكتشافات فى مصر ، فقد كان ذلك من حقهم ·

الا أن ريسنر وجريفيه مارسا عمليات التنقيب فى المقابر الملكيه فى بناتا وميرو وعملا بأمانة فى هذا الحقل · بيد أن نقص الامكانيات المادية لم يمكن الباحثين من متابعة التنقيب الا على السطح فقط ·· باستثناء المقابر الملكية ·· والحقيقة الواضحة بغض النظر عن قيام وسقوط مملكة كوش ـ هى أن حضارتها كانت على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتطور السودان · وبالنسبة لنشر الأفكار الحضارية والأساليب الفنية فى كثير من أنحاء القارة الأفريقية غربا وجنوبا · وسوف تتيح السنوات القادمة فهما أكبر لهذه الحقيقة · أما عن الخطوط التاريخية المجردة فهى كافية فى هذا الصدد ·· فقد ظهرت كوش نتيجة لانحلال الامبراطورية المصريه سنه ٨٠٠ ق·م أو ربما بعد ذلك بقليل · ويبدو ان الضغط المتصل على فراعنة الأسرة الثانية والعشرين أتاح للكوشيين فرصة للاستقلال العملى ان لم يكن للاستقلال التام المعترف به ·

وقد نقل الكوشيون الى عاصمتهم الكثير عن المصريين القدماء فمنذ قدم تحتمس الأول الى نباتا فى ١٥٢٥ قبل الميلاد أصبحت نباتا مركزا هاما لعبادة الاله آمون اله الشمس الذى يرمز له بالكبش · ويقول بعض الثقات ان الاسرة الحاكمة فى كوش كان يؤيدها الكهنة المصريون المنشقون ثم قام كاشتا أو ملوك كوش العظام بغزو مصر نفسها واتم ابنه « بفنخ » هذا الغزو حوالى سنة ٧٢٥ قبل الميلاد وامتـد حكمه من البحر الابيض المتوسط الى حدود أثيوبيا الحديثة وأوغندة أيضا · وكون هؤلاء الملوك فى مصر الأسرة الخامسة والعشرين « الاثيوبية » وجعلوا من كوش قوة دولية ·

وفى سنة ٦٦٦ قبل الميلاد غزا الأشوريون الدلتا بفضل قـوة أسلحتهم الحديدية الحديثة (لأن الأسلحة الكوشية مثلها مثل أسلحة المصريين حتى ذلك الحين كانت من البرونز والحجارة) ، وتراجع الكوشيون جنوبا ولكنهم احتفظوا باستقلالهم وفى حوالى سنة ٥٣٠ قبل الميلاد نقلوا عاصمتهم من نباتا الى ميرو فى الجنوب ولا يمكن على وجه التحديد معرفة السبب فى هذا الانتقال اذ ربما يكون لأسباب تتعلق بالمناخ أو الاقتصاد·

فقد كانت ميرو أكثر قربا من طرق القوافل على نهر العطبرة تلك الطرق التى تؤدى للحبشة ، والى الموانى القريبة على المحيط الهندى. وكانت ميرو فى طريقها لكى تصبح مركزا لصهر وصناعة الحديد مما زاد فى أهميتها . وفى السنوات الألف الأولى قبل المسيح استقر سكان حافة الجزيرة العربية الأول (الذين بعثوا بملكة سبأ الى سليمان) واحتكروا التجارة البحرية فى سواحل بلاد العرب وافريقية والمحيط الهندى) فى شمال أثيوبيا وأنشأوا مملكة قوية عاصمتها أكسوم ، وبعد أن حرم أبناء كوش استقلالهم وعزلوا بين مصر المعادية واكسوم الناهضة .. يخيم السكون على مملكة كوش ويسدل عليها ستار كثيف من النسيان ، ولسنا نبالغ كثيراً اذا قلنا ان قدرا كبيرا من تاريخ القارة الافريقيه لا يمكن فصله بسهولة عن تاريخ كوش . فلو لم تكن ميرو مهدا للعصر الحديدى فى قارة أفريقيا لكانت على الأقل أحد المراكز الهامة لهذا العصر ، بل ربما أكثر هـــذه المراكز أهمية .

أثينــا فى أفريقيا : ـ

يسود الاعتقاد عادة بأن الحديد قد اكتشف كمعدن صالح للاستخدام ســنه ١٥٠٠ قبل الميلاد تقريبا فيما بين القوقاز وما يعرف الآن بآسية الصغرى ومع عام ١٣٠٠ قبل الميلاد أصبحت صناعة الحديد احـــدى الصناعات الهامة عند الحيثيين الذين كانوا يحكمون ما يعـــرف الآن بالاناضول .. وربما كان الآشوريون قد عرفوا هذه الصناعة فى هذا الوقت نفسه وقد عرف الساحل السورى بعض أوجه استخدام الحديد بعد ذلك بمائتى عام تقريبـــا . ومن ســـــورية ـ ولا شك ـ أخذت صناعه الحديد طريقها غربا لمصر وقرطاجنة والى أماكن أخرى ناميه فى حضارات البحر المتوسط . وبفضل الحديد انتصر ملوك الآشوريين فى نينوا فقد مكنت الأسلحة الجديدة للملك سارجون والملك سينا حريت من دفع جيوشهم فى الاتجاه الجنوبى انفـربى ومكنت ما يسارحا من الانتصار على المصريين . ومكنت بعد ذلك لآشور بنبيال من أسر أبنـاء طيبة ومن انهاء حكم الكوشيين للدلتا والواقع ان الحديد برغم انه كان موجودا فى بلاد كوش ، الا انه لم يستخدم بطريقة عملية مجدية الا فى القرون الاخيرة قبل المسيح . ومن ثم كانت القبـــور الملكية فى ناباتا وكورو ونيورى لا تضم فيما تضم أية أشـياء مصنوعة من الحديد حتى تاريخ دفن هاديسيوتيف سنة ٣٦٢ حوالى سنة ٤٣٠ قبل الميلاد ويقول هيرودوت فى بعض مشاهداته فى كوش حوالى سنة ٤٣٠ ق.م :ـ « ان البرونز هو أغلى وأندر المعادن فى أثيـــوبيا لدرجة ان المساجين كانوا يقيدون بسلاسل من ذهب » .

وفى الزمن الذى بنيت فيه مسورا أصبحت مرو مركزا لأضخم صناعة لصهر الحديد فى أفريقيا جنوبى ساحل البحر الابيض المتوسط . ويجوز لنا الاعتقاد اذن بأن منتجات هذه الصناعة وأساليبها الفنية قد انتقلت بانتظام ودون عوائق فى الاراضى التى تقع الى الغرب والجنوب فيها ، ومن ثم يمكن القول بأن كوش كانت تمثل بالنسبة للمناطق الجنوبية مـــن

آفريقية ما مثلته حضارات البحر الابيض المتوسط بالنســـبة للمناطق الشمالية من أوربة بعد قرون قليله لاحقة ٠

يبقى بعد هذا كله أن نقول : ان ميرو وحضارتها تبقيان شيئا غامضا خلف كل هذه التغيرات التى حدثت فى المنطقه ٠ ووجه هـــذا الغموض ليس فى حقيقة هذه الحضارة ٠ ولكنه طبيعتها وتاثيرها عـــلى الحياة وصلاتها بالعالم الخارجى وابرازها لمقومات لم تــكن افريقية من قبل ، وامتزاج هذه المقومات والافكار بمثيلاتها التى كانت موجودة بالفعل فى افريقية ٠

وأخيرا دلالتها العظيمة بالنسبة للمناطق الاستوائية والتى تليهـــا جنوبا وغربا ٠

ومن المدهش اننا لا نستطيع أن نقول شيئا حتى الآن فى هذا الصدد ولا نستطيع أن نقول شيئا عن الطبيعة الاجتماعية لهذه الممالك المقدسة التى قامت فى كوش ٠ كما أننا لا نستطيع أيضا أن ندرك الى أى مدى كان ترحيب أبناء ميرو بمقدم عصر الحديد وصناعته وبالتجارة مع نصف العالم المعروف ان ذاك ٠ والى أى مدى كانت معلوماتهم عن الصين التى قلدوا مصنوعاتها البرونزية وابتاعوا بعض انتاجها الفنى ، أو معلوماتهم عن الهند التى لبسوا من أقطانها وعن الجزيرة العربية التى تبادلوا معها التجارة ٠ ليس لدينا من كل هذا سوى معلومات ضئيلة وغير مؤكدة ٠ وربما استطعنا أن نعرف المزيد فى هذا الصدد بعد الاكتشافات التى يمكن تحقيقها بعد اهتمام حكومة السودان بالتنقيب عن آثار ميرو ودولة كوش ٠

وخلاصة القول عن دولة كوش انهـــا تعتبر بداية لتاريخ افريقية الحديث ٠

الفصل الثالث

(ممالك السودان القديم)

١ - غرب افريقيا القديم - اكتشافات فى نوك :

فى القرن الرابع بعد الميلاد سقطت ميرو فى قبضة اكسوم الاثيوبية واختفت من المسرح . وفى خلال مائة سنة من إختفائها تبدأ السجلات المكتوبة لغرب افريقيا . هذه السجلات التى يمكن فهمها وقراءتها لانها مكتوبة بلغة عربية .. صحيحة بعكس النقوش الهيروغليفية فى « ميرو » .. فقد وصل المسلمون فى سنة ٦٨١ ميلادية الى شواطىء المحيط الأطلسى .. وقبل ذلك بخمسة عشر عاما كانوا قد دفعوا ببعثاتهم الاولى جنوبا عبر الصحراء ... وخلال مائة سنة تالية .. كانوا يبعثون برجالاتهم لارتياد السودان « بلد السود » والتى كانوا يعنون بها كل الاراضى التى بعد الصحراء مباشرة . وان كنا فى هذا الفصل والفصل الذى يليه نعنى بكلمه « السودان » .. السودان الغربى .. أى أراضى السافانا التىتقع بين الاطلنطى وحدود السنودان النيلى .

ولكن وجود العرب فى الجنوب من الصحراء لم يكن يحدث الا عرضا أو لأغراض تجارية ، فقد كانوا أحيانا يغزون السودان الغربى ... ولكنهم لم يكونوا يتبعون جيوشهم باستقرار على نطاق واسع .

وتبدأ السجلات العربية عن الجنوب الافريقى .. فيما كتبه « وهب بن منبه » سنة ٧٣٨ والذى يعتبر كتابه أشبه شىء بمذكرات رحالة باللغة العربية عن هذه المناطق المأهولة فى افريقيه والتى كانت تحجبها الروايات والاساطير ، وهنا نسمع صدى أول رواية عن أسطورة الهجرة « التى تردد صداها طيلة عدة قرون بعد ذلك .. يقول ابن منبه « ان ذرية أبناء « كوش » تشمل شعوب السودان وهم ربما القادان الذين يعيشون شرقى بحيرة تشاد الذين يعيشون اليوم فى وادى دارفور ..) والأحباش والقبط والبربر ..

وبعد ذلك بحوالى مائتى عام بعث المسعودى .. أعظم جغرافى العرب فى العصر الوسيط بعث حياة جديدة فى أسطورة الهجرة ... كتب يقول (فى كتابه مروج الذهب) : - انه عندما انتشرت ذرية نوح عبر الأرض فان أبناء كوش ابن كنعان اتجهوا صوب الغرب وعبروا النيل وهناك تفرقوا .. أما بعضهم وهم النوبيون والبيجا والزنج فقد اتجهوا

صوب اليمين ما بين الشرق والغرب ٠٠ وأما الآخرون وهم عديدون فقد ساروا صوب الشمس الغاربة ٠٠

وقد يكمن جزء كبير من الحقيقـــه التاريخية ٠٠ فى موضع ما من أسطورة الهجرة من وادى النيل ٠٠ فقد كانت الشعوب المهـــاجرة التى اتجهت شرقا وشمالا بشرق قبائل أو عشائر امتزجت أجناسها وتحضرت نوعا ما ٠٠٠ ودخلت السودان الغـــــربى فى مواكب طويلة من الغزو والاستقرار ٠

ويمكن المرء أن يتكهن بطبيعة الضغط الذى تعرضت له هذه القبائل حتى اضطرت الى الحركة والهجرة الى السودان الغربى ٠٠ فهناك اغارة الفرس وانتصارهم على ممالك وادى النيل الأعلى ٠٠ وهنـــاك خسوف شمس مملكة « كوش » ٠٠ وانهيارها ٠ وهنالك البؤس الذى جلبـــه الصراع بين الاسر الحاكمة والبحث عن الثراء ٠

كما يمكن المرء أيضا ان يتكهن بطبيعة الاستقبال الذى استقبلتهم به الشعوب التى كانت هناك فى هذه الايام ٠٠ لما رأوه فى هؤلاء الوافدين الجدد من أسلحة تفوق أسلحتهم ٠٠ ومن قوة ومعرفة ٠٠ ومعلومات أكثر سعة من معلوماتهم وهى صفات لا يمكن أن يعيش بدونها شعب مهاجر ٠

ويبدو أن الزنوج كانوا يحتلون من هذه الارض : المناطق الواقعـــة شمالا حتى جبال « تاسيلى » فى منتصف الطريق بين الداخل وشاطىء البحر الأبيض وقد عثر « لهوتى » على قناع فى منطقة جبال « تاسيلى » مثل هذه التى تستعملها الى اليوم قبائل « سنوفو » التى تعيش فى ساحل العاج ٠٠ ويعتقد «ديلافاس » ان قبائل « ســــنوفو » كانت احدى ثلاثة شعوب وجدها المهاجرون من الشرق والشمال الشرقى تمتلك هــــــذه الارض ٠٠ فهل كانت هذه القبائل تعيش قبل ذلك الى الشمال من هذه المنطقه ٠٠ ثم اتجهت جنوبا بدافع من جفاف الصحراء ؟

ومن الواضح أنه على أيام « ابن منبه » أى فى بداية القرن الثامن ٠٠ كان المهاجرون القادمون قد اختلطوا بالشـــعوب الزنجية حتى ان احدهما كان قد استوعب الآخر تماما ٠٠ فقد احتفظت بعض شعوب غربى افريقيا بالخصائص الجسمية ٠٠٠ للاجناس « البيضاء » ٠٠ مثل شعوب « الفولب » الذين يعيشون اليوم فى أماكن متفرقة فى الســـودان الغربى ٠٠ على حين نرى شعوبا أخرى كالسنغهوى ظلت تحتفظ دائمـــا بالخصائص الزنجية الخالصة ٠

وقد عثر فى « نوك » سنة ١٩٣١ (وهى قرية فى مقاطعة زاريا) على تماثيل لرؤوس آدمية فى آنية من الفخار ثبت أنها لا تمت من الناحية الفنيه الى أية حضارة عرفت فى المنطقة المحيطة ٠٠ وهى تماثيل تدل على شكل من الطقوس الدينية عرفته شعوب عاشت فى هذه المنطقة عبر الوادى الفســـيح الذى يمتد شرقا وغربا بين النيجر والبنو ٠٠٠ وقد أثبتت الاختبارات الراديوكر بونيه أن هذه التماثيل تعود الى ٣٥٠٠ ، ٢٠٠٠ ٩٠٠ سنة قبل الميلاد أى أن صانعيها كانوا من الشعوب الزنجية التى عاشت فى هذه التواريخ قبل أن تفد الى أراضيها هجرات من الشرق أو

الجنوب الشرقى ٠٠ وهى تدل على أن هذه الشعوب الزنجية كانت لها تقاليدها وأفكارها الخاصة بها فى الفنون والنحت وأن حضارتها القديمة كانت أقدم الحضارات التى استخدمت الحديد فى تلك المناطق وأنه كانت لها أساليبها فى الفن والدين والتنظيم الاجتماعى مما قد تزيده وضوحا الاكتشافات المقبلة ٠

والواقع أن هذه الاكتشافات التى تمت فى ــ نوك ــ تعتبر من الوجهة التاريخية ثورة هامة ــ فقد دأب الاوربيون على أن يعتبروا الشعوب الزنجية شعوبا متخلفة بطبيعتها لا تستطيع ان تصنع لنفسها حضارات خاصة بها وعندما عثر فى « ايف وبنين » على تماثيل نصفيه لآدميين ٠ وعلى تماثيل لرءوس آدمية قال الكثيرون ان هذه لا يمكن أن تكون أبدا نتاجا زنجيا .. وأنه لابد ان يكون صانعوها من الاغريق او المصريين القدماء أو حتى البرتغاليين ٠٠ لان الزنوج على حد قولهم ٠٠ لم يصنعوا قط شيئا كهذا .. ولكن اكتشافات فى الصحراء أثبتت أن شعوبا زنجية خالصة عاشت فى هذه الجهات قبل سنة ٣٠٠٠ ق ٠ م كانت قادرة على صنع تماثيل للرجال والنساء فى أسلوب واقعى رائع وحساس وان هذه الشعوب ربما كانت من أول خالقى التصوير الانسانى الطبيعى ٠٠ وهو أمر تؤكده أيضا الاكتشافات التى تمت فى ــ نوك ــ فهذه الرءوس الفخارية لآدميين كانت تشبه فى أسلوبها الفنى أساليب أيامنا هذه ٠٠ برغم أن عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ٠ وكل هذا يدل على أن مجتمع « نوك » كان حضارة انتقالية بين العصور الحجرية وعصور المعادن وصلت الى كامل نموها فى قرنين أو ثلاثة قرون قبل الميلاد ٠

وربما كان فى مقدورنا أن نخمن أى نوع من الاجناس صنعت هذه الرءوس الفخارية ٠٠ فبعض هذه الرءوس توحى بأنهم كانوا الاسلاف المباشرين لبعض الشعوب التى تعيش الآن فى وسط نيجيريا ٠٠ فطريقة تصفيف الشعر على شكل حلقات ٠٠ والتى تبدو فى بعض هذه الرءوس ٠٠ لا تزال تستخدمها شعوب تعيش الآن هضبة نيجيريا

٢ ــ من كوش الى قرطاجنه : ــ

هل كانت وهناك وحدة ثقافية ولغوية بين هذه الشعوب التى كانت تعيش فى الغابات منذ زمن بعيد ؟ ٠٠ ربما كان هذا أمرا محتملا ٠

من واقع كتابات المسعودى عن أسطورة الهجرة ٠٠ وعن أبناء كوش العديدين الذين ٠ ساروا نحو الشمس الغاربة ٠٠ يبدو أن هؤلاء قد ساروا نحو شعوب كانت العرب تسمع عنها من قبل فى « زغاو وكأنهم وكاوكاو وغانا » وبلاد أخرى للسود « والدمدم » ٠٠ وأنهم ساروا من النيل الاوسط حتى منتصف النيجر عبر طرق كانت معروفة عبر القارة الافريقية ٠٠ وكان العرب يعرفون وجودها حق المعرفة ٠٠ وليس هناك ما يدعونا الى الشك فى أن مثل هذه الطرق كانت تستخدم بانتظام قبل ذلك بأزمان بعيدة ٠ ولا زال آلاف الحجاج من نيجيريا يسلكونها الى البحر الاحمر فى طريقهم الى الحج ٠٠ وجغرافية هذه المنطقة تدل على أن

المناخ كان أكثر ملاءمة بالنسبة للمسافرين عبر هذه الطرق مما هو عليه الآن ·· ومن ثم يمكن القول بأن الناس قد عبروا هذه الطرق من أقدم الازمنة يحملون معهم عقائدهم وأفكارهم واختراعاتهم ·· والحق أن الامتزاج فى غرب افريقية بين الشعوب الاصلية والشعوب الوافدة بالهجرة ·· كان قويا وشديدا بحيث لا تكاد تجد فى غرب افريقية اليوم شعبا لا تحفل أساطيره بقصص عن أصله الشرقى أو الشمالى فى الماضى البعيد ·

وقد تحمل هذه الاساطير اشارات فى بعض الأحيان تمكن الدارسين من الوصول الى تواريخ تقريبية وهم بصدد دراسة تاريخ شعوب هذه المنطقة ·· وذلك من قبيل ما يعتقده « بياباكو » من أن مؤسسى حضارة « يوروبا » فى جنوب نيجيريا قد وصلوا الى بلادهم بين القرنين السابع والثامن الميلاديين ·· وأنهم أتوا أصلا من حوض النيل الاوسط ·· وكيفما كان الامر فان الاصل الشرقى واضح بالنسبة لحضارة « يوروبا» وبالنسبة لكثير من الشعوب المجاورة أيضا ·· ومن ثم كانت الاساطير مصدرا ان لم يدل على الاصل الشرقى ·· « فهو على الاقل يدل على التأثير الشرقى » ··

وقد بنى أعظم المعابد المصرية قاطبة فى النوبة ــ ف الارض الجنوبية التى أصبحت فيما بعد مملكة كوش ــ أحد فراعنة الاسرة الثامنة عشرة وهوامينوفيس الثالث (١٤٠٥ ــ ١٣٧٠ ق م) على الضفة الغربية للنيل ·· وكان طريق الوصول اليه محروسا بالاسود والكباش ··

وقد نقل الفراعنة الكوشيون من الاسرة الخامسة والعشرين ·· الكباش والاسود الى معابدهم بالقرب من «نباتا » على النيل ·· والكوشيون هم الذين غزوا مصر من الجنوب ·· ومنذ ذلك الحين اصبح الكبش ــ رمز آمون ــ أحد الرموز المقدمة العظيمة لكوش ·· وحتى يومنا هذا قد نجد عددا من الكباش الجرانتية فى ميرو ونجع ·· ملقاه فوق الرمال القاحلة ··· ولكن هذا الكبش الذى انتقل من الشمال الى الجنوب ··· وجد طريقه أيضا الى شاطىء الشمال الافريقى ·· فقد أخذه الليبيون كما فعل الكوشيون ·· وربما فى الوقت نفسه تقريبا ·· وأينما كان الأصل القديم « للكبش » ·· فقد انتقل بعيدا داخل القارة الافريقية · واحتفل كثير من شعوب غرب افريقيا بألوهيته ·· فشعب « الماندينجو » فى غرب السودان يعتقد أن آله العواصف والرعد يأخذ شكل الكبش على الارض ·· كما أن الاله القومى لشعب اليوروبا والمسمى بشانجو يظهر بقناع كبش وهو أيضا اله العواصف والرعد ·

ويمثل شعب « الباوولى » بساحل العاج ·· نيانى اله السماء بقناع كبش ·· كما أن اله البرق عند شعب الفون فى داهومى ــ كبش أيضا ·· ويستمر ظهور الكباش المقدسة بصورة ما فى بلاد الكاميرون وحوض الكونغو ·· ولا يزال صانعو التماثيل الخشبية يصنعونها حتى اليوم · وهى آثار تدل كلها على تداخل فى الثقافة الافريقية ·· وهى أيضا براهين جديدة على وحدة برغم التفرق ·· تضفى على الثقافة الافريقية تجاوبها وتعقيدها وقدمها ·

وقد أوضح وينرايت كيف أن الرقائق التى توضع على صور الكهنه فى يوروزبا لانه بجنوب نيجيريا ٠٠ والتى ترجع لعصور الوسطى تذكرنا بنماذج مشابهة فى مصر الفرعونية ٠٠ وقد نبه أركل الى التشابه الشديد بين المصابيح البيزنطية التى عثر عليها فى مصر وبين أخرى عثر عليهـا فى قبر قديم بساحل الذهب من عدة سنين مضت ٠ كما أن الملكية الالهية لشعب « انجوكن » فى نهر « بينو » بنيجيريا تذكرنا بالملكية الالهيـة فى « كوش » وهى ليست الوحيدة فى هذا الصدد ٠

ويبدو ان اقتباسات ثقافية أخرى قدمت من الشمـال ٠٠ ففى آخر دراسة لعقائد وأساطير شعب « أكان » فى غانا ٠٠ ترى « مسـز ميبرويتز » ان هناك علاقة بين العقائد القديمة فى شمال افريقيا وديانات اله القمر واله الشمس ٠٠ وبين آلهة أخرى لشعوب « أكان » فى غانا حتى أن فلسفة الاصول الانسانية فى الاولى تقترب بشكل ملحوظ من فلسفة الثانية وتأملاتها ٠٠ فان « ميلكارت » من صور بلبنـان ورأس العائلة الملكية القرطاجيه التى اسسها « ديدو » ميلكارت هذا تجسده الاساطير فى شكل ثور ٠٠

وكذلك فان الاساطير الافريقية لشعب أكان تجسد بوسوموورو رأس عائلة بونو » الملكية فى شكل ثور أيضا ٠ وتقول « مسز ميبروي انه كان يضحى بثور مرة فى السنة لدى شعب أكان ٠٠ وكانت هـذه التضحية ترمز الى موته ومولده الالهى من جديد وهى تقول أيضا ان ارقم ثمانية يوجد أيضا كرمز دينى بين الاكان ٠٠ حيث يوحى بأن الموت والمولد يتتابعان من جديد بصورة متكررة تماما كما كان الامر بالنسـبة لشعب قرطاجنه ٠٠ كما ان الالهة « تانيت » فى قرطاجنه « تشبه الاله الاكان ٠٠ «نيم» التى وهبت الحياة للعالم دون شريك ذكر ٠٠ ومثـل الالهة ديدو « الاسطورى الذى أسس قرطاجنه فان الملكات الامهات عند الاكان ٠٠ كن يمارسن قوتهن منذ أزمان لاتعيها ذاكرة ومهما تكن القيمه الحقيقيه لهذه المقارنات ٠٠ فانها ولا شك تؤكد التعقيد الكبير للنمـو الاجتماعى فى افريقيا القديمة ٠

ولم يكن هناك بطبيعـة الحال نقل ذاتى أو آلى للافكار الموجه من الشعوب بعقائدها عن الاصل الانسانى أو الالهى ٠٠ ربما جابت انحاء القارة ٠٠ وربما جاءت هذه العقائد مباشرة من الشمال أو الشـمال الشرقى ٠٠ وعلى أية حال فان الاثر الذى تركه المصريون أو الكوشيون أو القرطاجنيون بين شعوب الجنوب يشـبه بالضبط الأثر الذى تركته حضارات شرق البحر الابيض المتوسط التى اندفعت شمالا فى أوربـا البربرية فى الوقت نفسه أو قبله بقليل ٠

ويمكننا أن نؤكد انه ليس ثمة حالة أخرى مماثلة نفترض بها وسيا لانتشار العقائد والافكار من وادى النيل الى جنوب ووسط افريقيا ٠٠ فمصر فى عهد الاسرات لم تولد من فراغ ولكنها ولدت من رحم افريقى ٠٠ فان فلاحى بحيرة الفيوم الذين ارسو أسس المجتمع المصرى القـديم ٠٠ كانت لهم آراؤهم فى الحياة ٠٠ وكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم ٠ والثابت ان هذه الآراء والعادات والتقاليد كانت افريقية أكثر منها آسيوية

.. فلم تكن « أرض الآلهة » بكل أرواح الاسلاف العظام .. بالنسبة لعصر الاسرات فى مصر .. لم تكن هذه الارض تقع فى الشرق أو فى الشمال وانما كانت تقع فى الجنوب والغرب .. وليس هناك مما يثبت أن أقدم عبادات الكبش والشمس .. وان العقائد الاخرى التى اشتهرت على ضفاف النيل .. لم تبدأ فى « أرض الآلهة » الغامضة فى افريقيا العليا حيث نمت منذ ذلك الحين وربما كان من المعقول أن نعتقد ان تداخل الآراء ودورانها واتقانها واعادة احكامها قد حدث فى حين كانت الآراء تنتقل شمالا وجنوبا ـ فى كل اتجاه ـ أنها كانت جميعا تتعرض للتشكيل تحت ضغط مختلف الازمنة . ومختلف الشعوب .. وقد يكون هناك ظل من الحقيقة فى أسطورة شعوب غرب افريقيا التى تدعى أن لها أصولا فى الشمال أو الشرق .. الا أن عدة قرون من الاستقرار تعنى امتزاجا وانصهارا فى الاصول المقيمة هناك .. وان كان هذا لا يعنى بحال من الاحوال ان الشعوب القديمة فى افريقية . التى عاشت قبل موجة الهجرات .. كانت شعوبا لا شكل لها . طبعت عليها وجوه أجنبية .. فقد كانت هناك حقا وجوه أجنبية .. ولكن هذه الوجوه تم استيعابها وخضعت للتطور والتحوير فى أفكارها وآرائها بحيث أصبحت جميعها خاصة بغرب افريقية مثل عادات « الاكان » الدينية .. مثل تقال « اليوروبا » فى نيجيريا .. أو كما أصبحت المسيحية .. التى انبثقت فى فلسطين .. أوروبية . أو كما حدث قبل ذلك بزمن بعيد .. عندما أصبحت المساهمة الافريقية فى حضارة النيل . القديمة على ضفاف بحيرة الفيوم .. مصرية خالصة .

ولم يتجه علماء الانتروبولوجيا الى دراسة منظمة للبناء المتداخل فى الفكر والعقيدة والذى يظهر خلف البناء البسيط الذى كان يبدو للحياة القبلية فى قلب القارة الافريقية .. ولم يفعل علماء الانتروبولوجيا ذلك الا منذ سنين قليلة مضت .. ومنذ ذلك التاريخ أصبح الكثير مما كان يبدو واضحا .. أصبح غامضا .. ومع هذه الدراسة الجديدة ـ ربما أمكن تفسير أمور أخرى كثيرة .. وعلى أية حال فان هذه الدراسة تؤكد بصورة تتزايد يوما بعد يوم .. ان افريقيا القبلية القديمة لم تعش أبدا فى « قرون راكدة » فهذا الزعم أصبح الآن مجرد وهم وخيال .

٣ ـ اكتشاف الحديد : ـ

« وماكيب فيرد » Capeverde انها ليست الا مكانا قذرا » بهذه العبارة اعترض الملك شارل الثانى ملك انجلترا .. عندما ألحوا عليه فى تكوين شركة من المغامرين الانجليز للتجارة فى ساحل غينيا .. لقد كان هذا الحكم الذى أصدره شارل الثانى يستند الى ما كانت تعرفه أوروبا عن افريقيا فى هذه الايام مستنقعات وأمطار لا تنقطع .. زعماء غلاظ القلب يتجرون فى العبيد .. حمى وحرارة شديدة .. سهولة فى الغزو وصعوبة فى الاحتفاظ به .. كان كل شىء . نظر الاوروبيين بدائيا لا فائدة ترجى من ورائه .. وكانت شعوب غينيا مثلا .. تلك الشعوب التى أضنتها الاستجابة الدائمة لمطالب الاوروبيين فى الحصول على العبيد ...

كانت هذه الشعوب تبدو كما لو كانت شعوبا بلا تاريخ ·· وبلا وسائل ذاتية للتقدم بلا أمل فى الخلاص ·· بل ان الأوربيين كانوا يعتقدون أن شيئا فيها لم يتغير منذ عصر القردة والاحجار ·· وكانت هذه النظرة ـ كما تبدو اليوم ـ وهما من الخيال فقد خضعت هذه المنطقة للتغير والنمو فى تاريخها البعيد ·· قامت ممالك وامبراطوريات ·· وسقطت هذه الممالك ·· وقامت أخرى على أنقاضها ·· على حين كانت تساهم فى هذا التطور والنمو الحضارات الافريقية التى نمت فى حوض النيل والحضارات التى نمت فى البحر الابيض المتوسط ·· والتى كونت تراثا افريقيا من الآراء والأفكار والمعتقدات ·· وخاصة تلك التى تتصل بالعالم وأصول الحياة ونظم الحكم ··· وأهم من ذلك كله ·· ما يتصل باستخدام المعادن ·· فقد كان استخدام الحديد مثلا فى هذه البقاع جنوبى الصحراء ·· يمثل حدثا تاريخيا حاسما ··

فالى أى زمن يعود استخدام المعادن فى جنوب الصحراء ·· ؟ الى سنوات قليلة مضت ·· كان الاوروبيون يعتقدون أن الافريقيين ظلوا يعيشون فى العصر الحجرى حتى بدأ عصر الاستعمار الاوروبى ·· غير ان الحقيقة تبدو الآن ·· واضحة جلية استنادا الى ما تؤكده الوثائق المتعددة بعد القرن الخامس عشر فمن بين شعب افريقية كلها حتى أيام الاكتشافات الاوروبيه فى القرن الخامس عشر لم يكن يعيش فى العصر الحجرى سوى الاقزام والبوشمن ·· وسوى الشعوب التى كانت تعيش فى جزر « كانارى » وجزيرة« فرناندوبو » ربما كانت مجموعة أو مجموعتين فى أرض القارة الرئيسية على حين كان كثير من الشعوب الافريقية ـ تماما كمعاصريهم فى أوروبا ـ يستخدمون المعادن منذ وقت طويل ·

وأول المعادن التى عرفتها هذه الشعوب كانت النحاس والذهب لانهما يوجدان عادة فى حالة طبيعية يسهل معها تشكيلها بعد صهرها · ومن ثم عرفت القارة حضارة انتقالية هى حضارة ـ الإماراشيان وهى حضارة نيلية تنتمى للعصر النيلى استطاعت أن تستخدم المعادن ـ الذهب من بلاد النوبة قبل ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ·· وكلمة « نوب » تعنى فى اللغة المصرية القديمة « الذهب » ·· وفى القرون التى سبقت الاسرة الاولى ـ أى قبل حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد كان الناس فى دلتا النيل يصنعون الحلى الدقيقة من الذهب ومن المؤكد أن شعوب « كوش » وليبيا كانوا أيضا يعرفون الذهب والنحاس والبرونز قبل أن يعرفوا الحديد بوقت طويل ·

وفى غرب افريقية ·· كانت شعوبها تعرف الذهب ·· والنحاس وكانت المبادلات التجارية الاولى عبر الصحراء تشمل تجارة الذهب · ومبادلته من غرب افريقية بالنحاس من ليبيا ·· ويبدو من المحتمل أن سائقى العربات من الجرمانيين الليبيين كانوا يزاولون هذه التجارة المربحة ·· ويبدو انهم وصلوا بعرباتهم عبر الصحراء الى حوض النيجر حتى « جاو » ويبدو مؤكدا أن هذا الطريق الذى اتبعوه ·· كان معروفا للعرب الاوائل ·· فكتاب العرب فى سنة ٩٥٠ ميلادية يقولون : أن الذهب كان يستبدل بالنحاس فى « فزان » ومن المؤكد أيضا أن هناك طرقا أخرى

كان يعرفها العرب فى ذلك الوقت .. ويستنتج « مونى » من دراسة تفصيليه لهذا الموضوع أن استخدام النحاس والبرونز وصل الى الجنوب عبر الصحراء بعدحوالىسنة ١٢٠٠ ق ٠ م وهو التاريخ التقريبى لاستخدام المعادن فى هذه الجهات .. وأن شعوب هذه الجهات قد استمروا فى صنع اسلحه من النحاس وفى استخدامها حتى سنه ٢٠٠ ق ٠ م على الاقل

والمهم فى هذا الموضوع هو تاريخ تصنيع الحديد .. ذلك انه لا يمكن القول بأن عصر المعادن بدأ فى القارة الافريقية كفترة متميزة تفرض أنماطا جديدة للتنظيم الاجتماعى حتى أصبح تصنيع الحديد شائعا .. فبالالات الحديدية الجيدة فقط .. تستطيع الشعوب الافريقية أن تتغلب على العوائق الطبيعيه للمعيشة هناك وأن تنتشر هذه الشعوب فى القارة وتزدهر وتنمو ... هذا ولم تصل عصور النحاس والبرونز من آسيا وأفريقية الى جنوبى الصحراء .. لهذا السبب نردد نقطة ذكرناها من قبل .. وهى ان دراسه عصر الحديد فى افريقيه .. ذات أهمية حيوية لفهم الاصول الافريقية الحديثة .. وربما تكون الادوات الحديدية قد وصلت الى كوش فى شكل أدوات نادرة كانت تثير الدهشة منذ سنة ٦٠٠ ق ٠ م ولكن صهر الحديد لم يصبح شائعا هناك الا بعد ذلك بفترة طويلة .. وأصبح على درجة من الأهمية كحقيقة حضارية .. ولكن ذلك لم يكن قبل ٢٠٠ أو ٣٠٠ سنة قبل ظهور المسيح وعليه .. فان استخدام الحديد لم يصل الى غرب أو وسط افريقية الا قبل المسيح بقرن واحد تقريبا .. أو ربما بعد ذلك بقليل .. والشىء الذى كان يقلل من سرعةانتشار المعرفة بصناعة الحديد من « مرو » هو صعوبة المواصلات عبر الاراضى شبه الصحراوية .. واحتمال اعتبار هذه الصناعة سرا ملكيا .. أو كهنوتيا خاصا (لاننا لم نعثر على أكوام خثارة الحديد فى ميرو الا على بعد مئات قليلة من الياردات من معبد الشمس) .. ويؤيد هذا الاحتمال أن البرتغاليين عندما وصلوا الى مصب نهر الكونغو فى نهاية القرن الخامس عشر .. وجدوا أن ملك الكونغو كان عضوا بطائفة خاصة بالحدادين .. وأكدت المعلومات بعد ذلك أن تلك لم تكن الحالة الوحيدة فى هذا الصدد ..

وبالرغم من هذا التأخر فى إنتشار صناعة الحديد .. فان المعرفة بهذه الصناعة ربما تكون قد وصلت الى غرب افريقيا ووسطها فى السنين الاخيرة قبل ظهور المسيح .. ويعتقد الدارسون الفرنسيون ان شعوب البربر الليبية نقلتها قبل ذلك الى الجنوب .. ويؤسسون اعتقادهم هذا على حقيقة وجود الحديد عموما فى مقابر شمال افريقيا التى نقبوا فيها .. والتى تعود الى فترة تبدأ من سنة ٥٠٠ ق ٠ م وأن الحديد حل محل البرونز بشكل واضح فى أدوات الاستعمال اليومى فى شمال افريقية منذ القرن الثالث ق ٠ م وهذا الوقت يتفق تقريبا مع وقت انتشار الحديد فى كوش .. وهؤلاء الدارسون لا ينكرون انتشار الحديد فى « كوش » ولا خثارة الحديد فى « ميرو » ولكنهم يرجحون ان شعوب البربر الليبية كانت تستطيع الوصول الى غرب افريقيا بسهولة أكثر من أبناء كوش أو الشعوب التى كانت ترتبط بهم تجاريا .. ولكن سواء وصلت المعرفة بالحديد الى غرب افريقية .. من ليبيا أو كوش .. أو كليهما معا ..

فان صناعته كانت (شائعة) فى انسافانا بالسودان فى القرون الاخيرة قبل ظهور المسيح ٠٠ ثم انتشرت هذه الصناعة بعد ذلك بعيدا ناحية الجنوب الى ما وراء الغابات الاستوائية ٠٠ وهذه التواريخ لها أهمية بالغة لأنها تحدد بداية افريقية المعاصرة ٠

وبرغم أن هذه التواريخ كلها تقريبية وتخضع للاستنتاج ٠٠ فانها على أية حال تواريخ معقولة تؤيدها كثير من الشواهد التى أمكن الحصول عليها حتى الآن ٠٠٠ وفى نهاية القرن الثانى عشر بعد الميلاد ٠٠ كان الحديد يصدر بكميات ضخمة من الساحل الجنوبى الشرقى لافريقيا ٠٠ الى الهند ٠٠ وليس معنى ذلك انه لم تكن هناك معادن أخرى ٠٠ فقد وجد فى الكونغو تمثال للآلهة المصرية « أوزوريس » من البرونز أو النحاس ٠٠ ويرجع تاريخه الى حوالى القرن السابع ق ٠ م ٠ كما وجد تمثال آخر صغير لأوزوريس يحمل اسم تحتمس الثالث (١٤٥٠ ق ٠ م) فى جنوب حوض الزامبيزى ٠٠ ووجدت عملات مصرية قديمة للاسرة الثالثة عشرة (١٧٨٠ ــ ١٥٨٠ ق ٠ م) فى مدغشقر

ولقد انبثقت من صناعة الحديد ٠ حضارتان لعصور حديثة فى وسط وجنوب القارة الافريقية ٠٠ حضارتان كانتا ولاشك تسبقان زمنهما ومكانهم

٤ ــ التجارة مع ملك تمبوكتو : ــ

فى سنة ١٧٧٢ كتب جيمس بروسى عن رحلته فى اعالى النيل الازرق يقول : (الى جانب السور حيث ثكنات الجنود .. كانت الخيول تدير رءوسها وطعامها ملقى أمامها وفوق رأس كل جندى علقت على الحائط حربة طويلة ودرع بيضاوية الشكل وسيف عريض) ٠٠ وقد وصف جيمس بروسى .. هذا المنظر بقوله « انه واحد من أروع .. المشاهد التى وقعت عليها عيناى .. ولم يصدق احد فى بريطانيا ماكتبه « بروس » عندما عاد الى وطنه .. ولكن هؤلاء الفرسان كانوا ولا شك فرسان احدى ممالك السودان القديم ليس فقط سنة ١٧٧٢ ولكن لمئات مضت من السنين ٠٠ ولم تكن أوروبا تعلم شيئا عن هذه المناطق حتى القرن الرابع عشر ٠٠ أى بعد ألف سنة تقريبا من بداية الحياة الحقيقية للشعوب الاولى فى أوروبا نفسها ٠

لقد كان التجار النورمانديون فى صقلية فى القرن الثانى عشر يتبادلون التجارة مع المدن المسلحة فى شمالى افريقية .. وقد تبعهم فى ذلك أهالى بيزا وجنوا وفينيسيا والبروفانس . فقد عقدت المعاهدات التجارية بين شاطىء البحر الابيض المتوسط فى القرون الوسطى وكانت للدول المسيحية قناصل فى الموانى الجنوبية .. ولكنهم كانوا بعيدين عن الداخل فقد كانت الدول الاسلامية تسير تحت دوافع دينية وتجارية على مبدأ احتكار الاتصال بالقارة الافريقية فيما وراء شواطىء البحر الابيض المتوسط ولكن اليهود كان بمقدورهم أن يصلوا الى هذه الاماكن .. ففى القرن الرابع عشر الميلادى تأسست فى « مايوركا » مدرسة شهيرة يهودية لرسم الخرائط وأشهر ما رسمت من خرائط تلك الخريطة التى رسمها « أبراهام كرسك » (خريطة قطالونيا سنة

١٢٧٥) التى كان لها تأثير اشبه بتأثير اكتشافات كولمبوس ـ منذ قرن قبل ذلك التاريخ وقد اوضحت هذه الخريطة جبال الاطلس يحترفها ممر تعود التجار أن يمروا خلاله « فى طريقهم الى ارض الزنوج فى غينيا » ثم انها حددت مكان تمبوكتو .. و نيوتات فى مالى وجاو وتغازا .. وكلها اشياء اثارت مخيله الأوروبيين حتى راوا هذه المناطق راى العين بعد قرون قليلة .

والواقع ان كثيرا من الخرائط القديمة فى هذا الصدد كانت مفرطة فى الخيال .. بل ان بعضها كان زائفا . وشيئا فشيئا بدات تتحقق لهذه الخرائط الحقيقة والموضوعية وأولى هذه الخرائط خريطة « فراماورو » التى صنعت فى سرية تامة فى فينيسيا سنة ١٤٥٩ كى يستخدمها الامير هنرى الشهير بهنرى الملاح .

ولم تكن السفن تستطيع المرور حول افريقية الا عندما حقق لها هذه المحاولة « بارتلوميودياز » بمروره برأس الرجاء الصالح .. وقد احتفظ الامير هنرى بخريطة « فراماورو » سرا خاصا به .. وهنا نتساءل .. هل من المحتمل أن يكون دياز وديجاما .. قد رأيا هذه الخريطة قبل ان يبحرا فى رحلاتهما الطويلة فى الجنوب والشرق ؟ .. وهل كانت لدى ماجلان فكرة عن الطريق من الاطلنطى الى الباسيفيكى قبل ان يحقق محاولته عبر المضيق الذى يحمل اسمه الآن ؟ .

ان البحارة العرب كانت لديهم ولا شك .. خبرة بهذه البحار فقد كتب «الادريسى ؟ عن رحلات فى الاطلنطى .. يبدو انها وصلت حتى جزر كناريا على حين تحدث « أبو الفداء » (سنة ١٢٧٣ ـ ١٣٣٢) عن رحلات حول العالم ويتحدث « العمرى فى الفصل العاشر من كتابه مسالك الأبصار « عن رحلات فى الاطلنطى قام بها بحارة من غرب افريقية فى عهد الامبراطور « كانكان موسى » امبراطور مالى .. والتى تدل على ان اسلاف كانكان موسى نفسه قد سافروا فى الاطنطى (بألفى سفينة) وابحروا غربا ثم اختفوا ويحكى « العمرى » على لسان « ابن امير الحاجب » انهقد سأل السلطان موسى .. كيف توصل الى تحقيق هذه الدرجة من القوة والعظمة فأجاب بأنه « من سلالة بيت توارث الملك جيلا بعد جيل .. وأن الملك الذى سبقه كان يعتقد انه من الممكن اكتشاف نهاية للبحر المجاور .. وانه قد صمم على اكتشاف هذه النهاية بنفسه فأمر باعداد مائتىسفينة ملا مائة منها بالرجال .. وملأ السفن الباقية بالذهب والماء والطعام الذى يكفيهم عامين كاملين . ثم قال لقواد هذه السفن « لا تعودوا قبل ان تدركوا نهاية هذا المحيط .. أو عندما ينفذ طعامكم وماؤكم

ويتابع العمرى ، حكايته على لسان ابن امير « فيقول أن هؤلاء الرجال ذهبوا ولم يعودوا .. وان سفينة واحدة فقط هى التى عادت من هذه الرحلة حيث قرر قائدها انهم ابحروا حتى رأوا ما يشبه نهرا شديد التيار يصب فى البحر .. اختفت فيه سفنهم ، أما هو فقد أحجم عن متابعة الابحار فى هذا النهر .. فعاد من حيث اتى .

ومن هذه القصة يمكن القول بأن الفضل لا يعود الى ما جلان فى اكتشاف ما وراء البحار .. اذا كان قداستعان فى هذا الصدد بخرائط

من شمال افريقية .. فقد بدأت مثل هذه المعلومات التى كانت محتكرة من قبل ، تصبح معروفة للكثيرين مع بداية القرن السادس عشر .. ففى سنة ١٥٦٣ نشر « جيوفانى بابتيستار اميوزو » .. سلسلة من الوثائق السرية تتضمن تاريخ السودان الغربى .. ووصفا له على لسان أحد أبناء البربر الأسرى الذى يدعى « حسن بن محمد الوزان الزياتى » والذى عرف بعد تنصره « باسم جيوفانى ليونى « أو « ليو الافريقى » .. وتضمن كذلك تقريرا عن رحلة الى ساحل غينيا قام بها ، كاداموستو فى سنة ١٤٥٥ أى قبل نشر هذه المعلومات بمائة سنة تقريبا .

وقد كانت هذه المعلومات وغيرها سببا فى ان الأوروبيين بدأوا يجربون حظهم فى الاتجارمع ملوك تمبوكتوومانى ..وبدات أوروبا تهتم اكثر فأكثر بهذه المناطق من السودان الفربى .. كما بدأت اسماء مثل سونفهوى ومالى تحددعلى الخرائط الاوروبية فقد أثارت أحلام الاوربيين تلك الثروات التى كانوا يسمعون عنها فى هذه المناطق كما أثارتها من قبل الحكايات عن الهند .

والحق يقال ان تمبوكتو كان لها نصيب من الحضارة لايقل عن حضارة المدن الأوربية التى ازدهرت فى القرون الوسطى .. وقد كتب كثير من المؤرخين العرب والبربر .. ومن جغرافييهم .. الكثير عن المناطق التى تقع على انحناءة نهر النيجر .. مما اضاف الكثير من المعلومات على ماكان معروفا من قبل عن مناطق السودان الفربى .. وتبدأ هذه المعلومات بكتاب وهب بن مينه ، سنة ٧٣٨ م وتنتهى بكتابات « ليو الافريقى » سنة ١٥٢٦ » ثم كتاب « عبد الرحمن الصاوى » احد ابناء « تمبوكتو » المولودين بها عام ١٥٩٦ عن تاريخ السودان . الذى استفاد من معلوماته فى القرن التاسع عشر « هينريش بارث » فى دراساته حول السودان الغربى وفى سنة ١٩١١ ظهر الى الوجود كتاب باللغة العربية عن تاريخ السودان . فيه معلومات كثيرة عن دولة سنغورى وصاحب هذا الكتاب هو « محمود كاتى » احدا أبناء تمبوكتو أيضا .. الذى صاحب حاكم سونفهوى ، محمد أسكيا العظيم عندما حج الى بيت الله الحرام وشهد غزو المرابطين الذى قضى على دولة سونفهوى فى نهاية القرن السادس عشر . وكان كثير من علماء المسلمين يسافرون الى انحاء السودان الغربى .. منهم ابن بطوطة الذى قدم الى هناك بعد جولاته فى البلاد العربية والهند والصين .. وكتب فى أعجاب شديد عن دولة مالى .. حيث يصف ابناءها بالعدل وكراهية الظلم اكثر من أى شعب آخر .. وبأن ملكهم يضرب بشدة على ايدى الأشرار . كما ان ابن بطوطة .. أشاد بالامن الذى يسود البلاد ، حيث لا يخشى المسافر من قطاع الطرق أو اللصوص ، واذا لم تكن لدول السودان الغربى القديمة روابط مع اوروبا . فقد كانت لها الكثير من الراوبط مع شمال افريقية وحوض النيل والشرق الادنى .

وقد ظهرت فى السودان الغربى أربع دول كبيرة ترتبط بعضها البعض وذلك بعد صراع استمر فترة طويلة من الزمن .. بلغت حوالى الف عام بين الاسر الحاكمة فى السودان الفربى .. وكل هذه الدول لها

سـماتها المميزة .. وكلها تنتمي لحضارات « السفانا » وتعتمد على التجارة والزراعة وابرعى فى اقتصـادياتها وفى هذه الحضـارات لعبت انهار غـرب افريقية العظيمة ، دورا كان له تأثيره البـالغ على طبيعة تشكيلها .. وأولى هذه الحضارات حضارة « غانا » التى كانت بالفعل دولة لها حكومتها المركزية عندما ورد ذكرها لاول مرة فى كتابات العرب سـنة ٨٠٠ ميلادية . والدولة الثـانية دولة « مالى » التى برزت فى القرن الثالث عشر واستمرت حتى القرن السابع عشر ٠ والثالثة دولة « كانم » التى اصبـحت فيما بعد دولة « بورنو » .. والرابعة دولة « سونفهوى » التى ظلت محتفظة بقوتها ومكانتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ...

وقد كانت بعض هذه الدول معاصرة لبـداية العصر الوسيط فى أوربا وكانت تفوق هذه حضارة في بعض الاحيان .. ويعلق « بالمر » على هذا .. عندما يتحدث عن دولة « غانا » التى عاصرت صلاح الدين (فيقول : ...) ان الغرب ظل حتى ذلك الوقت جاهلا بدائيا متوحشا .

٥ ـ دولة غانا :

لقد اثبت الحديد فى كل مكان من العالم القديم . ان قد كان له تأثير قوى مكن من بناء مجتمعات جديدة أكثر تعقيدا .. والأمر فى هذا الصدد لم يكن مختلفا بالنسبة لافريقية .. فمنذ عرفت صناعة الحديد فى افريقية .. امكن الحصول عليه بسهولة اكثر من النحاس او البرونز وكان اكثر قيمة من ناحية استخدامه وتصنيعه .. ولهذا السبب قامت شعوب « غانا » كما يذكر الزهرى بحملات ضد جيرانها فى وقت مابعد سنة ١١٥٠ م ذلك أن الشعوب الأخرى لم تكن تعرف صناعة الحديد .. وكانت تحارب بقبضان من الأبنوس .. على حين كان أبناء « غانا » يحاربون بسيوف ورماح حديدية وبهذا يعتبر قيام الممالك بالسودان الغربى نتيجة للتفوق فى استـخدام الحديد .. واذا كانت هذه الممالك بصـورتها المنظمة لم تبرز الى الوجود حتى القرن الثامن الميلادى .. فان بدايتها ولا شـك كانت بداية انتشـار الحديد وصناعته فى هذه المناطق : قبل ظهور المسيح بثمانمائة سنة على الاقل .. وقد صـاحب هذه التطورات تأثير آخر لا يقل اهمية عن انتشار صناعة الحديد .. الا وهو تأثير التجارة على نطاق عالمى بين هذه المناطق وبين اجزاء كثيرة من العالم المعروف آن ذاك .. وذلك لان امتلاك هذه الدول للحديد قد مكنها من الغزو والانتصار .. أما التجارة فقد أتاحت لها بنـاء مجتمع غنى .. حيث ان هذه الدول كانت تسيطر على طرق تجارة الذهب من قلب القارة الى الاجزاء الشمالية منها وقدازدهرت فى هذه الممالك المدن التجارية التى كانت تتجر فى كثير من السلع مع وسطاء فى الصحراء .. كانوا يبيعونها بدورهم الى دول البحـر الابيض وأوربا .. وكان ابناء هذه الممالك الافريقية يشترون من هذه الدول بضـائع أوروبا والبحر الابيض .. وكانت تجارة الذهب هـذه .. هى التى شـيدت قوة « غانا » وامبراطورية « ماندينجو »

ودولة غانا هذه .. كانت تقع شـمالى وشـمال غربى حوض

النيجر الاعلى اى على طرق تجارة الذهب القادمة من قلب افريقية الى الشمال منها . وقد حدد الخوارزمي موقع هذه الدولة في سنة ٨٣٣ على خريطة كانت نسخة من الخريطة التى رسمها بطليموس منذ عدة قرون سابقة .. وبعد ذلك بمائتى عام كتب .. « عبد الله بن عبد العزيز » المعروف « بأبى عبيد » أو « البكرى » عن دولة غانا وكانت كتاباته هذه تجميعا وتمحيصا لمعلومات حصل عليها ونقلها من السجلات الرسمية للحكام الأمويين فى قرطبة جنوبى اسبانيا .. وقد اتم البكرى عمله هذا سنة ١٠٦٧ بعد حوالى ثلاثة عشر عاما من زحف حاكم شمال افريقيا (من المرابطين) جنوبا لغزو هذه الاراضى .. ومن اسرة « اودغشت » احدى المدن التابعة لدولة غانا .. وقد قرب هذا الغزو بين غرب السودان والبحر الأبيض واسبانيا ويقول البكرى فى تاريخ يعود الى سنة واحدة فقط بعد غزو الملك النورماندى « وليام » لانجلترا .. « ان ملك غانا يستطيع ان يستدعى مائتى الف مقاتل الى ارض المعركة .. بينهم أكثر من أربعين ألفا مسلحين بالاقواس والسهام ترى ماذا كان يمكن أن يقوله النورمانديون عن غانا لو رأوها فى هذا الوقت ؟

ولم يكن غزو المرابطين لدولة غانا عملا سهلا اشبه بنزهة المسافر فقد كرس المرابطون الذين احرزوا انتصارات كثيرة فى اماكن أخرى .. اربعة عشر عاما لكى يتموا غزو غانا ويستولوا على عاصمتهم .. فقد زحف « ابن ياسين » وهو احد دعاة المسلمين المتحمسين ـ جنوبا من المغرب فى سنة ١٠٥٤ وتمكن من الاستيلاء على مدينة « اودغشت » فى السنة التى تلتها .. ويقول البكرى ان هذه المدينة كانت احدى المدن الكبيرة المليئة بالأسواق والنخيل وأشجار الزيتون .. وكانت ايضا احدى المدن التجارية الهامة على الطرف الجنوبى لطرق القوافل عبر الصحراء هذا ولم يتمكن المرابطون من الاستيلاء على مدينة « غانا » نفسها الا سنة ١٠٧٦ وكانت هذه المدينة كما يصفها «البكرى» وتتكون من جزءين تفصلهما مسافة ستة اميال زاخرة بالعمران فى الجزء الاول نها كان يقوم قصر الملك وهو قلعة تحيط بها عدة أكواخ سقوفها مستديرة يضمها سور ضخم .. اما الجزءالثانى فقد كان مدينة تجارية .. للمسلمين بها اثنا عشر مسجدا .. ويصف البكرى بلاط ملك غانا الوثنى فيقول انه كان يجلس لرد المظالم والتحقيق فى الشكاوى فى شرفة عالية يحيط بها حرسه الخاص وفرسانه .. وخلفهم يقف غلمان يحملون الدروع الموشاة بالذهب .. وعلى يمينه يقف ابناؤه وباقى الامراء يرتدون ملابس فاخرة . ويحلون شعورهم برقائق الذهب .. .. بينما يجلس حاكم المدينة على الارض أمام الملك نفسه كما يجلس حوله الوزراء .. وكان المقصود بهذا الوصف ابراز مدى ما وصلت اليه دولة غانا من حضارة وغنى ..

فأين كانت تقع هذه العاصمة ؟

فى سنة ١٩١٤ نقب أحد الضباط الفرنسيين (بونيل ميزير) فى احدى المناطق القريبة من الساحل وهى منطقة رملية فى أعالى حوض النيجر .. وقد وجد ميزير فى تنقيبه عن الشواهد ماجعله يعتقد ان تلك

المنطقة بالذات كانت تقع فيها عاصمة « غانا » التى وصفها البكرى ...
وقد اثبتت الادلة بعد ذلك احتمال صدق هذا الاعتقاد ... فقد بدأت اعمال الكشف فى منطقة « كومبى صالح » التى تقع على بعد ٢٠٥ من الاميال شمالى مدينة « باماكو » فى سنة ١٩٣٦ ثم توقفت هذه الاعمال لتبدأ مرة اخرى بعد عشر سنوات على يد « تومانسى ومايونى » وفى سنة ١٦٥١ عثر الاثريان على آثار لمدينة اسلامية كبيرة تمتد على مساحة ميل مربع .. وربما بلغ عدد سكانها حوالى ثلاثين الف نسمة .. وقد استطاعا بعد التحقيق الدقيق ان يرجعا هذه المدينة الى ثمانمائة عام أو تسعمائة عام مضت .. ويسود الاعتقاد بأن مدينة غانا التجارية التى اشار اليها البكرى .. لابد أن تكون قريبة من هذه المنطقة .. لان « كومبى صالح » هذه كانت تعتبر عاصمة « غانا » فى الايام الاخيرة لوجود « غانا » كدولة ذات كيان .. ويقول « محمود كاتى » فى كتابه عن تاريخ السودان الغربى .. ان « كومبى » هذه كانت عاصمة لامبراطورية « كاياماجا » و كاياماجا كما يذكر « محمود كاتى » كان اسم اول ملك حكم غانا (التى حكمها مالا يقل عن ثلاثة واربعين ملكا) وبرغم ان هناك أكثر من « كومبى » واحدة فى منطقة « كومبى صالح » فليست هناك دلائل حضرية مقنعة تثبت وجود مدينة اخرى فى هذه المنطقة يمكن أن تحتل المكانة الاولى من الاهمية بين مدن « غانا » وان كان هذا لا ينفى أهمية الا ثار التى عثر عليها فى حفريات كومبى صالح .

ولقد كانت التجارة هى مصدر ازدهار غانا .. فهى تقع بين مصادر الملح فى الشمال ومصادر الذهب فى الجنوب . وقد استفادت غانا ايما استفادة من تبادل هاتين المادتين .. فقد بلغت حاجة الجنوبيين الى الملح .. الى درجة ان بعض منتجى الذهب ويدعون بالفراويين كانوا يشترونه كما يقول البكرى بما يعادل وزنه ذهبا على حين كان الذهب يمثل حاجة أساسية بالنسبة لقاطنى الشمال . ومن ثم كان من الطبيعى ان تهدف دول السودان الغربى الى السيطرة على مصادر الذهب فى الجنوب .. ومصادر الملح فى الشمال .. وخاصة الموجودة منها فى تغازا فى الصحراء الشمالية والى السيطرة أيضا على طرق القوافل .. وقد استطاعت « غانا » ان تحقق الهدف الاول ولم تنجح فى تحقيق الهدف الثانى . على حين استطاعت دولة مالى بعدها تحقيق الهدفين معا .. الى مدى بعيد ..

والى جانب الذهب الذى كانت دولة غانا تحصل عليه فقد كانت تفرض ضريبة مقدارها دينار من الذهب على كل حمولة حمار من الملح تدخل غانا . وديناران من الذهب على نفس الحمولة اذا خرجت من «غانا» ولم يكن الذهب وحده مصدر ثروة دولة غانا .. فقد كانت تجارة النحاس تمثل جانبا من هذا المصدر .. كانت الدولة تتقاضى ضريبة قدرها خمسة مثاقيل من الذهب مقابل كل حمولة من النحاس وعشرة مثقالات مثلها على كل حمولة من البضائع الاخرى (ويبلغ المثقال حوال ١/٨ أوقية من الذهب) وهنا نلمح مظهرا آخر للحكومة المركزية التى مارست فرض الضرائب مما يقوم شاهدا على الاستقرار وحسن الادارة .. وفى سنة ١٠٥٤ اتجه المرابطون جنوبا لنشر الدعوة الاسلامية فى هذه المناطق.

بين الوثنيين ‥ ولكنهم كانوا ينشدون أيضـــا المغانم التى قد تعود من وراء هذا الغزو ‥ كانت مصادر الملح ـ تحت سيطرتهم فى ذلك الوقت ‥ فسعوا الى السيطرة أيضا على مصادر الذهب وكان قدومهم سريعا ٠ وادى الى انهيار دولة غانا ‥

وقد أشار ابن خلدون ‥ بعد مائة عام من كتابات البكرى ‥ هذه الغزوات فقال ان المرابطين بسطوا سلطانهم على زنوج غانا وخربوا أرضهم ونهبوا ممتلكاتهم وبعد أن فرضوا الجزية عليهم نشروا الاسلام بين كثير منهم غير ان هذا الغزو لم يؤد الى انهيار أساليب التجارة والادارة التى جعلت من غانا دولة قويه خلال عدة قرون ‥ فقد ظهرت دول أخرى مع دولة غانا ٠ وبعدها ولم يكن الغزو من الشمال أكثر من حالة عارضة ‥ ثم عادت التجارة فى الصحراء الى سابق عهدها فى أمن وســـلام لم يهددها الاوسطاء التجارة فى الصحراء ‥ مثل قبائل الطوارق المتنقلة ‥ ولم تتعرض هذه التجارة لتهديد العرب أو المرابطين بالشـــمال الافريقى ٠

وفى سنة ١٢١٣ تمكن «الاكوى كيتا» من تأسيس دولة «ماندينجو» التى عرفت فى التاريخ باسم امبراطورية « مالى » وبعد خمس وعشرين سنة تمكن خليفته « سوندياتا » من التغلب على حكام « سوسى » الذين أقاموا من أنفسهم حكاما فى غانا ، قبل ذلك بزمن قصير « كما استخلص عاصمة غانا من أيديهم سنة ١٢٤٠ وأقام عاصمة له فى الجنوب ‥٠ واستطاع هو وخلفاؤه من بعده ان يسيطروا على كثير من أجزاء السودان الغربى طيلة قرن من الزمان ٠

ولقد كانت الدول فى السودان الغربى تتبع احداهـــا الاخرى فأمبراطورية ماندينجو فى « مالى » تبعت أمبراطورية غانا ‥ كمـــا أن سنفهورى تبعت دولة مالى وجاءت دولة «بورنو» بعد دولة «كانم» وكان النمو فى المنطقة كلها نموا فى وسائل الحكم تتخلله منافسة بين مختلف الاسر الحاكمة والغزو الاجنبى وعوارض التاريخ ‥ وهو الشىء نفسه الذى كان يحدث فى أوربا التى عاصرت هذه الحقبة من التاريخ ‥ تطور نحو حكومات مركزية واعتماد على الزراعة والرعى ‥ وتوســع فى استخدام المعادن من الناحية الاقتصادية ‥ ودور تؤديه التجارة فى دفـــع عجلة التطور ‥

٦ ـ مالى : ـ

وبرغم ان « تمبوكتو » و « دجينه » ٠ قد برزتا الى مسرح الشهرة فى العالم الاسلامى منذ القرن الثانى عشر لاحتلالهما مركزا تجاريا ممتازا فان عظمتهما الحقيقية قد بدأتا مع ســـــيطرة ماندينجو وامبراطورية « مالى » ٠

وفى ســـــنة ١٣٠٧ تولى العرش « كانكان موسى » أشهر ملوك السودان الغربى وأخذ يبسط سلطانه على المناطق المجاورة فأحرز نجاحا كبيرا فى هذا الميدان وكذلك فى ميدان العلاقات السياسية ‥ وقد توجه مع اتباعه الى مكة لأداء فريضة الحج فكان هذا دليلا يقدمه للعالم على سعة

انتشار الاسلام ·· وعلى قيمة الحضارة السودانية الغربية ·· ولقـــد ظل سكان القاهرة القديمة يتحدثون عن موكبه الفخم طيلة مائة عام بعد مروره بها فى طريقه الى مكة عن خلمه وزوجاته وهداياه وفرسانه و من مظاهر العظمه التى تمتع بها ملك يمتد سلطانه ليشمل بلادا تعـــادل فى مساحتها مساحة غرب أوروبا كلها مجتمعة ·· وتتمتع دولته بالقدر نفسه من الحضارة ·· وبرغم ان « العمرى » كتب عن هذا الموضوع بعد ذلك بمدة طويلة الا أنه استطاع ان يجمع معلومات عن دولة « مالى » من رجال رأوا بأعينهم موكب امبراطور « ماندينجو » فى طريقه الى مكه ·· وقد سأل أحد قضاة القاهرة السلطان « كانكان موسى » عن مساحة مملكتـه فقال « انها مسيرة عام » ·

ويضيف العمرى انه سمع هذا القول من مصدر آخر ·· ولكن كاتبا عربيا آخر يعتقد أن اتساعها يساوى مسيرة أربعة أشـــهر طولا وعرضا ·· ونحن نعـــلم ان امبراطورية · مالى · فى عهد كانكان موسى « أو بعده بقليل كانت تضم مصادر الملح فى «نغازا» على أطراف الصحراء شمالا ·· ومصادر الذهب فى أقصى الجنوب على أطراف السفانا ·· على حين كانت تمتد غربا حتى الاطلنطى ·· وشرقا حتى منـــاجم النحـاس ومراكز القوافل فى « تخده » والبلاد التى تليها ··

وفى سنة ١٣٢٥ استولى قائد جيش « كانكان موسى » المدعـــو « ساجامان دير » على « جاو » عاصـــمة دولة سونفهوى فى منتصف حوض النيجر ·· وبذلك وضعت « مالى » يدها على الارض الواسعة للتجارة ·· التى كانت امبراطورية « سونفهوى » قد استولت عليهـــا ناحية الشمال ·· ومن ثم اصبحت امبراطوريه « مالى » من أعظم دول العالم فى ذلك العصر ··

وفى « تمبوكتو » أمر كانكان موسى (ببناء المســاجد) التى ظلت شهرتها واسعة لفترة طويلة فى السودان الغربى ·· وقد قيل انها من تصميم أحد شعراء غرناطة فى جنوبى أسبانيا ·· ويدعى « أبو اسحاق الساحلى » الذى تعرف عليه الامبراطور فى مكه ، وأغراه بالعودة معـــه « ويقول ابن بطوطه » الذى زار « تمبوكتو » بعد عشرين عاما من هذا التاريخ انه رأى ضريح هذا الشاعر · وقد بدأ مع زيارة كانكان موسى « لتمبوكتو » بناء المنازل ذات الاسطح المعتوية ·· ومما لا شك فيـــه ان ازدهار هاتين المدينتين قد امتد فترة طويلة بعد هذا التاريخ لان « دولة مالى» قد استطاعت أن تسيطر على أرضها شمالا وجنوبا أكثر مما استطاعت امبراطورية غانا · من قبلها · حيث وضعت يدها على كثير من مصادر النحاس والملح والذهب الى جانب طرق القوافل التى كانت تخترق نطاق هذه الامبراطورية ·· ولم تكن هاتان المدينتان مركزا للتجارة والعقيدة فقط ·· بل كانتا مركزا للثقافة والعلم فقد ظلت «تمبوكتو مركزا للثقافة والحضارة بالســـودان الغربى طيلة ما يقرب من مائة عام ·· فى الفترة التى كانت أوروبا فيها تحترق بحرب « المائه عام » ·

ويصف « ليو الافريقى » تمبوكتو فيقول : « ان فى تمبوكتو عددا كبيرا من القضاة والاطباء والكتبة يتقاضون مرتبـات عالية من الملك

الذى يحترم رجال العلم .. وهناك طلب متزايد على المخطوطات التى كانوا يجلبونها من باربارى .. وكانت التجارة فى الكتب تعود بأرباح تفوق تلك التى تأتى نتيجة أى عمـــل تجارى آخر » .. وبرغم أن « ليو الافريقى » كان يتحدث عن « محمد اسكيا » فى دولة سونغهوى.. الا أنه من الواضح ان الاحوال لم تكن لتتغير كثيرا عن أعوام الرخاء التى أعقبت انتصارات « كانكان موسى » .

وقد ترك لنا « ابن بطوطه » معلومات شائقة عن رحلاته فى دولة « مالى » فتحدث عن جمال نسائها وكيف انهن يلقين احتراما اكثر من الرجال .. وتحدث أيضا عن شئون الحكم فى مقاطعة « والاتا » وهى المقاطعة الشمالية « لبلاد الزنج » (كما كان يدعوها) فوصفها بالتفوق والتقدم .. وحين تحدث عن أبنائها وصـفهم بأنهم لا يعـرفون الحقد وانهم ينتمون الى اخوالهـم بدلا من آبائهم .. وانهـم يرثون هؤلاء الأخوال ولا يرثون آباءهم .. وذلك برغم أنهم مسلمون متمســكون بأداء الصلوات فى أوقاتها وبدراسة كتب القانون وحفظ القرآن ..

وقد ازداد تطور نظم الحكم مع ازدهار امبراطورية كانكانموسى.. وكانت المدن تزداد رخاء بازدياد سيطرتها على طرق القوافل وباحتكارها لأهم المنتجات التى يجرى الاتجار فيها .. ولعل مدينة « جينه » كانت اعظمها على الاطلاق فى هذا الصـدد . فقـد كانت القوافل تأتى الى « تمبوكتو » من جميع الانحاء مخترقة الصحراء نحو الجنوب ومتجهة الى الشمال بصورة تبدو رائعة اذا ما قورنت بحركة التجارة فى أوروبا نفسها فى القرن التاسع عشر

ولعل من المهم هنا لكى نوضح مدى الرخاء الذى كانت تعيش فيه مدن السودان الغربى فى هذه الأيام .. ان نذكر ما قاله «هينريشبارث» من أن ملك « اغاديس » كان فى مقدوره أن يدفع ١٥٠ ألفا من الدوكات الى امبراطور سونغهـــوى الذى كان يتقـاضى الضرائب المختلفة على قوافل التجارة ومحطات هذه القوافل وكل ما تحمله من البضائع .. وهو أمر لم يكن ليختلف بطبيعة الحـال عمـا كانت تفعله أمبراطورية مالى .. ومملكة « غانا » منذ زمن طويل قبل قيام دولة سونغهوى ..

ويقرر البكرى- قبل بارث بمدة طويلة أن ملك غانا كان لديه عمود من الذهب الخالص على درجة من الضخامة بحيث كان يســتطيع أن يربط فرسه اليه وهى أمور كانت سائدة فى مالى أيضـا ـــ وان كانت الروايات عنها قد اتخذت طابعا اقرب الى الأساطير .. فقد قيل مثلا ان « كانكان موسى » قد اصطحب معه خمسمائة من العبيد خلال زيارته لأداء فريضة الحج .. كل منهم يحمل عصا ذهبية يبلغ وزنها ســتة ارطال .. وان امتعته كانت تحتوى على ثمانين او مائة جمل من الذهب كل جمل منها يزن ثلثمائة رطل .. وقد زادت الصلات التجارية فى غرب افريقية واضطرد نموها .. ففى سنة ١٤٠٠ يقول « ابن خلدون » ان قبائل سنوية كانت تخترق الصحراء عن طريق جبال « هجار » تضـم ما لا يقل عن اثنى عشر ألفا من الجمال وهو طريق واحد من بين ست طرق على الأقل ـــ كلها كانت صالحة لاستخدام القوافل وان هـذه القوافل كانت تتجه الى مختلف الانحاء .. وتتجه شـمالا الى البحر

الابيض المتوسط وجنوبا من البحر الابيض الى قلب السودان الغربى ..
كانت « بورنو » مثلا (فى الشمال الشرقى « نيجيريا ») تبتاع النحاس من « واداى » جارتها فى الاتجاه الشرقى .. وكانت « واداى » تستورد هذا النحاس بدورها من دارفور .. وهى أيضا فى أقصى الشرق ..
وكانت مالى تستورد بضائع من البحر الابيض المتوسط وكذلك من مصر . سواء بالطرق الشرقية أو بالطرق الشمالية . وكانت هذه البضائع تضم فيما تضم الحرير والسيوف الدمشقية والخيول فى أعداد كبيرة .. وكان علماء المسلمين .. يروحون ويجيئون .. وكان الحجاج يسافرون سيرا على الاقدام حتى مكه .. وظهرت عملات من الذهب فى غرب السودان .. وكذلك عملات من النحاس او الاصداف .. او على صورة أثقال من الملح أو القطع المعدنية الاخرى هكذا كانت عظمة هذه الدولة حتى ان « بوفيل » يقول : « انه عندما مات كانكان موسى سنة ١٣٥٢ ترك وراءه امبراطورية كانت تمثل فى تاريخ الدول الافريقية الاصلية نموذجا رائعا لسعتها ورخائها وكانت تمثل أيضا نموذجا رائعا لمدى قدرة الزنوج على التنظيم السياسى » .

٧ ـ سونغهوى :

برزت امبراطورية « سونغهوى » فى أواسط النيجر على مسرح القوة بعد أن ادت مالى رسالتها ودفعت بحضارة السودان الغربى خطوات أبعد نحو الاكتمال وحتى يومنا هذا لا تزال شعوب السونغهوى من الزنوج . والتى ربما يصل عددها الى ٦٥٠٫٠٠٠ نسمة .. تعيش على طول النيجر فى ارضها القديمة بين « تمبوكتو » .. وحدود نيجيريا الآن .. وهم لا يزالون يزاولون زراعة الأرض وتربية الماشية ..

فلقد اقامت هذه الشعوب طيلة ألف عام تقريبا فى هذه المنطقة نفسها من حوض النيجر .. وكانت لها سيطرتها الكاملة عليها . . وكانت مدينة جاو تمثل شعوب السونغهوى .. ما كانت تمثله كل من « تمبوكتو » و « دجينه » لغيرها من دول السودان الغربى فى نواحى الثقافة والتجارة والادارة الحكومية .. وقد تم العثور سنة ١٩٣٩ فى بلدة « سانى» على بعد حوالى اربعة اميال من قلب مدينة « جاو » الحالية .. على شواهد لقبور ملكية يعود تاريخها الى الجزء الأول من القرن الثانى عشر .. وقد كتب عليها : « هنا جثمان الملك الذى دافع عن دين الله ويرقد الآن فى رعايته » .. وقد كتب تحت هذه العبارة سنة ٤٩٤ بعد الهجرة .. أى سنة ١١٠٠ ميلادية .. وهو امر يدل على اسم « أبو عبد الله محمد » ثم أضيف اليها مايدل على أن الملك مات انتشار الإسلام فى « جاو » فى زمن متقدم .

ونحن لا نعرف على وجه التحديد اصل شعوب السونغهوى الزنجية ... وان كان الاعتقاد يسود بأن هذه المنطقة كانت تسكنها قبائل زنجية انقسمت تقليديا قسمين : سادة الارض .. وسادة للمياه .. وان هذه القبائل تعود بأصولها الى عائلات قديمة فى غرب افريقيا . . امتزجت بمهاجرين تذكر الروايات المحلية هناك .. انهم كانوا من قبائل « السوركو » وهم من الصيادين القادمين من الشرق . وربما من منطقة

بحيرة تشاد ونهر (بنو) ومن قبائل « الجو » من الصيادين .. وكانت نتيجة هذا الامتزاج هى شعوب سونفهوى .. وكانت أهم أماكن اقامتهم هى « كوكينا » و « جونجويا » بالقرب من شلالات لابيزنجا فى أراضى « الدندى » على الحدود الشمالية الغربية لما يعرف الآن « نيجيريا » وفى روايات أخرى ان مجموعات من البربر المهاجرين قد وصلت الى « كوكينا » فى القرن السابع الميلادى تقريبا يعود أصلها الى قبائل « ليمتا » فى « ليبيريا » ثم فرضت نفسها على شعوب السونفهوى مما دفع شعوب « السوركو » الى الهجرة بعيدا عن « كوكيا » والاقامة فى مكان أصبح فيما بعد مدينة « جاو » ولكن فلول البربر الوافدين تبعتهم الى هناك .. ففى سنة ١٠١٠ ميلادية استولى « ضياء كوسوى » على « جاو » واستخلصها من شعوب السوركو وأسس هناك عاصمة سونفهوى .. ومنذ ذلك التاريخ بدأت امبراطورية « جاو » تبرز الى الوجود وقد قيل ان الملك ضياء كوسوى « اعتنق الاسلام سنة ١٠٠٩ هذا فى الفترة التى سبقت غزوات المرابطين .. ولا شك أنه قد سبق غزوات المرابطين لهذه المناطق من غرب أفريقيا .. قدوم بعض رجال المرابطين من الطلائع .. سواء أكانوا من التجار أم من دعاة الدين .

ويذكر « محمود كاتى » فى هذا الصدد ان مملكة « سونفهوى » قد تحولت الى الاسلام بتأثير تجار « جاو » الذين أتاح لهم وجودهم على طرق التجارة الى الشمال مركزا تجاريا ممتازا وقدرة على اجراء هذا التغيير فى عقائد شعوب سونفهوى ..

وقد كان من نتائج دخول هذه الشعوب الى حظيرة الاسلام أن اختفت الانهة القبلية والمعتقدات البدائية تماما مثلما فعلت المسيحية فى أوروبا . وقد أتاح الاسلام فى هذا الصدد ميدانا جديدا لبناء ممالك عدة تتميز بالقوة والسيطرة .. وليس غريبا اذن .. ان البعثات الاوروبية فى القرن التاسع عشر قد وجدت (فى المسيحية والتجارة) وسيلة لنشر الحضارة وتوحيد القبائل مثل ما فعل الاسلام تماما بهذه المناطق ... وهو أمر يدلنا ولا شك على أن ملوكا مثل «ضياء كوسوى» وكانكان موسى .. قد استطاعوا أن يدركوا مدى أهمية الاسلام والتجارة فى تدعيم ملكهم .

المهم أن هذه الشعوب (السونفهوى) قد ازدادت قوة يوما بعد يوم وبدأ أبناؤها يخرجون من حالتهم القبلية الى تنظيمات أكثر تعقيدا .. وبدأوا يدفعون الضرائب لامبراطورية مالى منذ سنة ١٣٢٥ لمدة خمسين سنة أو تزيد وقد تعرضوا لغزوات قبائل « الموسى » السودانية .. والى غزوات الطوارق بالصحراء خلال القرن الرابع عشر وبرغم ذلك فقد استمرت دولتهم قائمة حتى جاء ملكهم « سنى على » الى الحكم فى سنة ١٤٦٤ وهو يعتبر ملكهم الثامن عشر منذ أسس « ضياء كوسوى » دولة سونفهوى .. وقد جعل « سنى على » هذا من دولة «سونفهوى» أقوى دولة فى السودان الغربى فى ذلك الوقت .. فيما عدا دولة « بورنو » الى الشرق منها وقد استطاع « سنى على » أن يمد سلطانه الى الممالك المجاورة .. فاستولى على تمبوكتو ودجينه من أيدى حكام امبراطورية مانديجو (مالى) وجعلهما ضمن دولته كما تمكن من السيطرة على أرجاء هذه الدولة بقوة . . لما كان يتمتع من

صفات الحاكم القوى الحذر الطموح .. الذى يعرف كيف يدير أموره فى مماكة واسعة كهذه وقد خلفه على كرسى المملكة محمد اسكيا فى سنة ١٤٩٣ وهو الذى يعرف باسم « محمــد تورى » أو ياسكيا العظيم .. وقد استمر حكمه تسعة عشر عاما دفع بحدود دولته فيها حتى مناطق « السيجو » فى الغرب .. والى المناطق شبه الصحراوية فى الشــمال الشرقى أى الى أبعد مما استطاع كانكان موسى أن يحققه لدولة « مالى » الا أن من أعظم ما قام به محمد اسكيا من أعمال أنه طور النظام الادارى فى سونفهوى بحيث دفع الدولة دفعة قوية نحو الحكم المركزى القوى .. وقد ظلت هذه الدولة مزدهرة حتى دهمتها جيوش المراكشيين ســنة ١٥٩١ بقيادة المنصور فاسـتولت على جاو وتمبوكتو وشتتت شـمل جيوش سونفهوى التى كان يحكمها فى هذا الوقت « اسكيا اسحق » وحطمت ملكه ومع عام ١٦٠٠ كان من الواضــح أن الايام العظيمة للسودان الغربى .. قد انتهت .

٨ ــ الساو .. وكانيم :

لا يستنفد تاريخ غانا ومالى كل تاريخ الســودان الغربى فى قرون التطور والنمو فقد ظهرت دول ومدن أخرى .. ومرت بالتحول نفسه من مجموعات قبلية الى قبائل عدة تجمعت وأصبحت بعــد ذلك دولا تحكمها حكومات مركزية .. ثم تحولت بعد ذلك الى امبراطوريات . . لقد ظهرت شعوب أخرى كثيرة وقوية غير الماندينجو والسونفهوى .. استطاعت أن تحسن طرق معيشتها وان تحقق آمال أســلافها ففى الوقت الذى أسس فيها « ضياء كوسوى » جاو عاصمة سونفهوى فى بداية القرن الحادى عشر .. ظهرت ولايات « الهوســا » فى شــمال نيجيريا ... واتحدت هذه الولايات بعد ذلك فى دولة كبيرة هى « دولة كيبى » واستطاعت هذه الدولة بعد وصولها الى القوة أن تصمد أمام « محمد تورى » حتى بعد أن استولت جيوش سونفهوى على « كانيم » وبعد ذلك بمائتى عام .. استطاعت شعوب سودانية أخرى هى شعوب « الفولانية » أن تبسط سيطرتها على بلاد « الهوسا » والى الشرق كانت « كانيم » أكبر دولة نشأت فى منطقة المراعى بين النيجر والنيل .. ثم جاء بعدها بورنو التى عمرت أكثر من كل ولايات السودان الاخرى . وترجع أصولها فى التاريخ الى الفترة نفسها التى بدأت فيها سونفهوى . كما أنها تتداخل معها فى الشعوب المهاجرة . التى وصلت من الشرق ومن الشمال الشرقى .

وتقول الروايات ان الطرق القديمة من وادى النيل شهدت كثيرا من الهاربين من الحروب والغزوات بعــد انهيار « كوش » وانتصــار الأحباش فى « اكسوم » وقدوم العرب الى مصر .. ان موجات كبيرة من المهاجرين قد وصلت دفعة تلو أخرى الى منطقة بحيرة « تشــاد » مكونة جميعا .. أساس امبراطورية كانيم التى بدأت مع بداية القرن الثامن الميلادى .. واستمرت حتى القرن الســابع عشر ومع ظهور «ساو» فى المنطقة المجاورة لحدود بحيرة تشاد ، تنتهى الموجة الحضارية التى قدمت من وادى النيل وتبدأ حضارة جديدة .

وقد حاول البعض أن يفسر الاعمال التى حققتها الشعوب فى قلب القارة الافريقية بأنها لم تصدر عن شعوب افريقية أصيلة .. وحاولوا أن يوحوا بأن شعوب « ساو » كانت ترجع الى الهكسوس الذين غزوا مصر القديمة .. ولكن « ليبوف » نفى هذه الاسطورة وحدد تاريخ وصول الساو الى بحيرة تشاد بمدة لا تزيد على القرن العاشر الميلادى على حين يؤيد « ايرفوى » وصولهم للمنطقه واستقرارهم على الشاطىء الشرقى للهجرة وفى منطقة السعانا شمال تشاد بالقرن الثامن الميلادى. ومن القليل الذى تعرفه عن استقرار « الساو » شرقى وغربى بحيرة تشاد وعن ظهور دولة « كانيم » . تبقى ثغرة كبيرة .. هل يمكن القول بأن شعوب الساو ، تمكنت من انشاء دولة فى هذا الماضى البعيد على حين كانت تعانى من موجات الشعوب المهاجرة الى أرضها ؟ .. ربما لم يتمكنوا من ذلك ولكن بغض النظر عن هذه الشعوب المهاجرة فقد قدمت شعوب أخرى استطاعت فى يوم ما أن تنشىء دولة « كانيم » . وأثبتت أنها تستطيع أن تكون ذات تأثير حضارى بعيد وهام فى توحيد هذه الشعوب المختلفة شرقى حوض النيجر . كما فعلت « مالى » الى الغرب منها وهنا أيضا كان الدافع نحو التركيز السياسى والعسكرى.. فان حكام امبراطورية كانيم . القديمة التى قامت فى القرن الثامن واستمرت حتى الثالث عشر . لتتبعها فى حدود الامبراطورية نفسها حكومات مركزية أخرى ظلت قائمة حتى القرن السابع عشر .. هؤلاء الحكام استحدثوا نظما جديدة فى الحكم المركزى وفى أساليب الحرب والغزو .. وهنا تكمن العوامل التى ربطت بين النمو الحضارى المتصل واستخدام الحديد .. والاستفادة من التجارة الدولية .

وبالرغم من أنهم لم يكونوا يملكون مناجم الذهب مثل غانا ومالى.. الا انهم كانوا يسيطرون على القوافل المتجهة شمالا الى فزان والبحر المتوسط .. وشرقا الى حوض النيل .

ويرتبط تاريخ كانيم بحكم أسرة « سيفوا » التى قامت على أسس خاصة بها من الاقطاع القبلى .. حيث يتولى الحكم « مجلس عظيم » من اثنى عشر عضوا من كبار ضباط الامبراطورية الذين كانوا يناقشون أمور الحكم ويبعثون بقراراتهم الى السلطان .. ولم يكن هذا الأمر يبدو فى البداية أكثر من « مجلس عائلى » ثم تطورت الامور بعد ذلك .. ونشبت حروب بين الأسر المختلفة على « حقوقها » التى كانت تتمتع بها فى وقت ما . كمنحة من السلطان .. ولكن .. بالرغم من هذه الحروب والمنازعات بين الجيران .. وبالرغم من الكوارث التى حلت بهم فقد ظلت شخصية كانيم . و « بورنو من بعدها » متميزة وثابتة حتى القرن السادس عشر والسابع عشر . ومازال بناؤها متماسكا من بعض الوجوه .. حتى يومنا هذا .

٩ ــ فى دارفور :

يبدو أن امبراطورية كانيم القديمة قد وسعت حدودها تحت قيادة سلطانها «دوناماديباليينمى» الذى حكم فيما بين عامى ١٢١٠ ، ١٢٢٤ وذلك بعد توسع مضطرد استمر أكثر من خمسمائة سنة .. فانه يقال

ان « دوناما » هذا قد دفع حدود بلاده الى النيل الاوســـط ٠٠ وبسط سلطانه على طرق التجارة شمالا الى فزان وعلى طرق التجارة التى كانت تصل دولة « مالى » وبقية دول السودان الغربى بالشرق الاوسط ٠٠ ثم بدأت الدولة فى الانهيار والتفكك حتى لم يعد هناك نظام يربطها ٠٠ فقد اندلعت فى عهد «دوناما» نفسه حرب أهلية نتيجة جشع أبنـــائه الذين استقل بعضهم بالمناطق التى كانوا يحكمونها ٠ واندلعت بينهم الحروب ولكن «دوناما» استطاع أن ينتصر فى النهاية لكى يسود الهدوء طيـــلة حكم سلطانين أو ثلاثة من بعده ٠ ليظهر التنـــافس مرة أخرى وتندلع الحروب طيلة قرنين من الزمان هذا بالاضافة الى الحرب التى قامت نتيجة محاولة «الساو» الاستقرار حول بحيرة تشاد ٠٠ فقد أدت كل هذه الامور الى انهيار الامبراطورية القديمة والى تعرضها لغزوات شعوب « البولالا » التى بدأت من الربع الثالث من القرن الخامس عشر لكى تظهر الى الوجود امبراطورية «كانيم» جديدة ٠ أو امبراطورية «بورنو» التى انبثقت عن سلطنة «بورنو» الى الشمال الشرقى من نيجيريا ٠

ومن العسير أن نحدد تاريخ هـذه الفترة الذى يزخر بالروايات عن الصراع بين الأسر المختلفة ٠٠ الا أنه يمكننا على أية حال أن نستخلص أن الحياة فى هذه المنطقة مابين النيل الاوسط ، والنيجر ، قد اعترتهـا اضطرابات وحوادث أثرت فى حياة الاهالى بالدرجة نفسها التى أثرت بها حرب «الوردتين» فى حياة الانجليز ٠٠ وان التجارة وتبادل الافـكار لم ينقطعا برغم هذه الاحداث والاضطرابات ٠ فقد كانت قوافل التجـارة تسير فى طريقها بين النيل والنيجر طيلة ثلاثة قرون قبل القرن السادس عشر وبعده أيضا ، وربما بين حوض النيجر والصومال وساحل المحيط الهندى ٠٠ فلم تؤثر فيها الحروب والمنازعات تأثيرا كبيرا ٠ والى الداخل من الداخل للمحيط الهندى كانت مملكة أو سلطنة «عدال» التى حطمتها الحروب مع جيرانها فى القرن السادس عشر ٠ ولكنها كانت من القوة والغنى بحيث استطاعت أن تبنى المدن التى لاتزال أسوارها قائمة حتى الآن ٠ وكانت ثروة هذه السلطنة ترجع الى ماتدره التجارة من أرباح لانها كانت تقع فى نهاية طريق طويل محفوف بالمصاعب عبر القارة الافريقية يؤدى غربا الى مملكة «بورنو» ومدن النيجر الشمالية ٠٠ ويربط المحيط الهندى بدولة مالى وسونغهوى والدول الاخرى الاقل شـــأنا منهما فى السودان الغربى ٠٠ ولكن هل كانت كانيم ترتبط بالشمال الشرقى أى بحوض النيل الادنى والاوسط ٠٠ أى بمصر والشرق الادنى وسيناء ؟

للاجابة عن هذا السؤال يحسن بنا أن نلقى أضواء على المـــمالك المسيحية فى منتصف وادى النيل التى وجدت من الممالك التى كانت تتبع كوش ، وازدهرت فيها الصناعات الفنية ٠٠ ونمت القوة السياسية ٠٠

هذه الممالك التى تحولت الى المسيحية فى القرن الثالث بفضل بعثـات التبشير القادمة من شرق البحر المتوسط والتى استمر أبناؤهـــا على مسيحيتهم حتى الفتح الاسلامى بعد ألف سنة تقريبـا ٠ والتى تركت حضارتهم أثرا واضحا فى شرقى السودان يتجلى فى اللغة النوبية وفى بقايا قليلة لكنائس كانت هناك ٠٠ والى الغرب ٠٠ أو فى تلال دارفور ٠٠

وفى هذه المنطقة شبه الصحراوية ٠٠ وفى منتصف الطريق الموصل بين النيل والنيجر ، تدلنا اطلال هناك على مدى الصلة بين الشرق والغرب من القارة الافريقية عبر قرون عدة ٠٠ سواء أكان تأثيرها مسيحيا أو اسلاميا ٠

وأهم هذه الاطلال هى اطلال مدينة «جبل أورى» ومقابرها ٠٠ وقاعة الاجتماعات التى تبدو فيها وكنيسة أودير لاتزال آثارها موجودة ٠٠ وقد بنيت هذه المدينة من الحجارة داخل سور يحيط بها لابد وانه حوى عددا كبيرا من السكان عاشوا هناك فترة طويلة من الزمن ربما بلغت حوالى ثلاثة أو أربعة قرون ٠٠ ومن واقع ماعثر عليه من اطلال ٠٠ اتضح أن هذه الابنية كانت مبنية من الحجارة التى لاتتخلل قوالبها أية مادة من مواد «المونة» وان بعض هذه الابنية لاتزال سليمة ، ويصل ارتفاعها الى نحو عشر أقدام أو اثنتى عشرة قدما ٠٠ ويعتقد البروفسور «آركل» أن مدينة «جبل أورى» هذه اما أن تكون مركزا يتبع امبراطورية «كانيم» فى ادارة دارفور أثناء التوسع الشامل لها تحت حكم «دوناما» فى القرن الثالث عشر ، أو أنها كانت عاصمة للبولالا وقت سيادتهم لهذه المنطقة فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ٠٠ على أنه من الجدير بالذكر أن قيام هـذه المدينة ورخاءها فى كلتا الحالتين انما يعود ولا شك الى نظام التجـارة فى امبراطورية كانيم وهو أمر يثبت وجود الصلة التى تساءلنا عنها فى بداية هذا الجزء من الفصل ٠٠ الامر الذى يؤكد أن أهالى مدينة «جبـل أورى» كانوا بمثابة وسطاء للتجارة التى كانت تعبر القارة بين النيجر والمحيط الهندى ، والشواهد كثيرة على أن قوافل التجارة كانت تمر فى هذا الطريق قادمة من الشرق الى الغرب أو بالعكس منذ عصور بعيدة ٠٠ وهنا يتبادر الى الاذهان سؤال ٠٠ هل وصل الرواد المصريون بقيـادة «حاركوف» أثناء حكم الأسرة السادسة الى تلال دارفور ؟ ان آركل يؤكد هذا الرأى ٠٠ فما زال «درب الاربعين» يربط حتى يومنا هذا بين دارفور ومصر العليا ٠٠ ثم ان هناك نقوشا هيروغليفية ترجع الى أصول مصرية قديمة ويرى آركل ٠ أن الاسرة المالكة فى ميرو ربما تكون قد هربت غربا بعد هزيمتها فى اكسوم وكونت مملكة فى دارفور بعد سقوط دولة كوش ولو أن هذا حدث فعلا ، فانه يكون قد حدث سنة ٣٥٠ ميلادية ٠٠ وبعد حوالى خمسمائة عام من هذا التاريخ أو قبل ذلك بكثير ٠٠ كان عمالقة الساو يصنعون البرونز والحديد على بعد ستمائة ميل الى الغرب ٠٠ أى فى التاريخ نفسه الذى يحدده بعض الباحثين لبداية امبراطورية الساو فهل من الممكن أن نقول أن هؤلاء الساو يرجعون بأصولهم التى نزحت من أرضها واستوطنت شواطىء بحيرة تشاذ الى مهـاجرين من دارفور ٠٠ وربما كان بعضهم من ميرو ٠

الواقع أن هناك آراء كثيرة تحاول أن تثبت وجود صلة مابين النيل والنيجر وسواء أكان هذا صحيحا أم لا ٠٠ فان آثار «جيل أورى» تذكرنا باختفاء ميرو ٠ وقيام دولة وسط الصحراء أثرت فى تاريخ أفريقيا فى العصر الوسيط ٠ وهى تعكس كثيرا من أوجه الشبه برغم بعد المسـافة لكثير من حضارات المجتمعات الافريقية التى يمكن ارجاعها الى مانسميه بالعصر الحديدى فى أفريقيا ٠

والى الجنوب من «أوري» بنحو عشرين ميلا توجداطلال شهيرة أخرى في دارفور في «عين فاره» وقد عثر الباحثون سنة ١٩٥٢ بعد التنقيب على آثار قصر ودير مسيحى نوبى ·· ولم يكن أحد يعتقد أن المسيحية قد بلغت الى نصف المسافة بين النيل والنيجر · أو أن الممالك النوبية بسطت سلطانها غربا الى هذه المسافة كما تم العثور أيضا على آثار مسجد وعلى كنيسة تحولت فيما بعد الى مسجد ·

ولقد كان الاعتقاد السائد من قبل أن بناة آثار – عين فارة – كانوا من دولة كانيم أو بورنو على حين تدل الآثار المسيحية المكتشفة على أن المسيحية قد وصلت الى أماكن لم تبلغها من قبل ، وان أصحاب هذه الآثار قد اتبعوا فى بنائها نمطا مسيحيا نوبيا كان شائعا فى النيل الاوسط ·· ويبدو ذلك أيضا فى اختيار مواقعها على قمم التلال · ولقد خضعت المسيحية النوبية للاسلام فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ·· ولقيت مراكز المسيحية المتقدمة فى دارفور المصير نفسه ·· ومن ثم تحولت الكنائس الى مساجد ·· والآديرة الى قصور أو مراكز للحكام ، وذلك على يد أحد سلاطين بورنو · ربما كان السلطان « ادريس الوما » أو غيره الذى حكم الامبراطورية الجديدة «لكانم» وبورنو (١٥٧١–١٦٠٣) ومهما يكن الأمر فقد أصبحت دارفور مملكة مستقلة بعد موت السلطان ادريس ، وأتى من بعده سلاطين من أسرة «كيرا» من شعوب الفور التى تقطن دارفور ·· وقاموا ببناء القصور والمساجد واستمر حكمهم حتى ١٩١٦ ·

هذه خلاصة للحضارات الافريقية الاصلية فى السودان الغربى فى العصور القديمة من التاريخ · بيد أن هذه الحضارات قد أصابها الانحلال ثم اندثرت وهذا هو الفرق بين أفريقيا أو أوروبا فى القرون التى تلت ذلك ·· ففى فترة التطور الصناعى التى عمت أوروبا وأوصلتها الى ماهى عليه الآن ، شهدت أفريقيا بداية انحلالها وانكماش حضاراتها ·· ولو أن حضاراتها كانت قد استمرت لكانت قد تطورت لتصبح حضارات أفريقية جديدة أكثر تقدما ·

١٠ – نكسة وبقاء :

لماذا ظلت هذه الحضارات الافريقية القديمة على المستوى نفسه الذى وصلت اليه ولم تتطور الى مستوى آخر حديث مع تطور التاريخ ·

هناك جانب من الرد على هذا السؤال واضح كل الوضوح ·· فمن قبيل المصادفات الحسنة أن لدينا ماكتبه «ليو الافريقى» المولود فى غرناطه باسبانيا حول سونغهوى وبعض دول السودان الغربى الاخرى فى السنة نفسها التى هزم فيها أسكيا العظيم خليفة «سنى على» فليو الافريقى يعتبر فى هذا الصدد شاهد عيان على درجة كبيرة من الثقافة حصل عليها من مدارس ومكتبات «فز» وقد قام ليو الافريقى هذا برحلات عدة فى المغرب والسودان الغربى · وقد أسره القراصنة المسيحيون فى سنة ١٥١٨ حينما كان فى طريقه من استانبول الى تونس وبدلا من أن يبيعوه ضمن الاسرى

من البربر فى موانى ايطاليا أخذوه الى روما حيث قدموه الى البابا ليو العاشر ابن «لوزنزوده مديشى» وأحد أبناء أسرة المريتشى الشهيرة بعلاقاتها بالشئون التجارية العالمية وبحكومة «فلورنس» ٠

ولقد كانت رغبة أغنياء وتجار أوروبا فى ذلك الوقت عارمة فى معرفة مايجرى فى قلب القارة الافريقية فيما وراء الحواجز الاسلامية فى شمالى أفريقيا ٠٠ ومن ثم وجد البابا ليو العاشر ٠٠ بغيته فى ليو الافريقى الذى تنصر فيما بعد تحت اسم «جيوفانى ليونى» والذى أخرج كتابا عن أفريقيا أتمه سنة ١٥٢٥ وطبعه «راميوزو» لاول مرة سنة ١٥٦٣ وظهرت أول طبعة له بالانجليزية سنة ١٦٠٠ وقد تحدث ليو الافريقى عن المجتمعات الافريقية المتحضرة ومراكز التجارة المزدهرة فوصفها مثلا بأنها أعجوبة الاعاجيب بما فيها من بضائع تجلب اليها كل يوم ٠ وعن الذهب الذى يفيض على حاجة الاسواق هناك ٠٠ وقد أثارت هذه الملحوظات أوروبا كلها ٠ ولكن بربر شمالى أفريقيا ٠٠ كانوا أشد اهتماما بها ٠٠ ومن ثم بدأت جيوشهم تزحف نحو الجنوب لكى تقضى على «اسكيا العظيم» أو «محمد تورى» سنة ١٥٢٩ وفى سنة ١٥٨٥ استطاع مولاى المنصور سلطان مراكش أن ينتزع مصادر الملح فى «تغازا» من أيدى دولة سونفهوى ومن ثم خطا الخطوة الاولى نحو مصادر الذهب السودانية التى كان المراكشيون يعتقدون امكان الاستحواذ عليها تماما كما اعتقدت دولة المرابطين قبلهم بزمن طويل ٠٠ وبعد سنوات قليلة غزا المراكشيون دولة سنفهوى نفسها ٠٠ حيث استطاعوا القضاء عليها بقوة مراكشية اخترقت الصحراء تحت قيادة قائد اسبانى يدعى «جودار» استطاع أن يتغلب بأسلحته النارية الحديثة على جيوش سونفهوى التى تفوق قواته عددا ولكنها لا تملك مثل هذه الاسلحة النارية ومن ثم سقطت سونفهوى واستطاع جودار أن يحتل تمبكتو وجاوه ٠

وعندما عاد جودار هذا ـ أو جودار باشا كما يعرفه التاريخ ـ بثلاثين جملا محملة بالتبر تبلغ قيمة حمولتها كما يقول جاسيار تومسون سنة ١٥٩٩ (٨٠٠ر٦٠٤ جنيه) كما عاد بحمولات ضخمة من الفلفل وقرون التوابل بأشكال متنوعة من خشب الصباغة على أظهر مائة وعشرين جملا أهداها كلها للملك مع خمسين حصانا وأعداد كبيرة من الخصى والأقزام والعبيد من الرجال والنساء وخمس عشرة عذراء ٠٠ هن بنات ملك «جاو» لكى يصبحن عشيقات الملك ٠٠ وقد قيل أن غزو سونفهوى قد كلف المراكشيين ثلاثة وعشرين ألف قتيل ٠٠ وبرغم انتصارهم فى النهاية فانهم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على مصادر الذهب التى كانوا يتطلعون اليها ووجدوا كما وجد غيرهم فى اجزاء أخرى من أفريقيا أن الذهب كان يختفى مع كل غزو ٠٠ وبعد خمس وعشرين سنة من المتاعب تخلى السلطان مولاى زيدان «عن سونفهوى» ومنذ ذلك الغزو المراكشى لهذه الدولة من دول السودان الغربى ٠٠ تغير كل شىء وانهارت التجارة ٠٠ وحل الخطر محل الأمن والفقر محل الغنى ٠٠ والتعاسة محل السلام ٠٠ وبقيت ولاية واحدة من دول سونفهوى مصرة على الاحتفاظ باستقلالها ٠٠ وهى ولاية «انزورو» على الضفة اليسرى من النيجر ٠ حتى بدأت أوروبا

تدخل الى الميدان ٠٠ ففى سنة ١٨٨٤ هاجمت فرنسا النيجر من الغرب واستولت على « تمبوكتو » سنة ١٨٩٤ على « جا » سنة ١٨٩٨ وتغلبت سنة ١٩٠٠ على الطوارق الذين كانوا قد استولوا على بعض أجزاء دولة سونفهوى السابقة ٠٠ وفى نهاية المطاف ٠٠ أى فى سنة ١٩٥٩ ٠ بدأ السودان الغربى الذى كان جزء منه يعرف باسم أفريقية الغربية الفرنسية ٠٠ يتهيأ لوضع سياسى جديد ٠٠ وبعد ٨٥٠ عاما من الاستعمار والاستعباد ٠٠ بدأ هذا الاقليم الواسع يستعد لحياة جديدة ٠

وخلاصة القول ان الغزوات المراكشية تفسر الى حد بعيد كسوف شمس السودان الغربى ٠٠ على أن هناك أسبابا أخرى لهذا الكسوف ٠٠ منها انهيار هذه الحضارة المراكشية نفسها فى بداية القرن السابع عشر وعزل القوى العربية وقوى السودان الغربى عن العالم الذى تلا العصور الوسطى فى أوربا العالم المزود بالتقدم التكتيكى السائر فى طريق الثورة الصناعية ٠٠ ومنها أيضا الاكتشافات البحرية التى قام بها البرتغاليون والاسبانيون والايطاليون والتى فتحت طرقا بحرية جديدة للتجارة ٠٠ أدت الى اضعاف أهمية الطرق التجارية القديمة فى القارة الافريقية ٠٠ فقد عاد سير فرانسيس دريك ٠ مثلا من رحلة حول العالم ٠٠ ومعه أكثر من مليون ونصف مليون من الجنيهات مما أطفأ بريق ذهب السودان وشهرته ٠٠ على أن هناك الى جانب هذا كله أسبابا تتعلق بالبشر أنفسهم فى هذه المنطقة من العالم ٠٠ وتفسح الحياة الاجتماعية بينهم فلم يكن مجتمع السودان الغربى على أية حال مجتمعا مثاليا يقول هينريش بارث فى وصفه لهذا المجتمع ٠٠ ان فرعا على جانب كبير من الاهمية فى ميدان التجارة بمدينة «كانو» فى نيجيريا كان تجارة العبيد ولا أعتقد أن عدد العبيد الذين يصدرون من «كانو» كل عام يمكن أن يقل بحال من الاحوال عن خمسة آلاف عبد كل عام ٠٠ هذا الى جانب عدد آخر كبير يباع داخل البلاد نفسها ٠

الفصل الرابع

بين النيجر والكونغو

١ ـ ماوراء السفانا :

ترى ماالذى كان يحدث في هذه الحقبة من التاريخ فى الاراضى التى تقع وراء حافة الغابات ٠

لقد كان هذا بمثابة حاجز أخضر ضخم أمام شعوب السفانا كما كانت الصحراء فى الشمال ٠ وكان الاتجار مع أهالى الغابات يتركز فى تجارة الذهب والعبيد وثمار الكولا ٠ ولكن لم تستطع شعوب السفانا أن تنفذ خلال هذه الغابات حتى كان موسى أو «أسكيا العظيم» أو آدريس ألوما ٠٠ ثم يتمكنوا من التوغل هناك لمسافات بعيدة على حين كانت التجارة وبعثات الاسلام لاتفتأ تفتح لنفسها طريقا هناك ومجالا للعمل ٠٠ غير أن موجات الهجرة الاولى تمكنت من التوغل جنوبا الى ماوراء حاجز الغابات حتى أن كثيرا من شعوب غرب أفريقية الاستوائية تعتقد أن أصولهم ترجع الى الشمال والشمالى الشرقى ٠٠ فشعوب آكان فى غينيا الحالية تعتقد أن أجدادها قدموا من الشمال فى القرن الحادى عشر ٠٠ وتبدأ قائمة ملوكهم فى نهاية القرن الثالث عشر عند تأسيس عاصمتهم القديمة بونومانسو التى تقع اطلالها شمالى كوماسى فى بلاد أشانتى بنحو مائة ميل ٠٠ ومن الواضح أن هذه الشعوب القوية النشيطة على حافة الغابات لم تتكون فقط نتيجة الهجرة من الشمال ٠٠ لقد أخذت هذه الشعوب حقا كثيرا من الشمال ٠٠ واستقبلت هذه الاماكن كثيرين من الوافدين من هناك ٠٠ ولكن هؤلاء الوافدين لم يعكسوا اشكال الحضارة السودانية الغربية أو أنماطها بأكثر مما عكست الحضارة السودانية اشكال وأنماط حضارات شمالى أفريقيا ٠٠ أو حضارة كوش التى كانت لها بهم صلات مختلفة كما أسلفنا ٠٠ لقد أخذوا فنونهم وآراءهم من الشمال ولكنهم أعادوا نسجها كى تلائم ظروفهم ٠

واذا نحن بحثنا فى تاريخ الحزام المحيط بالغابات وفى تاريخ شعوبه المختلفة فلن نجد مايعيننا فى بحثنا هذا بين كتابات المؤلفين العرب فى العصور الوسطى ٠٠ كعلماء تمبوكتو ودجينى ٠

ولكن ظهرت وثائق من مصدر آخر فى منتصف القرن الخامس عشر وفى سنة ١٤٧٥ ارتاد القواد البرتغاليون الساحل حتى «بنين ، وبيافرا»

على الساحل الغربي والجنوبي الغربي لافريقيا ٠٠ ويبـــدو أن روى دء سكويرا البرتغالى قد نزل على شاطىء بنين سنة ١٤٧٢٠ ولكن يبدو أن التاريخ المدون لنزول الاوربيين فى هذه المنطقة يزخر بقصص عن الاوربيين أنفسهم أكثر مما يحكى قصة الافريقيين ٠ فقد كان أكثر هؤلاء الاوربيين من القراصنة ولم يتصلوا كثيرا بالداخل ٠ فقد كان اهتمامهم محصـــورا فى الحصول على الذهب والعبيد والفلفل وكل مايملأ خزائن ملوكهم فى غرب أوروبا ٠٠ وأنشأوا محطات تجارية وقلاعا لحماية تجارتهم ٠

ومن المفارقات أن رئيس وزراء غانا يعيش اليوم فى احدى هـــذه القلاع ٠ وحتى البعثات المسيحية التبشيرية لم تضف الى معلوماتنا كثيرا فى هذا الصدد ٠ وقد تظهر لنا الايام القليلة القادمة مزيدا من المعلومات فى هذا الميدان حيث أن الفاتيكان (حتى كتابة هذه السطور) يقوم بطبع أكثر من خمس عشر ألف وثيقة مكتوبة لم تنشر من قبل جمعت من مكتبات جاو ولشبونة ٠

٢ — الاضطراب العظيم :

فاقت تجارة العبيد كل ماعرف من قبل فى مدى تأثيرها سواء خارج القارة أو النابع من الدول الافريقية نفسها خلال عصر الاقطاع واستخدام الحديد ٠ فقد كانت هذه التجارة استنزافا لحيوية الشعب وكانت تختلف اختلافا تاما عن مجرد اخضاع شعوب مغلوبة على أمرها ٠٠ حتى انها كانت أسوأ تأثيرا من الموت الاسود الذى يقال أنه قضى على ثلث سكان أوروبا ٠ ذلك لأن تجارة العبيد امتدت آثارها فشملت النواحى الاجتماعية وحطت من قدر الحياة الانسانية نفسها بالنســبة للافريقيين وللأوربيين الذين تعاملوا بها ٠

وقد بدأ طلب أوروبا للعبيد يتزايد منذ عام ١٤٤٤ حين وصلت شحنة منهم من شمالى السنغال الى لشبونة واستمر الطلب عدة مئات من السنين بعد ذلك على حين كان البرتغاليون وغيرهم يتنافسون فى ميدان هـــذه التجارة حتى قيل أن عدد العبيد الزنوج الذين اختطفوا من أفريقيا فاق عدد سكان البرازيل بأكملهم ٠٠ غير أن الاقبال على شراء العبيد كان أشد كثيرا فى البرازيل ومنطقة البحر الكاريبى ٠ فقد امتصت هذه المناطق أكبر جانب من هذه التجارة ٠ وقد جلب تجار العبيد من أفريقية اعدادا بالملايين مات الكثير منهم نتيجة الحروب أو أثناء شحنهم على ظهر السفن ٠

وقد قدر مؤرخ برتغالى أخيرا أن نحوا من ١٫٣٨٩٫٠٠٠ عبد قـد تم جلبهم من ساحل انجولا وحدها مابين سنة ١٤٨٦ وسنة ١٦٤١ بمعنى أن نحوا من تسعة آلاف عبد فى السنة الواحدة كانوا يختطفون من منطقة لم تكن قط كثيفة السكان ٠ وقد ورد فى تقرير للملك فيليب الاول لعدد العبيد الذين أخذوا من انجولا ونقلوا الى البرازيل مابين سنوات ١٥٧٥ــ ١٥٩١ بأنهم ٥٢٫٠٥٣ بمعدل ألفى عبد كل عام ٠ وقدر كادورينجا العدد الكلى للعبيد الذين نقلوا الى البرازيل وأكثرهم من انجولا وموزمبيق بين عامى ١٥٨٠ ، ١٦٨٠ بحوالى مليون ، بمعدل عشرة آلاف كل عام ويبدو

انه حين تتوافر المعلومات فى هذا الصدد فسوف ترتفع الارقام كثيرا عن ذلك ٠

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أكثر هذه الاعداد وردت من انجـــولا وموزمبيق فقط ٠

ونعيد تقارير ليفربول بعد ذلك بقرن ففى خلال احدى عشرةسنة من سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٧٩٣ قامت من ليفربول نحو حوالى ٩٠٠رحلة بحرية لتجارة العبيد حملت أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ عبد وكانت تبلغ قيمتهم فى هذه الايام ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون جنيه ، وبلغ مافى هذه الرحلات التسعمائة ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون جنيه بمعدل مليون جنيه كل عام ٠ ولم يشك «بارث» فى كتاباته فى منتصف القرن التاسع عشر من تجارة العبيد داخل السودان الغربى والتى كان مركزها «كانسو» بنيجريا ، ولكنه شكا أيضا من تجارة العبيد على ظهر سفن أمريكية ، فى خليـــج « بنين » وهكذا بلغت تجارة العبيد حتى أنه ساد الاعتقاد أحيانا بصعوبة القضاء عليها ٠

وبينما كانت حروب العبيد مستمرة أصبح التجار أكثر جشعـــا وأصبح انحلال الافريقيين موازيا لفهم الاوربيين فى الحصول على العبيد ولقد كانت تقوم ثورات وحشية مفاجئة يائسة بين السود للتخلص من هذه العبودية ولكنها كانت تزيد من بؤسهم وتؤدى الى مزيد من سـفك الدماء ٠

وقد جاء فى تقرير سنة ١٧٨٨ (أن المشقة التى يتحملها العبيـد تدفـع بهم الى اليأس فيتلمسون أى وسيلة للهرب من وجه غاصبيهم ٠ فيحدث العصيان وتراق الدماء وأحيانا كانت تنجح مثل هذه المحاولات فيحصل عبيد السفينة على حريتهم وكثيرا ماكان العبيد يلجأون الى أعمال يائسة ليتخلصوا من حياتهم البائسة ٠ بل ان ثورة العبيد قد امتدت الى الامريكيين فثاروا فى سان دمنجو ، وكانت هذه واحدة من ثوراتهم التى حررتهم فى البحر الكاريبى وارض أمريكا نفسها ٠ ولقد كان مألوفا أن يتمكن تجار العبيد من افساد بعض زعماء القبائل على الساحل واقناعهم بمعاونتهم فى بيع العبيد لهم بالجملة ٠

ولم يكن هذا العمل الا مرحلة تلت بيعهم للعبيد داخل البلاد نفسها كل هذا كان يحدث والأساقفة الاوربيون فى هذه الاماكن يجلسون فى أبراجهم العاجية على رصيف الميناء فى لواندا بأنجولا يمدون أيديهـــم الرحيمة ٠٠ لتعميد العبيد بالآلاف وهم يساقون مكبلين بالاغـــلال فى طريقهم الى البرازيل ٠

ونخطىء خطأ بالغا اذا نحن اعتقدنا أن المجتمع الافريقى تحمل قرونا من هذه التجارة الجشعة فى طاعة عمياء ٠٠ أو كما يقول البعض أن المجتمع الافريقى كان منحطا بطبيعته ٠٠ ذلك أن هذا المجتمع كان مجتمعا مسالما كريما لطيف المعشر ٠٠ ثم ألقت به الاقـدار الى الموت والرعب ٠٠ فكان

الاقوياء منهم يثورون وكان الضعفاء يستسلمون لمصائرهم ·· وان لم يكن في استسلامهم هذا معنى للقبول والرضا بأى حال من الاحوال ·

ويمكن أن نتصور مدى التفكك الذى أصاب أفريقية نتيجة لاصطياد العبيد بالجملة ·· ومدى الخراب الذى لحق المجتمع الافريقى وقضى على كل المعانى الطيبة فى أرض هذه القارة ·· اذا نحن بحثنا أيضا حالة المجتمعات الافريقية التى أصابتها لعنة الاتجار فى العبيد بالجملة ·

كتب «ايهلى» عن الكونغو يقول : انحلت الروابط الاجتماعية وتحطم البناء كله ·· لقد كانت تجارة العبيد قائمة فى الكونغو قبل مجىء الرجل الابيض اليها وكانت تكون جزءا من الاطار الاجتماعى هناك ، ولكن بعد نمو هذه التجارة تحول امتلاك العبيد الى عملية صيد متوحشة ·· ومايقال عن الكونغو يمكن أن ينطبق على أماكن أخرى فى أفريقيـــة ·· ومن ثم نستطيع أن ندرك مدى الخراب والانهيار الذى أصاب بعض مناطق أفريقية التى تعرضت للعنة تجارة العبيد ·· بمقارنتها بمناطق أفريقيـــة أخرى لم تتعرض لهذه اللعنة ·· او بمقارنة الروايات الاوروبيـــة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ·· عندما كانت هذه التجارة فى بدايتهـــا بالروايات الاوربية نفسها بعد حوالى ثلثمائة أو اربعمائة سنة ·

عندما دخل البريطانيون بجيوشهم الى بنين سنة ١٨٩٧ كتب قائدهم الكوماندر بيكون يقول : ان وصف مدينة بنين بأنها مدينة الدماء وصف ينطبق عليها كل الانطباق ، فتاريخها ليس الا سفرا ضخما لعبودية هى أبشع أنواع العبودية ·· كانت الدماء فى كل مكان وعلى يمين مقر الملك كانت هناك شجرة تستخدم فى الصلب ربط عليها اثنان من الضـحايا وجهاهما الى الناحية الغربية وأيديهما مقيدة من الوسط · وتحت هـــذه الشجرة انتثرت جماجم وعظام بشرية تدل على آثار ضحايا آخرين · وعلى طول الطريق الرئيسى كانت هناك آثار ضحايا بشرية أخرى ·

وربما يظن القارىء عندما يقرأ هذه الروايات أن لعنة تجارة العبيد انما ترجع الى الافريقيين أنفسهم · فقد دأب الاستعمار الاوروبى على أن يثبت ذلك فى أذهان الافريقيين وأن يشعرهم بالذنب تجاه هذه المأســاة ولكن الحق يقال أن الذنب ليس ذنب الافريقيين وحدهم فليســـوا هم الذين بدأوا المأساة وانما بدأها ناس غرباء عنهم · ويزيد من عمق المأساة مانقرؤه فى كتابات الكثيرين من الاوربيين الذين كتبوا عن مشاهداتهم فى هذه المناطق ـ يقول باشيكو فى نهاية القرن الخامس عشر : لقد كنت هناك أربع مرات وكنا نبتاع العبيد فى مقابل اثنتى عشرة أو خمس عشرة قطعة من الأساور النحاسية لكل عبد · وبرغم كل هذه الروايات فقـد كانت هناك دول يسودها النظام مثل دولة بنين · ففى سنة ١٤٨٦ قام «أفونسو دافييرو» برحلة قصيرة للتجارة فى بلاد بنين لصالح ملك البرتغال ومات هناك ولكنه استطاع قبل موته أن يبعث بحمولة من الفلفـل كانت أول حمولة من نوعها تصل الى أوروبا من ساحل غينيا ويقول تقرير برتغالى وقد أرسلت منها عينات الى الفلاندرز وأماكن أخرى فى أوروبا فلقيت اقبالا كبيرا وبيعت بأسعار مرتفعة ·

وفى هذا الوقت نفسه أرسل ملك بنين سفيرا الى البرتغال لانه كان يرغب فى معرفة المزيد عن هذه الارض التى كان يرى فى وصول بعض أبنائها الى بلاده شيئا فريدا فى نوعه • وعندما عاد هذا السفير الى بنين أحضر معه هدايا من ملك البرتغال هى عدد من المبشرين الكاثوليك ووكلاء جدد لملك البرتغال كان عليهم أن يبقوا فى بنين لنقل الفلفل وغير ذلك من الاشياء •• وكانت تجارة العبيد لاتزال على قدر ضئيل من الأهمية •

ويتحدث تقرير برتغالى عن نجاح هؤلاء الوكلاء والمبشرين فى بنين فيقول : فى سنة ١٥١٦ على لسان ديواراتى بيرس عن هؤلاء الوكلاء أن مايحوطنا به ملك بنين من رعاية انما يعود الى حبه لجلالتكم وكل أرضه مفتوحة أمامنا "، ومن واقع التقرير نجد نموذجا للمسألة الافريقية والكرم وحسن الضيافة الذى أضفاه ملك بنين الافريقى على الوكلاء والمبشرين البرتغاليين لدرجة أنه وهب أبناءه وكثيرا من نبلاء مملكته للكنيسة المسيحية وأمر ببناء كنيسة فى بنين •

ومن الاهمية بمكان أن نقول أن هذه الروايات جميعا تبين أنه كانت هناك قوى قبلية كثيرة فى هذه المناطق يتحد بعضها مع بعض بصورة ما وتشتغل بصناعة المعادن وعلى قدر من الادراك الدينى • ففى ممالك الكونغو استطاع الاوربيون أن يقنعوا كثيرا من الملوك باعتناق المسيحية باغرائهم ببعض الألقاب التى لايمكن أن تضفى عليهم شيئا حقيقيا من النبالة بمثل ماتمثله بالنسبة للأوربيين ••

أما بالنسبة للتعميد فقد آمنت هذه الشعوب الافريقية دائما بقوة البيئة الواحدة تحكم مصائر العالم •• فلم يكن «الاله المسيحى» من هذه الناحية يختلف كثيرا عن الههم •

وكان نظام هذه الشعوب فى عمومه اقطاعيا •• الا أنه كان فى الحقيقة والجوهر قبليا ولم يكن معنى ذلك انه كان بدائيا •• ويجدر بنا ألا نخلط بين المجتمعات القبلية التى لاتزال تعيش فى أفريقيا حتى اليوم ــ ونعنى البدائية من الناحية التكنولوجية ــ بالمجتمعات الافريقية القديمة التى وصل اليها البرتغاليون وكانت قد تطورت فى عصر حديدى وكونت لنفسها تنظيمات اجتماعية وشقت طريقها الخاص بها نحو التطور •• ولا تعنى كلمة «البدائية» بالنسبة لهم أكثر مما كانت تعنيه هذه الكلمة بالنسبة لاوروبا فى هذا الزمن •

٣ ــ بنين :

عندما عادت بعثة الكشف فى بنين سنة ١٨٩٧ أحضرت معها كثيرا من الآثار الغريبة والطريفة « عدة مئات من التماثيل البرونزية تكاد تكون مصرية فى تصميمها » وقد تم لعثور بعد ذلك على كثير من هذه الآثار •• عثر عليها العالم الالمانى ليو فربينيوس ونسبها الى تراث القارة المفقودة اتلانتيس فى حين أن بعض الاوربيين كان يعتقد أن لها صلة بتراث الاغريق أو التراث الاوربى الذى وصل مع الاوربيين الاوائل الذين قدموا الى بنين •

وقد نسبها آخرون لعصر النهضه فى أوربا أو تأثيرات برتغالية . ولكن اكتشافات ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ والاكتشافات التى لا تزال تجرى حتى اليـوم أيدت جميعها ان هذه الآثار افريقية خالصه تم صنعها بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر وهى نتاج عصر ناتج لصناعة الحديد فى دول افرقية الغربية قبل قدوم الاوربيين .. وقد اكتشفت بعثة جودوين (سـنة ١٩٥٧) انواعا كثيرة من الآنيه الفخارية وعثر ويليت فى السنه نفسها على نحو ثلاثين ألف قطعه فخارية فى موقع بالقرب من يوروبا « ولـكن دراستها لم تتم بعد حتى نستطيع أن نستخلص أساليب الحياة التى كانت سائدة فى وقت صنعها .. ويبدو أن المجتمعات التى تعيش الآن فى نيجيريا الجنوبية والتى تتميز بفنها وعقائدها تقف فى منتصف الطريق بين تأثيرات افريقيا الغربية وتأثيرات آخرى قادمة من الشمال والشرق .. ولقد كان الاعتقاد سائدا بأن هذه الآثار والاعمال الفنيه ليست الا شيئا عارضا ، ولكن يبدو الان خطأ هذا الرأى .. وتأكيد أنها كانت نتيجة للتقدم الحضارى فى هذه المناطق .. وأيد هذا الرأى اكتشافات برنارد فاج فى هذه المناطق فى ابيرى التى تبعد عشرة أميال عن آيف حيث عثر على رءوس من الفخار على جانب كبير من دقة الصنع . بيد أننا لا نعـرف الكثير حتى الآن عن الروابط ـ ان وجدت ـ بين فن نوك وفن « جفى » كما أننا لا نعرف الكثير عن التأثيرات الخارجية الاخرى ..

ويقول شعب يوروبا .. وما يجاوره من الشعوب الزنجية ان أسلافهم قدموا من الشرق .. بل أن بيوباكو يعتقد انهم قدمـوا من منطقة كانت تحت تأثير المصريين القدماء .. أو من شعوب فى الشرق الادنى .. وحدد هجراتهم من هناك بأنها حدثت بين عامى ٦٠٠ ، ١٠٠٠ بعد الميلاد .

والحق يقال انه لا يمكن أن نغفل التأثير الشرقى فى حضارة يوروبا .. فقد كتب أحد البحارة البرتغاليين سنة ١٥٤٠ عن ساحل غينيا .. وبوجه خاص عن بنين والكونغو فقـال « ان الرعايا يعبدون ملوكهم ويعتقدون انهم جاءوا من السماء ... وهم يعبـدون الشمس ويعتقدون أن الارواح خالدة وانها تعود الى الشمس بعد الموت » وبالرغم من أن آلهة المصريين القدماء وآلهه كوش كانت تتعرض للتغيير فى افريقية القـديمة جنوبى النيل وغربيه الا أن أصداء الملكية الكوشية الالهية تبدو واضـحة هنا وضوحا كافيا .

يضاف الى ذلك ان اله يوروبا القومى ويسمى شانجو كان يرتدى قناع الكبش وهذا يذكرنا بأصل مصرى أو كوشى قديم .

ولا نستطيع أن ننكر ان الفن فى آيف « وبنين » كما هو فى مراكز الحضارة المبكرة فى افريقيا ـ كان يستخدم البرونز والنحاس بكثرة ـ وبوسائل كانت تستخدم فى وادى النيل . وتبدو هذه الآثار المكتشفة بكامل رونقها كما لو كانت قد استوردت فجأة .. الا أنه يبـدو أن فن آيف قد وصل الى قمته فى القرن الثالث عشر بعد ألف سنه من انهيـار ميرو .. وبذلك يرجع الغموض فى تفسيرها الى عدم اكتشاف آثار أخرى سابقة عليها .. وقد كانت هذه الفنون ـ كما كانت مجتمعاتهـا ـ قادرة ومعقدة ولها تراثها الخاص الذى نما وتطور مع حضارة عصر الحديد فى هذه الاراضى التى تقع بعد الغابات .. وبعد الاطراف الجنوبيـة لسهول

السفانا •• وبرغم ان لها مكانتها المتميزة •• الا انه لا يمكن فصلها عن أصولها التى رعتها فى البداية •

٤ ـ الوحدة خلف التفرق :

ما زلنا فى بدايه محاولتنا لتفهم ما تعنيه حضـــارة « نوك » فمن سنوات قلائل فقط بدأت الابحاث عن شعوب ساو فى منطقه بحيرة تشاد وقد تم العثور على القناع الذهبى الشهير لأحد ملوك الاشانتى وهو الموجود حاليا بلندن ضمن مجموعة والاس •• وهذا القناع ليس الا انموذجا اخر لصناعة معدنية غاية فى الدقه لابد أنها تنتمى الى تراث حضارى متنوع وقوى • واذا أضفنا الى هذا القناع أقنعة أخرى عثر عليهـــا فى بادولى وصناعات الخشب المحفور فى افريقيه الاستوائية والصناعات الخشبية والمعدنيه فى بامبارا بأعالى النيجر أدركنا أنها جميعا نتاج أفريقى يعكس طبيعة الحياة التى يعيش فيها هدا الفن والذى يجعل من هذه الاماكن عالما خاصا بأصحابها •

صحيح أن أصحاب هذه الآثار الفنيه اســتخدموا كثيرا من فنون غيرهم ولكن الصحيح أيضا انهم استحدثوا جانبا كبيرا من هــذه الفنون فكثير من آثار نوك تكشف عن أصالة افريقية خالصة لا دخل فيها لأى تأثير أجنبى • نذكر منها على سبيل المثال الرأس الغريب الذى عثر عليه فى « جما » وصور ساو وكوتوكو وصورة الرجل والمرأة الجالســين والمرسومة على الصخور فى « سفار » بجبال تاسيلى والتى يعود تاريخهـا الى زمن بعيد جدا قبل أن يظهر الى الوجود أول ملك مصرى قديم •

على أن هناك كثيرا من العادات التى كانت سائدة فى هــذه المنطقة نرى مثلها فى مناطق أخرى من القارة الافريقية • وان كنا لا نستطيع بحال من الاحوال أن نعرف أصل هذه العادات ولا طريقة انتقالها اذا كانت قد انتقلت • فهناك مثلا ذلك الشعار المميز على الجبهة والذى يعتبره أهالى شمال أثيوبيا علامة على النبالة •• هذا التقليد نفسه نراه فى شـــعوب آيف وبنين • وهنا نتساءل هـل سار كل من الشعبين على هذا التقليد دون أن يتأثر بالآخر ؟ أو أن هذا التقليد انتقل الى كلا الشعبين عن طريق ملوك مرو ، هذا سؤال لا يمكن الاجابة عنه بصورة مؤكدة • وان كان هذا لا يعنى بحال من الاحوال ان حضارة نوك كانت حضارة غير أصيلة •

الفصل الخامس

نحو الجنوب

١ ـ زنج الجنوب

فى سنة ٩١٢ أخذ البحارة العمانيون الذين كانوا يبحرون فى « الامواج العمياء » لبحار شرق افريقيا فى القرون الوسطى .. أخذوا معهم مسافرا على قدر كبير من الاهمية كانت رحلاته المتعددة فى هذه المنطقة من البحار ، حيث الخلجان العميقة بين الجبال الشاهقه ، رحلات ذات صدى بعيد فى هذه الايام .

سافر هذا الرجل مع العمانيين على طول الساحل الشرقى لافريقيا .. وربما سافر على ظهر سفينة من سفن التجارة الى مدغشقر .. ثم عاد مرة أخرى الى عمان آخذا الطريق نفسه الذى سلكه فى سفره بعد ثلاثة أعوام من بدء رحلته .. ولكنه قام برحلات أخرى متعددة قبل أن يستقر به المقام فى الفسطاط (القاهرة القديمة) ليضع كتبه الشهيرة التى كتب آخرها سنة ٩٥٥ ثم توفى بعد ذلك بسنه واحدة .. هذا الرجل هو عبد الحسن بن حسين بن على المسعودى .. الذى يعتبر بحق أشهر رحالة فى عالم القرون الوسطى .. والذى قال عنه ابن خلدون بعد موته بأربعة قرون انه كان نموذجا رائعا للمؤرخين والثقات الذين اعتمدوا عليه فى ميدان عملهم .

ولد المسعودى فى بغداد من احدى أسر الحجاز فى نهاية القرن التاسع الميلادى وظل يدرس ويقوم برحلاته الشهيرة طيلة أربعين عاما قبل أن يضع كتابه الخالد « مروج الذهب » الذى أتم كتابته سنة ٩٤٧ والذى ترجم الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٨٦٤ والى الانجليزيه فى سنة ١٨٤١ ..

ويعتبر « مروج الذهب » أروع كتب الرحلات فى القرون الوسطى فقد كتب المسعودى تفصيلات رائعة لرحلاته التى قام بها فى ساحل افريقية الشرقى .. مثلما فعل البكرى بعده بثلثمائة سنة حين كتب عن رحلاته الى ممالك السودان القديم فى منتصف القرن الحادى عشر .. وفى هذا الكتاب « مروج الذهب » يكشف المسعودى تاريخ شرق أفريقية فى تفصيلات رائعة متماسكة فى السنين نفسها التى بلغت فيها دولة غانا فى السودان الغربى أوج عظمتها .. والتى شهدت كذلك بداية ظهور امبراطورية مالى ودولة مدينة آيف .. فى هذه السنين نفسها كان العرب يعرفون سكان ساحل افريقية الشرقى .. بأنهم « الزنج » .. الذين يعيشون فيما وراء أرض الاحباش والذين وصفهم المسعودى نفسه بأنهم قبائل عدة من السود تضم فيما تضم قبائل من « البرابرة » وهو لفظ يدل على أن

المسعودى لم يفرق بين « الزنج » الذين يمكن أن يطلق عليهم اليوم لفظ الحاميين « الزنج » الذين هم من أصل زنجى ..

ولفظة الزنج هذه ربما ترجع الى أصل فارسى . وما زالت «زنجبار» تحمل هذا اللفظ الذى أطلقه العرب على سكان الساحل الشرقى لافريقيـة من السود ..

ويقول المسعودى ان هؤلاء الزنج يعيشون فى أرض يبلغ امتـدادها سبعمائة فرسخ (حوالى ٢٥٠٠ ميل) أو المســافة بين القرن الافــريقى وموزمبيق على وجه التقريب .. أرض تضم سهولا وجبالا وصحارى مليئة بالأفيال وتمتد الى أقصى الجنوب حتى أرض سوفالا بالقرب من بيرا الحالية بموزمبيق التى تعتبر أقصى الحدود لهذه الارض وصـــل اليها بحارة عمان وسيراف ...

وقد تعود الكتاب العرب أن يتحدثوا عن الأرض فيما وراء «سوفالا» فيصفوها بأنها « بلاد واق ـ الواق » التى ربما كانوا يعنون بها اقليم ناتال الحالى . والواقع ان بعض هؤلاء الزنج الذين تحدث عنهم المسعودى لا بد أن يكونوا ـ كما سنرى فيما بعد ـ هم أسلاف الشــعوب السواحليـة والشعوب الحامية ولكن البعض الآخر يبدو كما لو كانوا أسلاف البانتو الذين تحتل سلالاتهم جانبا كبيرا من الساحل والداخل .. ويعتبر من أهم ما كتبه المسعودى فى هذا الصدد الجزء الخاص بمملكة واكيليمى ، فهى أول اشارة ولا شك نحو تطور مجتمعات عصر الحديد فى جنوب افريقيا .. وهى أول اشارة تاريخية لمناجم روديسيا .. فلا شك أن زنج مملكة « واكيليمى » هم أولئك الذين بنوا عاصمتهم فى أقصى الجنوب من أرض سوفالا .. التى تنتج الذهب بكثرة فائقة « كما يقول المسعودى .. وهو لا يحدد بالضبط مكان هذه العاصمة وان كان ابن سعيد قد حددها بعد المسعودى بمائتى عام بأنها مدينة « سيينا » التى اكتشفها البرتغاليون أخيرا على نحو ١٥٠ ميلا على نهر الزامبيرى ... والتى قال عنها الإدريسى فى هذا التاريخ نفسه انها « على حدود أرض سوفالا » مما يجعلنا نعتقد أن عاصفة « زنج الجنوب » على أيام المسعودى كانت تقع على أدنى نهر الزامبيرى .

متى بنيت هذه المدينة ؟ ان المسعودى لا يورد شيئا فى هذا الصدد .. ولكنه يذكر أنها بنيت قبل أيامه بزمن بعيد .. وأن الزنج بعد أن بنوها اختاروا لهم ملكا أسموه « واكيليمى » .. كان يبسط سيطرته على كل ملوك الزنج وأنه كان يملك ثلثمائة ألف فارس .. وهو قول من قبيـــل خيال الكتاب .. لأن المسعودى نفسه يقرر بعد ذلك بسطور قليلــة أن هؤلاء الزنج يستخدمون الثيران لان أرضهم خالية من الجيـــاد والبغـال والجمال .. بل انهم لا يعرفون شيئا عن مثل هذه الحيوانات .

وبعد ثلثمائة عام نرى فى كتــابات العرب أول اشــارة الى ثلوج « كليمنجارو » فيما كتبه أبو الفداء بعد المسعودى بثلثمائة عام .

ومن وصف المسعودى لهؤلاء الزنج نعرف انهم كانوا صـنـاعا مهرة للمعادن وتجارا ذوى نشاط يصطادون الفيلة من أجل التجارة فى العاج

.. وانهم كانوا شديدى السواد غليظى الشفاه يقدرون الحديد أكثر من الذهب ويعتمدون فى طعامهم على نباتى الدريورا (وهو نبات يشبه القمح) والكالازى (وهو نوع من الدرنات) ويأكلون الموز والعسل واللحوم وجوز الهند الذى كان ينمو عندهم بكثرة .. وأنهم كانوا خطباء ممتازين لهم عقائدهم الدينية الخاصة ... فكل هذا يؤكد اقامتهم الطويلة فى هذه المناطق التى مارسوا فيها الزراعة ورعى الماشية والتجارة وعرفوا صهر المعادن وصناعتها . ويعتبر فى الوقت نفسه اشارة مقنعة لعصر الحديد المتقدم فى شرقى وجنوب شرق افريقيا وهى حضارة بدأت الحفريات تكشف عنها الستار بعد حوالى ألف سنة ..

ولكن هناك شيئا أهم من ذلك بكثير .. ان التفصيلات التى ذكرها المسعودى عن هذه المناطق تكشف عن حياة مادية وروحية لشعوبها ... انتقلت معهم حيث انتقلوا هم داخل القارة .. وتكشف عن أفكار وأساليب فى الحياة كان مثلها موجودا هنا وهناك فى مناطق أخرى من العالم ... انها حضارة انتشرت مع انتشار الهجرات ... ولا بد أن نمحص فيها البحث لأنها تعتبر ولا شك مفتاحا لتفهم التاريخ الافريقى ..

لنقارن مثلا بين ما كتبه المسعودى عن القيم التى كانت سائدة لدى « زنج » الجنوب وبين ما كتبه أحد علماء الاجناس عن شعوب السودان الجنوبى اليوم ، ويقول المسعودى عن زنج جنوب شرقى افريقيا انه ليس لديهم عقائد ثابتة وان كل واحد منهم يستطيع أن يعبد مايشاء سواء كان نباتا أو حيوانا أو معدنا .. وانهم كانوا يؤمنون بالملكية المقدسة .. فكلمة واكيليمى كانت تعنى لديهم .. ابن الاله الاعظم .. وهم انما أطلقوا على ملكهم هذا الاسم لكى يحكمهم بالعدل فقد كانوا يقتلونه اذا جار عليهم فى حكمه .

تعالوا بنا الآن نقرأ ما كتبه البروفيسور ايفانس ريتشارد عن « الشيلوك » فى السودان الجنوبى بعد ذلك بألف عام والشيلوك هم من بين هذه الشعوب السوداء التى أطلق عليها العرب لفظة « الزنج » ويبلغ عددهم مائة وعشرة آلاف يسكنون الضفة الغربية من النيل الابيض بالقرب من مدينة الملاكال .. ويختارون عليهم ملكا يعتقدون انه ملك مقدس ولا يفترقون فى ذلك عما كان يعتقده « زنج » المسعودى فى ملكهم .. ويذكر البروفيسور ايفانز أن هؤلاء الشيلوك يعتقدون انهم ينتمون الى «نايبكانج» زعيمهم فى عصورهم الخالدة التى قادهم الى أرضهم الحالية ... والذى تنتقل روحه من ملك الى ملك . كما يذكر أيضا أن الشيلوك يقتلون ملكهم اذا ساء الحكم فيهم .. ومثلما يقول المسعودى آن الزنج يختارون ملكهم لكى يحكمهم بالعدل .. يقول ايفانز أن الشيلوك ينتخبون ملكهم « لأن الملكة تخص الشعب كله .. ولا تخص الفرع الملكى وحده » ..

ولا ينبغى أن يفهم من هذه المقارنة « أن هناك صلة ما بين « زنج » المسعودى وشيلوك ايفانز .. فهؤلاء الشيلوك ليسوا الا شعبا حديثا . لا يمكن أن يعود الى أولئك الزنج ..

ولكن هذه المقارنة انما تعنى ولا شك أن انتشار الشعوب الافريقية

فى المناطق الجنوبية فى افريقية كان تطورا عضويا له قوانينــــه وأفكاره وحركته الذاتية ٠٠ وقدرته البالغة على التمدين ٠٠ وأن كل هذا لا يزال باقيا قويا بما يكفى لان يمكننا من دراسة الماضى الافريقى ــ على الاقل لدرجة ما ــ من خلال الحاضر الافريقى ٠٠

٢ ــ اكتشافات كالامبوز :

ان تطور افريقية الجنـــوبية من العصر الحجرى القديم الى العصر الحجرى الحديث الى عصر الحديد ليس واضحا كل الوضوح ٠ فاذا كانت هناك معلومات وافرة عن الشعوب التى كانت تعيش على القنص وصـــيد الاسماك وجمع طعامها من هنا أو هناك فالمعلومات قليلة للغاية عن الشعوب التى مارست الزراعة قبل أن تعرف طريقة استخدام المعادن ٠٠ ربما عاد عصر الزراعة فى هذه الشعوب الى ألف عام قبل الميلاد ٠ ولدينا اشارات ضئيلة عن حضارات انتقالية قبل هذا العصر ٠ وأقدم ما عرفنا من هــذه الحضارات الانتقالية ما أثبتته اكتشافات الزوجين «ليكى» فى تل هيراكليس بكينيا التى ترجع الى ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد ٠ ويبدو أن حضارات انتقالية كهذه وجدت فيما يعرف الآن بروديسيا والتى أثبت اختبار آثارها بالوسائل الراديوكربونية انها تعود الى ٤٠٠٠ عام قبل الميلاد ٠ حضـــارات عرف أصحابها تلوين الحجارة واستخدام العصى الثقيلة والادوات الحجــرية أو المصنوعة من العظام المصقوله ٠

وقد كان الاعتقاد سائدا حتى عام أو أكثر قليلا أن عصر تصنيـــع الحديد فى افريقية الجنوبية لم يبدأ الا مع القرون الاولى لانتشار المسيحية ٠٠ ولكن العالم « كلارك » عثر فى بادوتسلاند بروديسيا الجنوبية الغربية على أدوات مصنوعة من الحديد عادت تحت الكشف الراديوكربونى الى ٩٠ عاما فقط بعد الميلاد ٠ وعندما بدأ كلارك أبحاثه فى الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا عند شلالات كالامبو ٠ اتضح أن ماعثر عليه هناك من آثار حديدية تعود الى ١٥٠٠ سنة مضت ٠ وأن العصر الحجرى لهذه المنـاطق يعود الى ٣٦٠٠٠ سنة مضت ٠ ومن الطبيعى اذن والامر كما نرى ٠٠ ان الشعوب فى منطقة كالامبو قد تابعت حياتها هناك وهى تنتقل من مستوى لآخر حتى استخدمت الحديد مما يجعلنا نؤكد أن ظهور الحديد فى افريقية الجنوبية الوسطى كان مشابها فى تاريخه لظهوره فى حزام الغابات بغربى افريقية وليس بعده بكثير ٠ فنحن نرى من كتابات المسعودى عن الشعوب التى تسكن أدنى حوض الزامبيرى أنها كانت شعوبا ناميه تأخذ بأسباب حضـــارة عصر الحديد ٠٠ وهو نفس ما يصدق من واقع الاكتشـــافات الاخرى على غيرها من شعوب الداخل ٠٠ وهذا أمر يثبت بالضرورة ان هــذه الشعوب جميعا قد صادفتها الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى خرجت بهـــا من العصور الحجرية ٠٠ وانها لم تعرف معدنا آخر قبل الحديد ٠٠ الذهب أو النحاس مثلا ٠٠ وأنها تختلف فى ذلك عن كثير من الشعوب التى عرفت صناعات معدنية أخرى مثل صناعة الحديد ٠ وان كان البعض يعتقـد أن بعض شعوب هذه المنطقة ٠٠ كالهوتنتوت قد عرفت صناعة الذهب والنحاس على نطاق ضيق قبل عصرها الحديدى ٠٠ وان كان هذا لم يؤد الى أية تغييرات

اجتماعية أو اقتصادية مثل تلك التى أحدثها استخدام الحديد ٠٠ والتى تدلنا عليها كتابات المسعودى ٠

٣ ـ أسس الحضارة الجنوبية :

كتب الادريسي وصفه لساحل افريقية الشرقى حوالى سنة ١١٥٤ بعد كتابات المسعودى بنحو مائتى عام ٠٠ واهم ما ينبغى ان نلاحظه فى وصف الادريسى هو انه ركز اهتمامه الكبير ٠٠ ليس على الذهب او العاج اللذين كانا بعض تجارة هذه الاقاليم ٠٠٠ ولكنه ركزه على الحديد حيث كان عنصرا على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للتجارة وازدهارها فهو مصدر الثورة هناك مما يثبت أن التجارة فى المحيط الهندى كانت ولاشك عاملا هاما فى تطوير ساحل افريقية الشرقى ٠ برغم ان الادريسى لم يشر الى مالندى او مدينه « الزنج » فقد كانت هذه المدينة مركزا لتجارة خام الحديد ٠ ومركزا لمناجمه ٠ وكان أهلوها يربحون ارباحا وافرة من وراء تجارتهم فيها ولكن الادريسى يشير الى « ممباسا » باعتبارها مركزا آخر لتجارة الحديد وهى اشارة واضحة الى أن شعوب الساحل الافريقى الشرقى كانوا من قبل ايام الادريسى على صلات تجارية وثيقة بشعوب الداخل فيما بعد الساحل ويشير الادريسى الى انه برغم شهرة الاجزاء الجنوبيه من أرض سوفالا بالذهب الا أن التجار لا يهتمون به هناك قدر اهتمامهم بالحديد ٠ بل ان الناس فى مدينتى « دندمة وشنتمة » (ربما كويليمان وشندى ؟) يعتمدون فى حياتهم اعتمادا كليا على تجارة الحديد كما يشير أيضا الى أن هناك كثيرا من مناجم الحديد فى جبال سوفالا والى أن التجار كانوا يأتون من مناطق بعيدة لشراء حديد هذه المنطقة .. من الهند مثلا حيث كان الهنود يصنعون من حديد سوفالا أجود أنواع السيوف فى العالم ٠ والتى كانت مادتها من الصلب فى العصور الوسطى تصدر الى دمشق حيث كان صناع دمشق من العرب المهرة يصوغون فيها أجمل سيوف العالم وأسلحته التى قابلوا بها الصليبيين يوما ما ٠

ولقد أدى عصر الحديد بهذه الاجزاء الجنوبية الشرقية من القارة الافريقية الى نوع جديد من المجتمعات والمدنية على طول الساحل والى الداخل منه وهو ما سنفسره فيما بعد على أساس ما تم من حفريات مجتمعات كانت التجارة سببا فى قيامها وتطورها ونهوضها وهنا يجدر بنا أن نقول انه مثلما كانت تجارة غرب افريقيا مع كوش وقرطاجنة والشمال الافريقى عموما سببا فى تطوره فان الصلات التجارية لافريقيا الجنوبية ـ مع كوش أيضا ـ وربما مع غرب افريقيا نفسها وبالاخص مع تجارة المحيط الهندى كانت من أهم عوامل تطورها ونمائها ٠

الفصل السادس

تجار المحيط الهندى

١ ـ مدن سبأ :

حوالى سنة ١٥٠٠ كتب « دورات باربوذا » الذى رافق واحدا من أول الاساطيل البرتغالية الى الهند يقول ان شعوب الشاطىء الشرقى لافريقيا كانوا يبيعون الذهب والعاج والشمع ، لتجار مملكة كامباى الذين يجنون من وراء هذه التجارة أرباحا عظيمة . وقد اسالت هذه الارباح فى هذه الاوقات لعاب البرتغاليين وجعلوا الاستحواذ عليها هدفا من اهداف الملاحة البرتغالية . .

كانت هذه التجارة بالنسبة للبرتغاليين شيئا جديدا ومثيرا . ولكنها كانت فى الواقع شيئا قديما يمتد الى أعماق التاريخ ... فقد كانت بعثات المصريين القدماء فى عصور الاسر الوسيطة تذهب الى هذه المناطق من اجل هذه الاصناف نفسها التى كان يجرى الاتجار فيها أيام البرتغاليين . وقبل باربوذا بنحو خمسة قرون كان تجار مملكة حيرام يخوض البحر الابيض يجلبون الذهب من « أوفير » (الطرف الجنوبى من شبه جزيرة العرب) والتى كانت تعتبر فى الواقع امتدادا لهذه المناطق التجارية ... وكانت اساطيل الملك سليمان تفد الى هذه الاسواق التجارية فتعود بالذهب والفضة والعاج والقرود والطواويس . بحيث فاق سليمان كل ملوك الارض فى الغنى والحكمة والتاريخ يقص لنا حمولات الذهب والاحجار الكريمة التى بعثت بها بلقيس ملكة سبأ للملك سليمان والتى تشير الى الثروات الطائلة التى كان يجنيها تجار اوفير من وراء اتجارهم فى تلك المناطق الساحلية من افريقيا .

وقد ذكر اجافيدس السكندرى فى سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، انه ليس هناك فى العالم من هو أغنى من أبناء الدولتين « جيرهاين وسبأ » لانهما كانتا على حد قوله « فى مركز التقاء كل التجارة العابرة بين آسيا وافريقيا .

وقد ازداد العرب رخاء طيلة الفى سنة كاملة . وظلت شهرة هذا الرخاء قائمة حتى القرن العاشر الميلادى فيما كتبه الحمدانى احد كتاب مدينة صنعاء العاصمة القديمة لسبأ .. فى وصف بلاده التى يعرفها الناس جميعا كأحد جنات الارض .. والتى تزخر بالقصور والحصون والخضر والفاكهة ... والتى تظل جماعات بيوتها ودورات مياهها نظيفة من قرن لآخر .

وقد كتب ابن بطوطة بعد ذلك بأربعة قرون يصف مدينة زبير بأنها ثانية المدن المزدهرة الغنية فى اليمن بعد صنعاء وبأن سكانها كانوا طوال القامة على جانب من الوسامة وان نساءها على قدر بالغ من الجمال وأنهم جميعا ذوو أخلاق كريمة .

ثم تمضي السنون ... وتختفى هذه الحضارة . وتظل اليمن فى التاريخ مثالا لاعظم دول العالم حضارة فى العصر القديم .

هذه التجارة التى ازدهرت بسببها المناطق الشرقية للساحل الافريقى لم تكن تجارة همجية ولكنها كانت تجارة منظمة ناجحة منذ أيام ملكة سبأ وربما قبل أيامها بكثير .. ومع بداية القرن الأول الميلادى عرف ملاحو البحر الاحمر هذه المناطق الساحلية التى تضم مايعرف الآن بالصومال وكينيا وتنجانيقا بأنها مناطق الساحل الاوزانى «نسبة الى دولة أوزان العربية التى انتهت قبل الميلاد بستة قرون والتى تلتها دولة قضبان ثم دولة سبأ والحميريون قبل أن يسيطر عليها بطالمة مصر والرومان بعدهم . مما جعل تجارة جنوب البحر الاحمر تقع تحت سيطرة آكسوم حتى بدء السيطرة عليها التى استمرت الى عام ١٤٩٨ حين بدأ البرتغاليون يحلون محلهم فى هذه السيطرة .

وهنا يجدر بنا أن نقرر أن تاريخ شرقى وجنوب شرقى افريقيا قد تأثر بعاملين هامين : الاول نمو ولايات الهند الغربية وسيلان واندونيسيا والصين والآخر ، هو التقدم الفنى المطرد فى وسائل الملاحة .

٢ ــ الملاحة ... الى داخل افريقيا :

يقال أن اول ملاح عبر المحيط الهندى هو ملاح اغريقى سكيلاكس ابحر لمياه البحر الاحمر سنة ٥١٠ قبل الميلاد من مياه جزر الهند . ثم تبعه آخرون من بينهم نيرخوس ملاح الاسكندر الشهير الذى أبحر من المنطقة نفسها الى البحر الاحمر ثم عاد من الطريق نفسه سنة ٣٢٧ ــ ٢٦ قبل الميلاد . ولابد أن كثيرين غيرهم ومن أمم مختلفة قد سلكوا هذا الطريق نفسه متتبعين الساحل ومتنقلين فى بطء من ميناء لميناء حتى بدءوا يتعلمون اجتياز الركن الجنوبى من المحيط مستعينين بسفن أكثر جودة عابرين المياه التى تقع بين غربى الهند وجنوبى الجزيرة العربية آخذين طريقهم فى الوقت نفسه الى شواطىء افريقيا . ومن ثم بدأت الاسكندرية وروما تعرف مزيدا من المعلومات عن الساحل الافريقى . وقد كتب احد ملاحى الاسكندرية فى هذا الصدد الكتاب المشهور بيريبلوس يصف فيه طرق التجارة التى لابد ان يكون الكثيرون من قبله قد استخدموها .

ويتحدث عن التجارة فى الساحل الافريقى فيقول :

« ان هذه البلاد لا يحكمها حاكم معين فكل مدينة من مدن التجارة هناك يحكمها رئيس خاص بها .

وقد كان بعض هؤلاء الرؤساء مستقلين وغير خاضعين لسيطرة

احد فى حين كان بعضهم الآخر خاضعا لسيطرة الحميريين فى جنوبى الجزيرة العربية .

وكانوا يستوردون الآلات والاسلحه الحديدية المصنوعة فى ميوزا على ساحل البحر الاحمر . ترى هل كانوا هم انفسهم على دراية بصناعة الاسلحة ؟ ان كتاب بيريبلوس لا يعطينا اجابة شافية عن هذا السؤال . وان كان من المعتقد أن ذلك لم يكن فى مقدورهم على ايام صاحب هذا الكتاب . فلم تبدأ صناعة الحديد فى « كالامبو » مثلا (بقرب روديسيا) الا مع بداية الستين سنة التى سبقت مولد المسيح . . . .

ويتابع بيريبلوس حديثه قائلا « فى هذه الاسواق (اسواق كينيا وتنجانيقا) كانت تباع الحراب والخناجر والمطارق والفئوس الحديدية والآنية الزجاجية والنبيذ والشعير . وكانت تصدر العاج والقرون والاصواف وزيت النخيل ... »

ولابد أن هذه التجارة كانت تمتد الى ماوراء منطقة الساحل .. الى الداخل ناحية الجنوب . فالى اى مدى كان يصل هذا الامتداد ؟ ..

ربما استطعنا الاجابة عن هذا السؤال اذا بحثنا اكتشافات العالم الاثرى البريطانى جيرفاس ماثيو فى تنجانيقا سنة ١٩٥٠ .

فقد وجد جيرفاس آثارا تدل على أنه كان هناك مركز من مراكز التجارة الداخلية بالقرب من « كيلوا » وفى « سنجومفارا » استطاع مايفو أن يكتشف آفاقا رائعة لهذه التجارة التى كانت تنمو على نطاق واسع . فقد عثر هناك على مصنوعات زجاجية لابد انها من سيام وقطع من الخزف الصينى يرجع تاريخها من أواخر عصر سونج الى أوائل عهد مينج ، ١١٢٧/١٤٥٠ وعثر على عملات نقدية فى هذه المجموعة نفسها من الجزء صكت فى العراق وفارس وعلى بعض الاحجار الهندية الكريمة ، وعلى قطع أخرى من العنبر والكريستال والتوپان . ولقد كانت هذه المدن القديمة قبل « كيلوا » و «كيسيوانى» و « سنجومنارا » و « سانجيه ياكاتى » و « كووا » فى طى النسيان لعهد قريب جدا حتى أثبتت هذه الاكتشافات انها كانت على درجة كبيرة جدا من الاهمية التجارية فى العصور الوسطى .

٣ ـ طبيعة هذه التجارة :

يقول كتاب « بيريبلوس » ان أبناء موانى « قارة آزانيا » ـ كينيا وتنجانيقا ـ كانوا أشبه بالقراصنة فى عاداتهم ـ أقوياء البنية ينضمون تحت ألوية رؤساء مختلفين فى اماكن مختلفة ـ وان الساحل نفسه كان يخضع لسيطرة بعض الاجزاء الجنوبية للجزيرة العربية استنادا لبعض الحقوق القديمة التى تخول لهم استعمار هذه الجهات ـ هذه الاجزاء التى كانت مقرا لامراء الاوزان وقطبان وسبأ وحمير .

وفى العصر الذى ظهر فيه بيريبلوس كان الحميريون هم الذين

يسيطرون على هذه الجهات من الساحل الافريقى . ومن ثم كان تجار ميوذا الحميريون « يبعثون بسفنهم الضخمة التى يقودها قباطنة من العرب وسماسرة يعرفهم أهالى هذه الجهات ويعرفون كل شبر فى هذا الساحل ويجيدون لغة أبنائه . وهذا كله يثبت أن صلات موغلة فى القدم نمتها التجارة وربطت بين العرب والافريقيين فى هذه المناطق الساحلية الشرقية من افريقيا . وعندما جاء الاوربيون لاول مرة الى هذه المناطق الساحلية منذ حوالى خمسة قرون مضت وجدوا أن الحضارة التى نشأت عن هذه الصلات كانت لاتزال موجودة واضحة فى لغة السواحيلى - التى تعنى باللغة العربية - الشاطىء

وهذه اللغة السواحلية مثل الثقافة السواحيلية ليست نتاجا عربيا متأفرقا ولكنها كانت ولا تزال نتاجا افريقيا مستعربا .

فأسسها وعناصرها تتصل اتصالا مباشرا بلغات البانتو الافريقية وان كان قد لحقها تأثير عربى كبير نتيجة قرون طويلة من التجارة والاستقرار .

ولقد نشأ عن هذا التأثير الحروب الدينية فالقبلية فى جزيرة العرب خلال القرن السابع والثامن حيث زخرت مدن التجارة بسواحل الصومال وبكينيا بل وبتنجانيقا نفسها بآلاف المهاجرين العرب - مما أدى بمرور الزمن الى اصطباغ هذه الثقافة الافريقية بالصبغة الاسلامية .

وفى القرن العاشر - كما يؤكد لنا ماكتبه المسعودى - كان العرب قد فرضوا انفسهم بعيدا حتى الشمال الى سوفالا بمملكة واكيليمى فى الوقت نفسه الذى فرضوا فيه أنفسهم فى أماكن أخرى بآسيا مثل جنوبى الصين والملايو وبعض موانى الهند وسيلان . ومن ثم كانت السفن المحملة تبحر مابين الصين وافريقيا متنقلة من ميناء الى ميناء يتلقف صناعتها قوم اثر آخرين من أصحاب التجارة حتى أصبح المحيط بالجملة مرتبطا بشبكة متداخلة من الخطوط البحرية التجارية ومن ثم أيضا لا يستغرب أن تكون « سنجومنارا » ، « كيلوا » قد عرفتا الخزف الصينى من شكيانج والحجارة الكريمة من سيام كما أثبتت اكتشافات ماثيو .

ولكن الهند - فى الواقع - هى التى ظلت بالنسبة لشرق افريقيا تمثل أهم سوق للتجارة - فقد عرفت ولاشك - المنسوجات الهندية وغيرها من البضائع فى سواحل افريقية الشرقية وظلت الحضارة النامية لغربى وجنوبى الهند تؤثر فى هذه المناطق الافريقية لمئات من السنين وربما أوضحت لنا الاكتشافات المتوقعة فى المستقبل مدى هذا التأثير .

وقد أوضح الادريسى الى اى مدى كان اهتمام الهند باستيراد الحديد الافريقى . كما أوضح أيضا ان الهنود كانوا يستوردون العاج وأن هذه الاصناف من التجارة كانت تذهب أولا الى عمان ومن ثم الى الصين والهند . وقد كان أباطرة الصين ونبلاؤها وقوادها يستعملون

المقاعد العاجية . وكذلك كانت الحال فى الهند حيث الهنود يستخدمون العاج فى صنع مقابض السيوف والخناجر وقطع الشطرنج . وكان الذهب أيضا يمثل جانبا هاما من هذه التجارة . الى جانب اصناف السلاحف وتجارة العبيد الذين كان اكثرهم يباعون فى العراق . والتار يذكر لنا أن هؤلاء العبيد قاموا بثورات متعددة فى هذه المنطقة استمرت أكثر من مائتى عام وهى التى تعرف بثورات الزنج .

٤ – الصين وافريقيا :

كانت السفن الصينية التى تبحر من بحر الصين جنوبا متجهة الى افريقية نتيجة خبرة قرون عدة استمرت أكثر من ألف عام . فالتاريخ يروى أن حاجا صينيا يدعى « فاهسين » وكان يسافر لزيارة أحد الاضرحة البوذية بالهند قد قام برحلته هذه سنة ٤١٣ وأنه وصل الى الهند عبر التركستان مخترقا الجبال الثلجية الكثيرة فى الشمال ولكنه قرر أن يعود الى الصين عن طريق البحر . فظل فى عودته أربعة عشر يوما لكى يصل الى سيلان قادما من جانجز وبقى هناك فترة من الزمن لكى يرى « سن بوذا » وغير ذلك من العجائب التى كانت ذائعة الصيت فى هذه البلاد ثم تابع رحلته بعد ذلك على ظهر سفينة تجارية كبيرة كانت متجهة الى جاوا تحمل على ظهرها مائتى شخص وتقطر خلفها سفينة أصغر منها لدواعى السلامة

وتابعت السفينة رحلتها طيلة ثلاثة عشر يوما وليلة حتى وصلت شاطىء جزيرة فى مكان ملىء بالقراصنة ، ثم تابعت سيرها بعد ذلك تحت ستار ظلام الليل . ولم يكن فاهسين يرى شيئا سوى الامواج المتلاطمة والسلاحف البحرية الضخمة وثعابين البحر وأسماك اخرى كبيرة الحجم حتى فقد التجار الامل ولم يعودوا يعرفون الى أين توجه الاقدار سفينتهم . ولكنه وصل اخيرا الى جاوا حيث بقى هناك خمسة شهور لكى يستقل سفينة أخرى متجهة الى كانتون فى رحلة استغرقت خمسين يوما .

هكذا تمت رحلة فاهسين فى هذه البحار فى مناطق لم يعرفها الاوربيون الا بعد ذلك بألف عام تقريبا . ولابد أن السفينة الاولى التى أتمت الرحلة من سيلان الى جاوا كانت سفينة سيلانية أو جاوية وربما كانت الاخرى صينية .

والواقع أن الصلات البحرية بين الصين والبحر الاحمر ترجع الى أواخر عهد اسرة « هان » (٢٥ – ٢٢٠ ميلادية) وتثبت الكتابات التى نشرت عن عصر الممالك الثلاثة (٦٥ – ٢٢١ ميلادية) ان حديثا جرى عن اربع أو سبع سفن ذات صوارى كبيرة استخدمها الصينيون بين كانتون وأنام . بالرغم من أن عهد ارتياد البحار وصل الى مداه خلال العصور الوسطى الا أنه لم يتم بشكل واضح الا فى عهد اسرتى سونج (٩٦٠ – ١٢٧٩ ميلادية) حيث بنى أحد المهندسين البحريين واسمه « نانج سو » سفينة ضخمة يبلغ طولها أكثر من مائة قدم . وخلال فترة حكم أباطرة « تانج » (٦١٨ – ٩٠٦ م) نمت التجارة

البحرية بسرعة وكانت الثروة التى تأتى بها هذه التجارة والمسافات الطويلة التى تقطعها السفن تستدعى تحسينات مستمرة فى السفن ووسائل الملاحة . وكان البحارة الشرقيون منذ زمن طويل كما تروى قصة فاهسين يستخدمون البوصلة المغناطيسيه . ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ استخدام البوصلة المغناطيسية فى ارتياد البحار بعد أن كان البحارة يسيرون بحذاء الشاطىء ولكنه حدث فى وقت ما بين القرن العاشر الميلادى - وهو أكثر الاحتمالات ترجيحا ومن المؤكد أن استخدامها سنة ١٠٨٦ كان يسبق استخدامها فى البحر الابيض المتوسط بنحو قرن من الزمان .

فقد أعجب ماركو بولو بعد ذلك فى نهاية القرن الثالث عشر باحكام صناعة السفن وباستخدام نوع جديد من الدفة الخلفية ظهر فى أثناء حكم أسرة تانج فى القرن الثامن . وكان البحارة فى هذه الاسرة يعرفون كيف يقودون سفنهم وسط الرياح .

وفى القرن الثانى عشر كانت السفن الصينية من الناحية الفنية تستطيع أن تبحر الى أى مكان فى العالم المعروف آن ذاك ولو أن الاميرال الصينى الشهير « تشينج هو » لم يصل الى شرقى افريقيا الا فى القرن الخامس عشر .

وعلى الرغم من تفوق الصينيين فى النواحى البحرية فهم لم يتوغلوا بعد فى مياه المحيط الهندى مع أن تجهيز سفنهم كان يسمح لهم بالملاحة مسافات أكثر من ذلك . ومن المؤكد أن البضائع الصينية كانت تصل الى البحر الأحمر والبحر المتوسط بطرق بحرية منذ بداية العصر المسيحى - (فالآنية البرونزية التى تعود الى عهد أسرة مرو نقلها الصناع فى هذه الاسرة من نماذج صينية جاءت على الارجح عن طريق البحر) .

وكان هناك تبادل بين الصينيين والرومان . ولكن هذا التبادل كان يتم عن طريق سفن أخرى غير صينيه ... ومع التوسع الذى حدث فى عهد أسرة شونج « فى القرن الثانى عشر كان الصينيون قد ثبتوا مركزهم كتجار فى جنوبى الهند . وكان ميناء كويلون محطتهم التجارة الرئيسية »

وقد كتب المسعودى سنة ٩٤٧ يقول : « ان سفن الصين اعتادت ان تذهب الى عمان وسيراف والبصرة فى حين كانت سفن هذه الدول تبحر بدورها الى الصين . وروى الادريسى سنة ١٠٥٤ أن ابناء الصين قد سحبوا تجارتهم للجزر الكبيرة جنوبى شرقى آسيا بعد الاضطرابات التى كانت سائدة فى الهند فى ذلك الوقت .

وفى سجلات أسرة « سونج » سنة ١٠٨٣ مايشير الى زيارة ثانية لسفير أجنبى من بلاد تدعى بلاد « الزنج » وهى بلاد بعيدة جدا حتى أن الامبراطور « شون تسونج » منحه هدايا مماثلة لتلك التى اهداها اليه فى رحلته الاولى . بل أضاف اليها مائتى أوقية من الفضة واذا لم تذهب الاكتشافات المتوقعة فى المستقبل اكثر من هذا ، فاننا

نعرف على وجه اليقين ان هذا المبعوث الافريقى هو الوحيد الذى تسجله الوثائق الصينية حتى سنة ١٤١٤ ، حيث أرسلت مدينة « ماليندى » سفراء للامبراطور ومعهم زرافة كهدية له .

وبرغم ان جماعة فى بلاد الصين كانت تعارض الاختلاط والاتجار مع البرابرة .. خارج الصين ، وتحبذ التجارة الداخلية ، الا ان التجارة البحرية فى عهد اسرة « تانج » كانت من الاهمية بحيث لا يمكن تجاهلها .. ويقول التاجر سليمان قبل سنة ٨٥٠ « ان هذه التجارة كانت تشمل العاج والبخور والنحاس والاصداف والكافور وقرون الوعول . وكل بضائع تفرض عليها ضرائب عالية .. وعندما كانت السفن التجارية تصل الى كانتون كانت تسلم حمولتها لموظفى الامبراطور ليضعوها فى المخازن حتى تصل آخر سفينة فى الموسم التجارى حيث يحتفظون بثلاثة اعشار هذه البضائع المستوردة باعتبارها ضريبة رسمية . ثم تسلم باقى البضائع لأصحابها . بيد أن هذا الربح لم يرض الاباطرة . وفى سنة ٩٧١ فى عهد أسرة يونج أعيد تنظيم التجارة البحرية لضمان الحصول على ربح أكثر من الاستيراد والتصدير . وفى سنة ٩٨٣ تقريبا . أعلن ان التجارة البحرية مع الاجانب اصبحت حكرا للدولة .

وكان مخالفوا هذا القانون الجديد يعاقبون بوشم وجوههم او النفى للجزر البعيدة .

وقد استمرت هذه التجارة فى نمو مطرد . وتروى سنويات أسرة سونج « ان الوارد من العاج وقرون الوعول واللآلىء والبخور والبضائع الاخرى زادت الى أكثر من ٥٣ الف وحدة . وفى سنة ١١١٥ زادت هذه الكمية ايضا الى ٥٠٠ الف وحدة . وخلال مائة عام من ذلك التاريخ بدأ الخزف الصينى يصل الى الموانى القريبة للمحيط الهندى بكميات كبيرة . وبدأ أمراء وتجار المدن الافريقية مثل « سونجومنارا » يزينوك منازلهم بها ويستمتعون بالشاى الوارد لهم من الصين . ويرجع هذا التوسع فى التجارة الى اسباب عدة : فقد كانت صناعة الخزف الصينى فى هذه الازمنة تخطو خطوات مطردة فى التحسن من الناحية الفنية . وكانت التجارة الافريقية تخطو ايضا خطوات واسعة نتيجة الاسلام والاتصال بالعرب واستقرار بعض هؤلاء العرب على سواحل افريقيا .. ثم نتيجة للتطور الاجتماعى فى افريقية نفسها .. والتوسع الصينى فى التجارة .

وفى القرن الثالث عشر اى بعد أسرة سونج اعاد اباطرة المغول فتح الطرق البرية للتجارة التى تمر خلال تركستان « واصبحت التجارة البحرية اقل أهمية عن ذى قبل . ووصلت التجارة تحت حكم اباطرة « مينج » اقصى اتساع لها . وكان اعظم مبعوث للتجارة الصينية هو « تشينج هو » الذى كان مسلما من « يونن » بلغ منصبا رئيسيا كبيرا فى البلاط الامبراطورى وقام بسبع رحلات عظيمة الى الشرق الاقصى يذكرها التاريخ الصينى .

وبرغم ان التجارة الصينية مع ساحل شرق افريقيا هى جزء

من تاريخ هذا الساحل .. ومايليه الى الداخل .. فان الصينيين لم يشيروا الى ذلك كثيرا . فالاشارة الاولى فى هـــذا الصدد ترد الى سنة ٨٦٣ وتحكي عن بلد يدعى « بوبالى » ومن الواضـح أنهم كانوا يقصدون بها مقاطعة « بربرة » والســاحل الذى يليهـا على القرن الافريقى (الصومال تقريبا) . وترد اشارة أخرى اكثر تفصيلا عن « بوباتى » هذه فى سجلات « تشاوجوكوا » عن الشعوب الاجنبية التى انتهى من تدوينها عام ١٢٢٦ . تشير الى بلاد « تسونج با » وهى ترجمة صينية لكلمة ساحل الزنج . وتذكر السجلات « أن هــذه البلاد تمتد حتى تصـــل الى جبل عظيم لابد وأنه جبل كليمنجارو وأن ســـكانها من التاشى (وهم العــرب) ويتبعون ديانة العرب ويلبســـون ملابس قطنية زرقاء وأحذية من الجلد الاحمر . وطعامهم من الخبز والفطائر ولحم الضأن وأن هناك قرى عدة وتلالا متتابعـة تغطيها الغابات وتنتج سن الفيل والذهب وخشب الصندل »

وكانت هذه الرحلات هى قمة التجارة البحرية الصينية . ولكنها بدات بعد ذلك فى الانهيار . ولقد بلغت هذه التجارة فى يوم ما من الاهمية بحيث كان لها ادارة خاصة بالهندسة البحرية .. وفى سنة ١٥٠٠ أغلقت أحواض السفن الضخمة ومنع بناء السفن التى لهـا اكثر من صاريين .

وصـدر فى سنة ١٥٢٥ قانون يمنح ضـباط الشـواطىء سلطة تحطيم هذه السفن اذا وجدت والقبض على بحارتها . وأسـباب هذا التدهور ترجع أولا الى الصين نفسها وليس الى افريقيا . وهى كما ترجع الى المنافسات فى البلاط الصينى وبين طبقة من الموظفين كانت تخشى هذه الاكتشافات البحرية والثروة التى جلبتها لطبقـة أخرى من الطواشى (الخصى) نمت فى قصـور الصين . وكان هؤلاء الموظفون يكرهون هذه التجارة التى كانوا يعتبرونها مسرفة ووثيقـة الاتصال بالبرابرة وهــذا أمر لم يكن بعضـهم يبذه كما أسـلفنا القول .

الفصل السابع

مدن جميلة من الحجارة

١ ـ حضارة منسية :

بين سنة١٤٨٨ و ١٤٨٩ اتجهتاربع سفن برتغالية صغيرة يقودها فاسكودى جاما مارة جنوبا برأس الرجاء الصالح ومتجهة بعد ذلك فى شجاعة نحو الشمال ، وذلك بعد رحلة طويلة قاسية عبر المحيطالاطلنطى ولكن هذه السفن لم تدرك أن كل ما صادفها من متاعب فى رحلتها هذه الطويلة كانت شيئا هينا بالنسبة لما سوف يعترضها من مصاعب وهىفى طريقها للشمال ، وبعد أن تجاوزت هذه السفن «سوفالا» على الشاطىء الشرقى لافريقيا بدأت تخرج من مفاجأة لأخرى ، فقد أصابت أصـــحابها الدهشة وهم يرون مدنا ساحلية مزدهرة عامرة بالسكان، وبحارة يعرفون جيدا طرق الملاحة الى الهند وما وراءها ممن اعتادوا القيام برخلاتهـــم مستخدمين الخرائط والبوصلات وأجهزة لقياس خطوط الطول والعرض مما يماثل ماكان في حوزتهم هم أنفسهم ـ وربما تفوقها دقة فهم بحارة كانوا على معرفة أكثر منهم بالعالم الخارجي ـ هذا فى الوقت الذى كانت فيه الاكتشافات الاوربية لا تزال فى بدايتها .

ألقت هذهالسفن مراسيها فى خضم تجارة المحيطات، ونزل بحارتها الى المدن الموجودة آن ذلك ، والتى كانت تماثل فى روعتها قليلا من المدن الاوربية فى هذه الايام . ولقد كان واضحا أن هؤلاء البحارة الاوربيين فى السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر لا يمكن أن يفوقوا ، فى مدينتهم هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى سواحل شرقى أفريقيا فهؤلاء كانوا علىقدر كبير من المعرفة بالعالم وعلى قدر كبيرمن التمدين. وكانت موانيهم ومدنهم مؤسسة على أحسن طراز . حتى أن هؤلاء الاوربيين وجدوا أنفسهم أشبه بالغرباء عن هذا العالم الجديد .

ويقول مسجل سفينة فاسكودى جاما «ساو جابربيل» حضرا الينا اثنان من سادة هذه البلاد .. كانا على جانب كبير من التعالى ونظرا الى ماقدمناه لهما نظرة الترفع واعتبراها أشياء لاقيمة لها .وكان أحدهما يضع على رأسه قبعة حافتها مطرزة بالحرير ويضع الآخر قبعة من الحرير الاخضر ـ وبصحبتهم شاب صغير ـ وقد فهمنا من اشاراتهم أنهم قدموا من بلد بعيد وأنهم رأوا من قبل سفنا كبيرة كسفننا .

وللحق يقال ان هؤلاء لابد أن يكونوا قد رأوا سفنا أكبر من سفن البرتغاليين من التى كانت تعبر المحيط الهندى فى هذه الايام .

وتتحدث وثائق هذه السفن عن «برمسترجون» شخصية أفريقية أسطورية قيل انه كان ملكان أفريقيا بالغ القوة والعظمة أراد انشاء امبراطورية موحدة تضم كثيرا ممن الدول الافريقية وتقول : انه قيل لنا أن برسترجون لايبعد كثيرا عن هذا المكان وأنه يسيطر على مدن كثيرة على طول الشاطيء وعرفنا أيضا أن سكان هذه المدن كانوا من كبار التجار الذين يملكون سفنا ضخمة وقد تابعت هذه السفن سيرها شمالا ومرت بمدن «كيلوا ، وممباسا ، وماليندي» ثم تابعت سيرها بعد ذلك متجهة الى الهند حيث ألقت مراسيها فى خليج كامباى قريبا من مدينة كلكتا حيث قابل بحارتها تونسيا كان يتحدث بلغة أبناء «قسطلة وجنوا» استقبلهم باللعنات وسألهم عما أتى بهم الى هذا المكان .

كانت هذه احدى لحظات التاريخ المضيئة وبعد قرن من الزمان بدأ الباحثون عن الثروة يشقون طريقهم اليها . وفى ظرف ٢٥ سنة أنزل البرتغاليون ٢٤٧ سفينة في أساطيل صغيرة كانت تبحر الى الهند كل سنة تقريبا وتعكس مقدرة شعب البرتغال ، قليل العدد ، الفقير الذى كان يتحدى البحار والذى استطاع «بجرأة متحديا الاخطار» السيطرة على تجارة المحيط الهندى واختراق طرق التجارة المعقدة بين موانيها وشعوب الشرق : فحطموا بذلك التجارة الشرقية وخلفوا وراءهم الفوضى والحطام بعد ما انهارت قوتهم .

ولقد اقتحم البرتغاليون المحيط الهندى والحضارة الهندية بوحشية وعنف لم تشهده هذه البلاد من قبل ، وكانوا يضربون بذلك مثلا متعمدا فى اثارة الرعب الذى شمل رعاتهم وزعماءهم قبل « فاسكودى جاما » و « الميدا » و «البوكيرك» فقد عذب دى جاما الصيادين العزل وانتزع الميداعيون الاهالى من محاجرها وكان البوكيرك يقطع أنوف النساء وأيدى الرجال على ساحل جزيرة العرب . وفى هذه الأزمنة نفسها من التاريخ كانت الحروب تسود الهند. واستمرت فترة طويلة وأصبحت أمرا مألوفا حتى أن «هوايتوى» عندما يتحدث عن هذه الحروب فانما يذكرها كأمر تقليدى ويقول مثلا ان كل المعارك كانت تدور حينما تشرق الشمس وكان جنود الجيوش المتنازعة يختلط بعضهم ببعض ويتحدثون . وعندما تدق الطبول كان كل جانب منهم يصطف ويبدأ القتال بعد ذلك . وانتصرت اوروبا على الهند واستولت على ثرواتها . واصبح الاوربيون يعتقدون انهم كانوا يتمتعون دائما بحضارة تفوق حضارة الهنود والافريقيين .

ونسوا الماضى الذى كان يروى قصصا مختلفة عما يعتقدون ، بيد انهم لم يستطيعوا أن يمحوا حضارات الهند لان آثارها المتعددة كانت لاتزال باقية .. وكانت مكانتهم لاتزال مرموقة . وكان العالم أجمع يعرفهم ، فقد نجحوا فى تحطيم تجارة المحيط الهندى ولكنهم فشلوا فى تحطيم تجارة الهند .

أما الحضارة فى شرقى أفريقيا فقد كان أمرها مختلفا . كانت أقل

استرعاء للنظر من الحضارة الهندية وأقل ثروة منها • وكانت جذورها أقل عمقا فى الداخل ولهذا كان مصيرها مختلفا •

لقد كانت المدن الساحلية في شرقي أفريقيا لاتختلف عن مثيلاتها فى معظم الدول البحرية في أوربا والهند فى القرون الوسطى • كانت تقع على المحيط المتلألىء وكانت منازلها العاليه تحيط بها أسوار متينة تعلوها القلاع والقصور • وكان أهلوها على درجة من الشجاعة تساعدهم على الاحتفاظ بمدنهم غير أنه لم يبق من هذه المدن الا شهرتها لانها اختفت بأكملها تقريبا • ولقد فقد بعض هذه المدن تماما • ولكن البعض الآخر منها لايزال باقيا اطلالا على الشاطىء أو تلالا من الحطام المطمور •

وخلال رحلة «دى جاما» الاولى على ساحل موزمبيق أطلقت النيران على الاهالى وقد عاد «دى جاما» مرة أخرى الى الشاطىء ومعه مجموعة من السفن وهدد باحراق «كيلوا» اذا لم يعترف حاكمها بسيادة البرتغال واذا لم يدفع له ضريبة سنوية •

وقام «دافازيو» بالعمل نفسه في زنجبار وبرافا» وعندما قاوم الاهالى « الميدا » عصف بمدينتى « كيلوا ، وممباسا » وأحرقهما وحطمهما تماما ، نهب «سالدانها» مقاطعة بربرة على القرن الافريقى ، وحطم سواريز مدينة زيلا وهاجم «داكونها» مدينة برافا •

ويعلق على ذلك «باربوزا» الذى ذهب فى أول أسطول لهذه الجهات فيقول ان البرتغاليين حطموا برافا وذبحوا أهلها وأسروا منهم الكثير ونهبوا كثيرا من الذهب والفضة والبضائع • ويذكر التاريخ خطابا بعث به حاكم مباسا بعد غزو «الميدا» المخرب الى حاكم مدينة «ماليندى» يقول فيه : ان شعب السواحل والعرب فى ممباسا عندما عادوا الى مدينتهم لم يجدوا أثرا للحياة هناك • فقد قبض البرتغاليون على كل من لم يتمكن من الهرب من النساء والرجال والاطفال وأحرقوهم أحياء وكان كل ذلك سهلا يسيرا بالنسبة للبرتغاليين وللسبب نفسه الذى حدث فى الهند ، ذلك أنهم كانوا يميلون للقسوة والوحشية والتدمير عندما يقاومهم الاهالى • وكانوا أحسن تسليحا وتدريبا ولم يكونوا يريدون احتكار التجارة فحسب ، ولكنهم كانوا ينشدون تدمير المدن الساحلية والنهب • وكانت طرق الحرب الافريقية تميل لتقليل الخسائر فى حين لم يكن البرتغاليون يأبهون بالتدمير والقتل •

ومن الغريب بعد ذلك أن نجد الاوربيين يعتقدون أنهم وجدوا الافريقيين كشعوب متوحشة قبل قدوم الحضارة الافريقية الراقية التى أعملت فيهم القتل والنهب وقد كتب ايفانس برتشارد وهو يصف طريقة الحرب التى كان يتبعها شعب «الآزاندى» الذين وصفهم بعد ذلك الاوربيون بالرغبة فى الحرب والميل لسفك الدماء فقال : كانوا يتجنبون الاحاطة التامة لاعدائهم لأن الغرض الرئيسى من الحرب هو اجبار العدو على الانسحاب حتى يتم احراز النصر بأقل خسارة والاحاطة التامة بالعدو تجبرهم على القتال بوحشية حتى النهاية لانه لا أمل لهم فى الفرار فكانوا يتركون ثغرة في المؤخرة وكان القتال يبدأ فى الرابعه صباحا حتى يستطيع المنسحبون أن يهربوا تحت جنح الظلام •

وما حطمه البرتغاليون أسدل عليه ستار من النسيان بعد ذلك ولم يذكر البرتغاليون الذين أشاعوا الخراب في أفريقيا عن هذه القارة الا أنها أرض الذهب وملكته سبأ والغنى الفاحش للمغامرين • وكان لخراب التجارة في المحيط الهندي وتحطيم السواحل الافريقية وتجارة العبيد والغزو الاستعماري والانحلال الذي تبع ذلك ماأدى الى جعل تاريخ القارة غامضا

٢ ـ عرب أم أفريقيون ؟

قبل الاكتشافات الأثرية الاخيرة كان من المسلم به أن مدن الساحل في شرقي أفريقيا التي اختفت الآن ، لم تكن أفريقية بل عربية حتى أن سير «رجنالد كوبلند» الذي كتب تاريخ ساحل شرق أفريقيا أطلق عليها : المستعمرات العربية • وقد أشار الى تأثير الفرس في هذه المستعمرات ولكنه اعتقد أن التأثير الافريقي كان ضئيلا أو لاوجود له ، وأيد كثيرون هـذا الرأي • وقد أشار باربوذا البرتغالي في أول عهدهم بغزو الساحل الشرقي لافريقيا الى أن هذه المدن كانت دولية بمعنى أنها كانت تضم خليطا من الهنود والفرس والعرب والافريقيين من قلب القارة ، الا أن اللهجة العربية كانت هي الغالبة ، وقد وصف باربوذا طريقة تجـارتهم فقال : كانوا يتنقلون في سفن صغيرة يسمونها « زامبوكس » من ممالك « كلو وممباسا ومالندي» يحملون الملابس القطنية والحراير كانت تأتي اليهم من ممـالك كومي العظيمة في سفن كبيرة •

وكانوا يتاجرون ـ وهو يقصد هنا عدن وجنوب الجزيرة العربية ـ في القطن والادوية والصمغ واللؤلؤ والنحاس والفضة بكميات كبيرة ، والسجاجيد الملونة من مكة والارز والسكر وجوز الهند وخشب الصندل حتى انه اعتبر هذه المنطقة أعظم منطقة تجارية في العالم ، وبرغم أن هذه المدن التجارية قد اختفت الآن ، الا انها كانت تثير الاعجاب : وتدل اطلال كوى التي وصل اليها سير مورتيمر ويلر سنة ١٩٥٥ على أنها كانت تمتد مالا يقل عن خمسة وثلاثين هكتارا وانها كانت تضم قصرا ومنازل من الحجارة وسبعة مساجد • وكانت هناك مدن كثيرة كهذه • وفي «جنجومنارا» التي ترجع للقرن الثالث عشر وجد مايتو قبابا على أعمدة وقاعات فسيحة وفي مثل هذه المدن كانت تصل تجارة الشرق القديمة ، ويصف بالابوذا مدينة رنبال فيقول : ان سكانها أغنياء ومتميزون وكانوا يستعمـلون حجرة الاستقبال في منازلهم التي تقع في مقدمة المنزل وكانوا يضـعون على الأرفف انواعا جديدة وجميلة من الخزف • وكانت المنازل والقصـور في « كيلوا ، وكوى ؛ وجينجو ، ومنارا ، وممباسا ؛ ومالندي » على هذا النمط مليئة بالتحف المستوردة من كل مكان من فارس ونيسابور والصين والهند ومكة والشرق الاوسط • ويفسر كثرة الاحتكاك البحري في هذه المنطقة تناقض الآراء حول سكانها عندما شاهدهم الاوروبيون •

وكان اول القادمين الى هذه المنطقة من غير الافريقيين ، الأمراء العرب في جنوب الجزيرة من سلالة ملكة سبأ • وكانوا يأتون للتجارة لا للغزو ، وكانوا قلة ولكنهم كانوا يداومون في تجارتهم واختلطوا بأهل السـاحل وتزوجوا منهم وأقاموا محطات تجارية • وفي منتصف الألف سنة التي

سبقت ميلاد المسيح بدأ الطابع العربى يظهر على الشاطىء ، ولم يفقد هؤلاء العرب شخصيتهم المميزة تماما ، وكانوا يدعمون بالوافدين من جزيرة العرب والخليج الفارسي وانبثقت عن وجودهم الثقافة السواحلية وهى تتابع أصيل لآراء ومعتقدات غير أفريقية ، ظلت أساسا وبصفةدائمة برغم ذلك أفريقية تنتمي للدول التى تتحدث بالبانتو فى أفريقيا • وقد استمدت هذه الحضارة أصولها من مصادر عدة ولكنها بقيت بعد ذلك أفريقية فى مجموعها • واذا أردنا أن نوضح هذه الصورة قليلا فاننا نقول أن الحياة انبثقت فى هذه المدن وكانت أصولها الواضحة ترجع للهنود والفرس والعرب والأندونيسيين والملاوين والافريقيين •

فى سنة ١٣٣١ يصف ابن بطوطة « كلوا » بعد أن زارها فقال انها واحدة من أجمل المدن وأحسنها بناء • وان أغلبية سكانها من الزنج ذوى اللون الأسود وعلى وجوههم علامات الوشم، واذا كانهذا صحيحا بالنسبة « لكلوا » فانه لا شك ينطبق على المدن الداخلية ، هو ماتؤيده الشواهد ويصف باربوزا حاكم مالندى مثلا بأنه أسمر اللون • بيد أن الشواهد تثبت بعد ذلك انه سواحيلى وهو يجد فى برافا سنة ١٥٠١ مدينة عظيمة للسمر • بيد أنانجدحتى الآن أن اللغة السائدة فى المدينةهىالسواحلية وليست العربية •

لقد كانت الثقافة العالمية فى المدن الساحلية ثقافة أفريقة دائما • وتثبت هذه الحقيقة الحضارة السواحلية التى لم تلق الاهتمام الكافى خارج شرقى أفريقيا • والشعراء هناك كانوا يكتبون قصائد الشعر التى تسمى « بالمشاييرى » او القصائد الغنائية حتى سنة ١١٥٥ تقريبا وكانوا يكتبونها باللغة السواحيلية ، وهى لغة أفريقية أصيلة برغم كتابتها بحروف عربية • واستمر الشعراء يكتبون «المشاييرى ، والتيندى» لقرون عدة بعد ذلك وما زالوا يكتبونها حتى اليوم وربما صاغوها على أسس أجنبية ، وشاكسبير نفسه فعل ذلك • وقد وضعت كتب كثيرة فى شرق أفريقيا باللغة السواحيلية فى ممباسا ، وبثيت ، وكيلوا » وفىسنة١٨٢٤ كتب امري يقول : انه وجد أن اللغة السواحيلية تستخدم عادة فى ممباسا كل ذلك بطبيعة الحال برغم الاقامة العربية الطويلة فى هذه المناطق •

ليس هذا فحسب ، بل ان فن المعمار فى هذه المناطق من الساحل الافريقى كان فنا افريقيا خالصا ، كما يقرر ماثيو • بعد اكتشافاتهالاثرية هناك كل مايمكن أن يقال خلاف ذلك أنه كان فنا أفريقيا تأثر تدريجيا بالفن الاسلامى ويقول ماثيو أيضا فى هذا الصدد : برغم أن حضارة الساحل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أصبحت حضارة اسلامية فى كل أوجهها ، الا أن هذه الحضارة ظلت تبدو فيها الآثار الزنجية القديمة •

٣ ـ خطوات الى الداخل :

اذا كانت تجارة المحيط قد ساعدت على تطوير الحضارة الافريقية الساحل افريقيا الشرقى فى القرون الوسطى ، فماذا فعلت بمن وراءهم الى

الداخل هل من الممكن تتبع تاريخ هذه المنـــــاطق الداخلية فى القرون الوسطى • أسئلة تصعب الاجابة عنها اجابة شافية لقلة الابحاث الأثرية ولاسباب أخرى كثيرة •

اننا في الجزء الباقى من هذا الكتاب سنحاول جهدنا أن نجيب عن هذه الاسئلة وهى محاولة جديرة بالجهد لان الطابع الافريقى سوف يكون هو الغالب في هذه المناطق الداخلية الى الجنوب والوسط من أفريقيا ولحسن الحظ أن هناك حفائر جديدة قد سهلت بحثنا ، مثل تلك التى قام بها «كلارك» عند شلالات كالامبو التى وضعت أسس عصر الحديد بأفريقيا أفريقيا الجنوبية فى اطار جديد يمكن تفهمه • ومثل غيرها من الابحاث التى ألقت مزيدا من الضوء على هذا الموضوع •

الفصل الثامن

مابعد آكسوم

١ ـ عظمة أثيوبيا :

في سنة ١٥٤١ كان «مويتو جينيتلومن» الابن الرابع لفاسكودي جاما والذى عرفه التاريخ باسم « كريستوفر » على رأس حملة برتغالية الى أثيوبيا ٠٠ تضم ٤٥٠ جنديا برتغاليا ٠ وذلك بدعوة من امبراطور الحبشة لمساعدته في التغلب على غارات المسلمين في أرض الصومال ٠ وقد نجحت الحملة في تحقيق هذا الهدف لامبراطور الحبشة وان كان هذا العمل قد كلفها حياة كريستوفر نفسه وحياة كثير من أفرادها ٠ ولم يكن انتصار هذه البعثة على المغيرين على أرض الصومال ٠ الا بفضل ما كانت تحمله من أسلحة نارية لم تكن موجودة لدى المسلمين في تلك الايام ٠

وقد كتب « كاستنهوزا » أحد أفراد هذه الحملة وصفا مفصلا لما رآه خلال اقامته بالحبشة ٠ لعله أمتع ما ذكر في هذا الصدد ويمكن أن يقدم لنا أساسا للتاريخ الاثيوبي ، تاريخ هذه الارض التى تحول أبناؤها الى المسيحية منذ أكثر من ألف ومائتى عام ٠ والحق أن تاريخ أثيوبيا تاريخ حافل يدعو الى الدهشة ٠ ان التاريخ يذكر اسم الامبراطور « نيجوس » امبراطور أثيوبيا في القرن الثالث أو الرابع الميلادى حيث تشير آثار « حميرية » الى معاهدة بين دولة « حمير » في جنوب الجزيرة العربية ومن النجاشى ملك الحبشة وأكسوم ٠

أما الاحباش أنفسهم فقد وردت أول اشارة عنهم في فترة حكم الاسرة الثامنة عشرة المصرية القديمة (١٥٨٠ ـ ١٣٥٠) قبل الميلاد حيث تشير آثارها الى التجارة مع بلاد بنت ٠ وأرض الحبشة هذه كانت جزءا من بلاد بنت في الايام التى كانت فيها سفن « حيرام » ملك « صور » (بالشرق الادنى) تجوب البحر الاحمر ذهابا وايابا ٠ تحمل معها ثروات بلاد الدوفير الى دولة اسرائيل القديمة وبالرغم من هذه الصلات التاريخية كلها فقد ظلت الحضارة الاثيوبية ٠٠ شيئا خاصا بأثيوبيا ٠٠ وقد ظلت أثيوبيا كذلك تحسب لها كل حساب في ميزان القوى العالمية ، مثلما كان الامر بالنسبة لكوش » وان ظلت في هذا المضمار زمنا أطول مما أتيح لامبراطورية كوش»

ولا شك أن أثيوبيا ظلت كذلك تؤدى دورا هاما في هذا الجزء الساحلي من افريقيا حتى أيام الغزو الفارسى لجنوب الجزيرة العربية ولا شك أيضا انها ظلت تقوم بهذا الدور نفسه حتى انتشار الاسلام الذى أغلق البحر

الاحمر في وجه أي سفن غير اسلامية ، ثم جاءت بعد ذلك أيام انهيارها حيث تختفي أثيوبيا المسيحية من وقائع التاريخ منذ القرن السادس الى الرابع عشر الميلادي .. وحيث تختفي أكسوم ليحل الأمهريون شعب الجبال الوسطى ومنطقة اليتجرى – محلهم في أثيوبيا حتى اليوم ومن العبث أن نحاول تتبع تاريخ أثيوبيا في هذه الفترة الغامضة التي لا تغنينا فيها الوثائق ، فلم تبدأ البحوث الاثريه الا في هذه الايام فقط . وان كانت هذه البحوث قد ألقت شيئا من الضوء في هذا الصدد وربما استطعنا أن نقرر استنادا الى بعض ما كشفت عنه الابحاث الاخيرة أن أكسوم والشعب الامهرى كانتا جميعا القناة التي عبرت خلالها الافكار والخبرات الى داخل افريقيا ، حتى وصلت بعيدا الى الجنوب وربما كان من الممكن أيضا أن نعتقد أن المهارة في اقامة الابنيه الحجرية التي ميزت حضارة القرون الوسطى في افريقيا الشرقية الوسطى والتي أسست « زمبابوى » العظمى قد مرت خلال هذه المنطقة من جنوب الجزيرة العربية الى جنوبي افريقيا . وربما كانت عادة تخطيط الجبهه بندبات واضحه حتى اليوم في جنوبي أثيوبيا ، شيئا يعود بأصوله الى ما كان معروفا في غربي افريقيا وقد تكون الابنية الحجرية العالية في « سيداما » ذات صلة وثيقة بمثيلاتها في غربي افريقيا وشرقيها ، في المنطقة التي تعرف حاليا بروديسيا . كل هذه أمور محتملة وليست مؤكدة ، وتعود بنا مرة أخرى عند مناقشتها الى الماضي البعيد .

لقد غزت الشعوب السامية في جنوب الجزيرة العربية أراضي أثيوبيا قبل عدة مئات من السنين من بدء المسيحية وكونت حضارة أثيوبية جديدة تعكس مقومات حضارات البلاد التي وفدت منها . وتبدو معالم من هذه الحضارة في « ييها » وتعود الى القرن الرابع الميلادى وتكشف عن تحول الى عبادة الآلهية الوثنية « ناوورا وآشتاد » والاخيرة هي الآلهة « عشتروت » نفسها « التي عبدها سليمان بتأثير من زوجاته الاجنبيات » على أن الآثار الحبشية والمصرية القديمة كانت موجودة قبل هذه الغارات السامية ، ومن ثم استطاعت أكسوم ان تأخذ من حضارتها جميعا لكي تكون لنفسها حضارة خاصة بها ، هي الحضارة التي ميزت أكسوم والتي جاءت مثلا آخر لشعب استطاع أن يذيب الغزاة ويكون لنفسه حضارة جديدة . ولقد اتسعت رقعة أمبراطورية أكسوم بعد ذلك ، واتسعت تجارتها في البحر الاحمر ، وأصبح ميناؤها « ادوليس » على درجة كبيرة من الاتساع في القرن السابع الميلادى ، عندما وصفه زائر يوناني بأن له علاقات تجارية واسعة مع الهند وسيلان ، وكانت قوافل التجارة تسير عبر أراضي أكسوم فيما وراء « أدوليس » الى الداخل ، حتى نهر عطبرة وحتى النيل الاوسط ومرو وكانت التجارة موضع منافسة ونزاع بين أكسوم وكوش وقد أوردت وثائق مرو تفصيلات الحرب التي قامت بين البلدين على أيام الملك الكوشى « حارسيوتيف » (٣٩٧ – ٣٦٢) قبل الميلاد والملك « ناستاسين » (٣٢٨ – ٣٠٨) قبل الميلاد . ولكن أكسوم هي التي انتصرت أخيرا في هذه الحروب على يد ملكها « آيزاناس » الذى تحول الى المسيحية في أواخر أيامه على أيدى القساوسة البيزنطيين . ولقد كان هذا التحول شيئا على جانبه

كبير من الاهمية ، ليس فقط من الناحية العقائدية ، فقد ساعد مملكة أكسوم ومن بعدهم خلفاؤهم الامهريون على الاحتفاظ بمكانة خاصة بين جيرانهم . وان كان هذا يعنى حروبا دينية متصلة معهم .

وقد كان من أثر انتشار المسيحية فى هذه المنطقة ، أن برزت ثقافة وحضارة جديدة تختلف عن حضارة الوثنيين أو المسلمين ، الى الجنوب والشمال والشرق . بيد ان هناك ثلاث مظاهر للحياة الاثيوبيه تجدر الاشارة اليها لأهميتها فى تسجيل ما حدث الى الجنوب ، وهذه المظاهر هى المدرجات على جوانب التلال وعادة بناء القلاع والقصور المحصنة على قمم التلال المنحدرة ورمز اله الاخصاب وهذه المظاهر تصادفنا كثيرا حتى اننا لا نستطيع أن نغفل وقوعها . والزراعة على جوانب الجبال المدرجة والرى المناسب لهذه الزراعة مظهر لا يمكن فصله عن الحضارات الاولى التى قامت فى شرق . وجنوب شرقى افريقية ، فقد استخدمت هذه الوسائل منذ وقت طويل فى جنوبى الجزيرة العربية فى الزراعة . ويمكننا حتى فى العصر الحاضر أن نرى هذه الطريقة على جوانب جبال دارفور . وقد عثر الباحثون سنة ١٩٥٨ على هذه الطريقة خلال ابحاثهم فى مساحة تبلغ ١٢٠٠٠ ميلا مربعا وتمتد فى الجبال جنوبى الصحراء لجبل « مارا » وجبل « موسى » ولحدود « واداى » وتتبعوها بمشقة حتى حافة البركان الساكن فى جبل مارا ، حيث لا يعيش أحد أو يزرع الآن . وكانت الزراعة فى أثيوبيا على جوانب الجبال تتبع الطريقة نفسها . وقد كتب « بنت » عندما زار « بتجرى » سنة ١٨٩٣ يقول ان الجبال المحيطة قد درجت كلها تمهيدا لزراعتها . ولم أر شيئا كهذا فى أى مكان من اليونان أو آسيا الصغرى حيث يدرج جانب صغير من الجبال ، أما فى آثيوبيا وفى هذا الوادى الحبشى ، فقد زرعت مئات الآلاف الهكتارات بهذه الطريقة حتى قمم الجبال تقريبا . ولم تكن زراعة جوانب الجبال بهذه الطريقة مقصورة على شمالى اثيوبيا فلقد عثر على مدرجات زراعية دقيقة فى جنوب غربى أثيوبيا أعدها الشعب الزنجى الوثنى — شعب كونسو :

وكان هذا النوع من الزراعة يبدو غريبا بالنسبة لافريقيا الشمالية ، الا انه ثبت بعد ذلك أن هذا الرأى غير صحيح . فنحن نعلم الآن أن الشعوب التى اختفت ، زاولت هذه الطريقة الزراعية حتى « ليمبوبو » جنوبا وامتدت فشملت كينيا وتنجانيقا وروديسيا وموزمبيق . وتبدو مهارة الاثيوبيين أيضا فى البناء دون استعمال « المونة » ، حيث يوجد هذا النوع من البناء أيضا ، فى القرن الافريقى . ويستخدم شعب كونسو حتى اليوم هذه الطريقة . كما يقومون بزراعة مدرجات على جوانب الجبال . والى الشرق فى بلاد الصومال تخفى السهول أطلال مدن قديمة ترجع للعصور الوسطى لم يمكن معرفة أصولها التاريخية حتى الآن بشكل حاسم . وفى سنة ١٩٣٤ عثر « كيرل » وهو يحاول أن يجد تفسير التداخل الحضارات والثقافات

دار دور ثم الى الغرب أبعد من ذلك فى « كومبى صالح » وهى أحد المواقع المقترحة لعاصمة غانا القديمة . ومرة أخرى تواجهنا حقيقة التداخل والاتصال الفكرى بين بلاد بعيدة يبدو وكأنه لم يحدث بينها اتصال فى أى عصر من عصور التاريخ او كأنها لم تشترك فى تاريخ واحد الا أنه لا يمكننا أن نحدد زمن حدوث هذه التأثيرات والطرق التى اتبعتها ، وكيفية حدوثها . والظاهرة الثانيه التى أشرنا اليهـا هى رموز الخصب « الكثيرة » فى آثار أثيوبيا القديمة . فالى الجنوب من اديس أبابا وفى وديان « سيدما وبورما » والتى تؤدى لشمالى كينيا نجد أنصابا حجرية ترمز لأعضاء الاخصاب وتبلغ فى ارتفاعها أحيانا عشرة أقدام أو اثنى عشرة قدما . وتحـمل نقوشا محفورة لرموز لا يمكن تفسيرها ولا يعلم أحد زمن اقامتها . ولا يعرف السكان الحاليون شيئا عنها ويتكرر عثورنا على رموز الاخصاب فى هذه المناطق فنعثر على بعضها فى جزر « باجيونى » بالقرب من ساحل الصـومال وفى « باجامويو » فى تنجانيقا .

وقد أرجع بعض الباحثون استعمال هذا الرمز لتأثير اندونيسى الا أن أغلب الباحثين فضلوا الصمت ، فقد كان استعمال رمز الاخصاب أمرا شائعا فى الحضارات القديمة . والظاهرة الثلثة فى أثيوبيا وهى بناء القلاع والمساكن على قمم الجبال المنحدرة ونشهد ذلك فى روديسيا الجنوبية وأنجولا وفى بتشوانالاند جنوبى افريقيا . وهـذه الظاهـرة الى جانب أهميتها الدفاعية فى حماية البلاد فانها تشير أيضا الى تأثيرات ثقافية ناتجة من الهجرة ويشهد على ذلك مثالان فى منطقتين يفصلهما الفا ميل .

فحين قدم كريستفاودى جاما « لمساعدة الاسرة المالكة الاثيوبية سنة ١٥٤١ وجد الملكة الام تعيش على قمة جبل شديد الانحدار ، وهو جبل « دبرارامو » وكان بناء القصور فى اثيوبيا القديمة ، يتم فوق قمم الجبال لاسباب تتعلق بالامن والسلامة . وكان الملوك يستغلون ذلك أيضا فى سجن أعدائهم ومنافسيهم على العرش . وفى سنة ١٩٣٢ عثر أحد الفلاحين البوير « فان جران » فى مجاهل الترنسفال على مكان قيل انه يحوى كنزا على قمة أحد التلال على الضفة الجنوبية على نهر « ليموبو » . وقد حاول هو وابنه مدة طويلة أن يجد طريقة ليصعد بها الى قمة هذا التل وأخيرا تمكن من اغراء أحد الاهـالى من الوطنيين ، ليدله على ممر سرى يصل به الى القمة . وشق طريقه من السفح حتى القمة خلال أشجار كثيفة حتى وصل القمة وعثر على الكنز الذهبى الذى عرف بكنز « مابونجوبوى » . وهنا نستطيع أن نسجل تشابها ما بين بناء « ديرارامو » وكنز « مابونجوبوى » — ويدل هذا التشابه ، كما دلت الشواهد السابقة على وجود تبادل فى الآراء والمعتقدات على مساحات شاسعة ، وخلال فترة طويلة ، ويرتبط هذا التشابه بالهجرات فى افريقيا القديمة من الشمال الى الجنوب . وهذا هو التفسير الوحيد لهذا التشابه والترابط الذى يبدو واضحا فى جهات نائية من أجزاء القارة الافريقية كما أسلفنا .

اينجاروكا : ـ

فى سنة ١٩٣٥ أبلغ أحد الضباط عن وجود أطلال مدينة كبيرة وسط التلال على الحدود بين كينيا وتنجانيقا تبعد عن الساحل بنحو ثلثمائة ميل . وكانت هذه المدينة تقع على قمم مجموعة من التلال بجانب الوادى الذى يقع على الجنوب الغربى من بحيرة « ناترون » وكان من العسير الوصول اليها لوعورة الطريق وكثرة النباتات والاشواك . وقد أثار هذا الكشف اهتمام الدكتور « ليكى » الذى كان يقوم بأبحاثه الاثرية فى كينيا فى ذلك الوقت وقرر أن يستقصى الامر بنفسه . وقد اكتشف ليكى أن انجوراكا لم تكن مجرد مقابر وأطلال فقد وجد مدينة بأكملها ، بأطلالها ومبانيها وقدر عدد المنازل الموجودة بحوالى ٦٥٠٠ منزل تكون الجزء الرئيسى من المدينة وتقع على منحدرات هذه التلال . كما عثر فى الوادى على أطلال ٥٠٠ منزل أخرى وقدر عدد سكانها بنحو ما بين ثلاثين الى أربعين ألف نسمة .

وقد وصف ليكى هذه المدينة فقال ان المنازل التى تكون الجزء الرئيسى منها مبنية بحجارة ضخمة . لها شرفات واسعة وممرات تربط بينها وهناك سور عال ومدرجات كانت تزرع على جوانب التلال ، الا أنه لم يجد نقوشا تعاونه فى البحث ، كما أنه لم يجد عظاما أيضا . والسبب فى ذلك أن التربة هناك لا تساعد على حفظ العظام .

ويعتقد ليكى أن انيجاروكا هذه تم بناؤها منذ ثلثمائة سنة تقريبا ، وربما قبل ذلك التاريخ . وربما بناها شعب المبولو ، الذى يقطن المناطق المجاورة ، وربما كان الماساى قد أغاروا عليها من الشمال وأشاعوا فيها الخراب وقتلوا سكانها وقد أشار « فوسبروك سنة ١٩٣٨ الى التشابه الغريب بين أطلال اينجاروكا ومبان أخرى حجرية فى قرى « سونجو » التى تبعد خمسين ميلا عنها . وقال ان تقاليد الماساى تربط بين سكان « انيجاروكا » وسونجو »

وتعتبر مدينة « انيجاروكا » الاثرية من أهم الاكتشافات فى شرقى أفريقيا ، وسواء أكانت تعودالىعصر متأخر نسبيا أم لا فانهاتتصل ولا شك بالحضارة الآزانية فى كينيا كما أشار « هنتنجفورد » الى ذلك فى سنة ١٩٣٣ وأهميتها تتلخص فى أنها توضح لنا أساليب حضارات العصر الحديدى فى افريقيا وكيف نمت وازدهرت خلال العصر الوسيط وما قبله فى كينيا وتنجانيقا وداخل افريقيا فيما وراء الساحل . وهنا نتساءل ، هل كانت هناك صلة بين حضارات الساحل هذه والحضارة الآزانية فى الداخل ؟ هل عاونت الاولى الثانية فى حصولها على العاج والحديد وهل كان التجار على الساحل يجلبون بضائعهم من مدن مثل اينجاروكا ؟ اننا لا نستطيع أن نجد أجوبة شافية فى هذا الصدد بيد أننا لا نستطيع أن نذكر الصلة التى كانت موجودة بين تجار الساحل والداخل .

وتروى قصص التجارة فى كتاب « بير بولوس » الذى سبقت الاشارة اليه أن الصلة كانت دائمة بين المستعمرات الساحلية وبين الممالك الداخلية . فقد وجدت أوانى فخارية فى ساحل كينيا ؟ ترجع

تواريخها الى القرن الرابع عشر الميلادى وما قبل ذلك . وهى تشبه ما تم العثور عليه فى « زمبابوى » و « ماجونجوبوى »

وقد كانت مدينة « كيلوا » فى العصر الوسيط تقع على الساحل على نهاية طريق قديم من طرق القوافل يربط بينها وبين منطقة البحيرات العظمى وربما الى أبعد من ذلك . وحتى الآن لم يجد علماء الآثار أجوبة على تفاصيل العلاقة بين الساحل والداخل والى أن يتمكنوا من الاجابة عن هذه الاسئلة فانه من الثابت برغم ذلك بالشواهد الاثرية ، أن شعوبا على قدر من التدين والمهارة فى استخدام الحجارة وممارسة الزراعة على سفوح الجبال وبناء المساكن وصناعة الحديد والمعادن الاخرى قد عاشت فيما يلى الساحل من الصومال الى موزنبيق . هذه الشعوب كانت على الارجح من « الزنج » الذين كانوا وحاكمهم فى الجنوب يصدرون تجاراتهم الى المناطق الساحلية . « واكبليمى » الذى وصفه السعودى فى كتابة « مروج الذهب » من الف سنة .

٣ ـ طرق كينيا القديمة :

تختفى آثار حضارات القرون الوسطى فى شرقى افريقية ، كلما زاد عدد سكانها ونمت الزراعة ، ولم يكتب كثيرون عن هذا الموضوع ، الا أن ويلسون تحدث فى كتابه سنة ١٩٣٢ عن ثلاث مساحات رئيسية للزراعة على جوانب التلال فى تنجانيقا حول بحيرات «ناترون» « وآياسا » الى الشمال وبالقرب من حدود كينيا ، والى الشرق بين كيلازا » « وكياكى » .

وقد أشار ويلسون الى أن الاهالى ما زالوا يزاولون هذا النوع من الزراعة على سفوح التلال . وقد وصف هذه المدرجات المزروعة فقال ان عرض أكثرها ارتفاعا يبلغ حوالى قدم ، والمسافة بينها حوالى ثلاثة أقدام وأن طرقا كثيرة كانت موجودة ـ ومدرجة يبلغ عرضها من عشر أقدام الى اثنتى عشرة قدما . ويعتقد ويلسون أن ـ أطول هذه الطرق الآزانية ربما كان يربط ما بين رأس بحيرة نياسا فى اتجاه « أبو كورن فى روديسيا الشمالية » وبين « آروشا » ونيرونى فى مرتفعات كينيا البيضاء حتى انها كانت تمتد قرابة خمسمائة أو ستمائة ميل من الشمال الى الجنوب . وقد أشار « وورسلى » و « ورامبورجر » الى هذه الطرق فقال « ان عرضها حوالى تسع أقدام وأن قطعا من الحجارة كانت تحدد كل طريق » . ويعتقد ويلسون أن هذه الطرق توحى بنظام للمواصلات يمتد من الشمال الى الجنوب على الساحل الشرقى للبحيرات العظمى الا انه يقول انه لم يستطع تحديد الطرق التى كانت تؤدى الى الساحل ، الا أنه لا حاجة به لاثبات وجود الطرق الساحلية التى أيدتها الشواهد الاثرية كما أسلفنا ، فى التشابه بين الآنية الفخارية فى « مالیندى » ـ «وزمبابوى» ولم تجر حتى الآن اكتشافات اثرية وافية فى هذا الموضوع تزيد من معلوماتنا .

وفى كينيا وجد « هنت تجفورت » آثارا وسط الخضرة الزراعية حيث عاش شعب كبير فى منازل من الحجارة ذات أنماط كثيرة « فى مناطق يعيش فيها الاوربيون الآن » تحيط بها أسوار دائرية من الحجارة ، ولاحظ نوعا من التخطيط فى بناء هذه المساكن التى كانت تربط بينها طرق عدة . وكانت هذه الطرق تتدرج فى ارتفاعها وهى تمر بسفوح الجبال وتخترق أراضى المستنقعات على جسور أعدت بعناية فى كينيا وتنجانيقا . وكانت الزراعة والرى تعتمدان على قنوات ومدرجات وأسوار وحتى الآن لم يعثر فى كينيا على قنوات قديمة الا فى « ناندى » وأحسن مثال شهدته هذه القنوات واحدة عمقها خمس اقدام وعرضها ثلاث أقدام ومازالت شعوب السوك فى « ماراكت تستخدم هذه الاساليب فى الرى » .

وفى سنة ١٩٢٨ أشار والسون الى الآبار التى عثر عليها محفورة وسط الحجارة الجيرية ، ويتراوح عمقها بين ١٦ الى ٤٠ قدما ومازال الرعاة فى افريقيا يستعملونها الى اليوم . الا أنها مظهر آخر للحضارة الازانية . وقد أرجع الكثيرون بعض مظاهر هذه الحضارة الى ظروف طبيعية ، على حين أرجعها الاخرون الى ظروف حضارية وانتصر الرأى الاخير بالشواهد التى تم العثور عليها والتى تشير الى شعب زراعى عاش عصر الحديد فى سهول هذه المناطق .

٤ ـ التاريخ الآزانى :

كان هؤلاء الزارعون أو الآزانيون كما يطلق عليهم « هنتنجفورد » على قدر من الحضارة تؤيده كل هذه الآثار التى تم العثور عليها . أطلال مساكنهم ومدنهم ومدرجاتهم الزراعية ؛ ووسائل ريهم ، وطرقهم ، وقنواتهم ، وصناعاتهم الحديدية والمعدنية ، ونقوشهم على الحجارة . ولايمكن القطع بوسائل الاتصال والتجارة بين هذه الشعوب وبين الاحتكارات التجارية على الساحل فحين قدم الاوربيون لاول مرة الى الساحل الافريقى ، وجدوا أن شعوب الساحل ، وخاصة السواحيليين يحتفظون بأسرار هذه التجارة مع الداخل ويحتكرونها . وهذا يدل بدوره على صلة قديمة بين الساحل والداخل ، كما ورد فى كتاب « بيربيلوس » . واذا كنا لا نعلم الا القليل عن الشعوب التى كانت تعيش فى الداخل خلال عصر التجارة العظيم ، فهذا لايعنى أن التجارة نشأت فجأة ، ولم تسبقها فترة من النمو بين شرقى وجنوب شرقى افريقيا .

وقد عاصرت هذه الحضارة تأسيس « ريمبابوى » خلال حضارة الآزانيين ونموها كما تشير الى ذلك الاوانى الفخارية التى عثر عليها . واذا كانت شعوب الساحل قد حجبت هذه الشعوب فى الداخل لاحتكار تجارتها الا أنها لم تستطع أن تحجب شعوب الجنوب التى كانت أكثر تقدما فى عصر الحديد مما أدى بنا الى معرفة الكثير عنها . وقد حدد « هنتنجفورد » سنة ٧٠٠ ميلادية تاريخا تقريبيا لبدء استخدام الحجارة فى البناء واستخدام المعادن والحضارة الزراعية

فى كينيا وتنجانيقا . غير أن هذا التاريخ يشوبه الكثير من الغموض لاننا لم نعثر على أدلة كافية . ولان هذه الحضارة كانت ولاشك نتاج تطور متصل لا ظاهرة عرضية مفاجئة . وربما كان هذا التطور يرتبط بالحركة القادمة من الشمال ، وربما يمكن ارجاع أصولها الى جنوبى اثيوبيا ، حيث يحتفظ شعب « الكونسو » و « الكافا » على سبيل المثال ببعض المظاهر التى تميز الحضارة الآزانية حتى الآن .

ويقرر « هنتنجفورد » أننا يمكن أن نستخلص من ذلك وجود حضارة ازدهرت فى القرن الافريقى فى حوالى القرن السابع الميلادى ، وانها تأثرت كثيرا بحضارة سبأ وآكسوم ومرو ، وأن انتشار الاسلام أنهى هذه الحضارة وصانعيها الذين تقهقروا صوب الجنوب الى كينيا حيث لم ينتشر الاسلام الى أبعد من ذلك جنوبا وأن هذه الحضارة انتهت حوالى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، وربما قبل ذلك . « ولايتعارض تاريخ القبائل مع هذه النظرية ، فبينما تردد الاساطير القبلية فى غربى افريقيا قصص الاجداد القادمين من الشرق ، تروى الاساطير القبلية فى شرقى افريقيا عن الاجداد الوافدين من الشمال . ونحن لانقصد أن الاساطير القبلية يمكن أن تعتبر اثباتا علميا للحقيقة . الا أنه من الثابت أن أنماطا من الثقافة والتفكير وصلت الى الآزانيين من الشمال ، وهم بدورهم غيروا فيها وأضافوا اليها حتى تلائم حياتهم . ويمكن هنا أن نشير الى أطلال « انجوداكا » التى ربما عادت اصولها الى أثيوبيا .

٥ - الازانيون .. من هم ؟

كانت الفترة مابين سنة ٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ ميلادية تمثل قمة ماوصلت اليه التجارة من ازدهار بين شرقى افريقيا والدول البحرية فى المحيط الهندى فى الالف سنة الاولى التي تلت ميلاد المسيح ، وكانت تمثل ايضا قمة ماوصلت اليه حضارة عصر الحديد فى شرقى وجنوب افريقيا ، وقدادى هذا الازدهارالى تطور اجتماعى واقتصادى كبير وادى ذلك فى الجنوب الى سرعة استخدام الحديد وتقدم الزراعة وتطور المجتمعات القبلية وبداية الاستقرار الذى ساعد عليه تزايد الطلب من الساحل على المنتجات فى داخل القارة مثل العاج والحديد والذهب والبضائع الاخرى . وتمثل « انجوراكا » نهاية مرحلة من التطور الحضارى البعيد فاذا أخذنا بقول « ليكى » من أن عدد سكانها بين ثلاثين وأربعين ألفا فان فلورنسا وصل عدد سكانها فى هذه الايام نفسها الى ستين ألفا . هذا اذا كانت المقارنة عددية فحسب . ولم يكن من الممكن لهذا العدد الكبير من السكان بطبيعة الحال أن يعيش دون معرفة بالزراعة والمهارة فيها كما تؤيد ذلك الشواهد فى « اينجوراكا » . ولم تظهر بعد كل الشواهد التى تبين مدى ما وصلت اليه هذه الحضارة الا أن ما أمكن الحصول عليه من شواهد يشير الى نهاية تطور حضارى طويل ، فلقد كانت الزراعة هناك قادرة على انتاج فائض من الطعام يكفى سكانها وعمالها الكثيرين

ـ ذلك أنهم لم يعيشوا بالطبع بمعزل عن العالم ، فلقــد كان الناس يسافرون فى طرق ممهدة تمتد شمالا وجنوبا ـ ثم يستقرون فى قرى هذه المدينة وما حولها ـ وقد تم اكتشاف مطاحن حجـرية وأدوات زراعية أخرى كما تم العثور على أدوات حديدية وكميات كبيرة من الاوانى الفخارية ذات ـ المستوى الفنى الرفيع .. فمن كان هؤلاء الناس ؟ ولماذا توقف نموهم ؟ ربما استطعنا أن نجيب على الشــطر الثانى من السؤال على أسس سليمة مقنعة أكثر مما نستطيع بالنسـبة للشطر الاول منه .. فمنذ حوالى القرن الرابع عشر بدأ شرقى افريقيا يعانى سلسلة متوالية من الغزوات والهجرات من الشــمال كانت تتكون أساسا من الرعاة الرحل الوافدين من « القرن الافريقى » مثل قبائل الجالا والصوماليين . والماساى وغيرهم . ويبدو أنهم تغلبوا على . ـ « الآزانيين » . المتفرقين وأخضعوهم لسيطرتهم . وأن كان ذلك لم يتم الا بعد فترة متأخرة نسبيا لاننا نفترض أن « اينجوراكا » كمدينة ليست موغلة فى القدم ، وقد هزم الاكثر حضارة كما يحدث كثيرا فى التاريخ على أيدى أناس اقل منهم حضارة وتغلبت خشونة الرجل على هدوء واستقرار المتحضرين .

وقد كتب ابن خلدون حوالى هذه الازمنة أنه كلما تقابل جانبان على قدر متساو فى العدد والقوة ؟ فان الجانب الاكثر خشونة وبداوة يتغلب على الجانب الآخر . وقد كان الآزانيون قوما رتبوا حياتهم فى السلم والحرب متبعين تقاليد زنوج البانتو فى الاستقرار . على حين كان الرعاة يتحركون بسرعة ويقاتلون بجماعات كبيرة . وقد حدث هذا الشيء نفسه بالنسبة لرعاة « باهيما » الذين غزوا أوغندة حوالى القرن الرابع عشر وتغلبوا على زارعيها المستقرين هناك ، والذين كانوا يمتلكون الارض . وقــد أشار « كرازولارا » فى مؤلفه عن هــجرات « اللوو » الى هجرات الرعاة المتجهة الى الجنوب والى الاخطــار والمصاعب التى مروا بها وهم يجتازون حوض النيل الاعلى ؟ ويدخلون بلادا لم يعرفوها من قبل ويتغلبون على الشعوب التى كانت تعترض طريق تقدمهم .

كل هذا يشير الى الاجابة عن الشطر الاول من السؤال . وهو الخاص بأصل الآزانيين غير أنه لا يمدنا بمعلوماب كافية عنهم . فلم يكونوا هم المهاجرون الذين قدموا من الشمال فى أوقات متأخرة بل على العكس من ذلك ؟ لقد تغلب عليهم هؤلاء المهاجرون « كاباهيما » والماســـاى واللوو وذلك خلال قرون طويلة لان الباهيما بلغوا ذروة قوتهم فى أوغندة حوالى ١٦٠٠ م على حين لم يبلغ الماساى ذلك القــدر من القوة فى كينيا وتنجانيقا حتى سنة ١٨٥٠ .

وعلى الساحل كان السكان الســواحليون وجــيرانهم الذين يتحدثون بالبانتو والذين أطلق عليهم السواحليون بعد ذلك اســم « واناتيسيكا » الذى تحول بعــد ذلك الى تنجــانيقا ، وربما كان

الآرابيون فى الداخل من بين الشعوب التى تتحدث بالبانتو . الا أن ذلك لا يحدد جنسهم بالضبط وربما كانوا من البوشمن من سلالات زنجية غير خالصة . وربما كانوا مزيجا من شعوب افريقية كثيرة . ولكن المؤكد أنهم كانوا شعبا افريقيا خالصا . وكانوا على قدر من الحضارة والثقافة أعظم من البربرة الذين تغلبوا عليهم كما تشير الشواهد الى ذلك .

وكان الزارعون من بين شعوب افريقيا ـ ينظرون الى الحدادين ـ نظرة اعجاب واحترام شديدين ، بل كانوا يعتبرونهم طبقة متميزة . وحين قدم البرتغاليون الى الكنغو فى نهاية القرن الخامس عشر ، وجدوا ملوك الكونغو ينتمون بحكم التقاليد الى رابطة .. الحدادين ! ذلك أنهم كانوا يعتبرون هذه الصناعة سرا يحتفظون به . وفى بعض مناطق « الزولو » كانت المعرفة بصناعة الحديد مقصورة على عائلة واحدة يتوارثها أبناؤها جيلا بعد جيل . وقد كتب « جرايولى » عن غربى افريقيا يقول « ان صناعة الحديد من أهم الصناعات القائمة فى السودان الغربى وان فئة الحدادين فئة مكرمة . ولم يكن هؤلاء الحدادون يتقاضون أجرا من الزراع عن الآلات الزراعية التى يصنعونها أو يصلحونها .. ولكنهم كانوا يحصلون على قدر معين من المحصولات يعادل جهودهم ..

وبعد أن تغلب شعب باهيما على أوغندة واقام من امبراطورية « كيتواردا » حاكما على هذه المنطقة ، أخضع الصناع لسلطانه ، وقسمهم سبع فئات وكان الحدادون يكونون جزءا هاما من هذا التقسيم . وقد حرم « الباهيما » التزاوج بين الغالب والمغلوب ، الا أن ذلك لم يسر دائما بالطبع . وحرموا المغلوبين تملك البقر ، وحالوا بينهم وبين الوظائف ذات الاهمية والنفوذ . وكان المغلوبون وهم شعب « البايرو » يقدمون الطعام والعمل لغزاتهم . ولم يختلف موقف الاوربيين كثيرا عندما قدموا الى شرقى افريقيا !!

وبهذه الطريقة تغلب البرابرة من الشمال على الحضارة النامية ، وعجلوا بنهايتها ولو كانت الحضارة القائمة أكثر رسوخا لأمكنها أن تستوعب الغزاة وتطورهم وتجعلهم جزءا منها . الا آن نسيج الحضارة بشرقى افريقيا كان جديدا وضعيفا وبسيطا . فكانت هذه الضربات من الشمال قاضية عليها . وقد ساعد على هذا الانهيار للحضارة الآزانية انقطاع التجارة بينها وبين المحيط بعد تدخل الاوربيين فى هذه التجارة بعد سنة ١٥٠٠ .

الا أن مظاهر من هذه الحضارة تتضح هنا وهناك . كما أن التجارة على الساحل استمرت فى نطاق ضيق . وقد كتب « ديتس » سنة ١٨٢٤ عن معرض تجارى ـ فى « كاواجونفو » بالقرب من قلب القارة الافريقية اقامه الافريقيون وأشار الى المصنوعات الحديدية والعاجية والماشية التى كانت تكون الجزء الرئيسى من هذا المعرض .

وكان العــرب يفضلون شراء الحــديد من هـــذا المعرض عن شرائه من السويد !

على ان هذه الحضارة لم تتطور الا فى روديسيا وموزمبــيق والترنسفال وذلك تحت تأثير ظروف أخرى وهجـــرات متتابعة . وكانت هذه الحضارة فى الحقيقة جديرة بأن تحتل مكانا عظيما بين حضارات عصر الحديد ، استنادا الى ما تم اكتشافه من آثارها . ان افريقيا قد أسهمت بجانب كبير فى قصة التطور الانسانى مهما يكن نوع هذا الاسهام .

الفصل التاسع

بناء الجنوب

١ ـ أرض عظيمة ممتدة :

كتب « باربوزا » سنة ١٥١٧ عن ساحل موزبيق قال « تقع خلف هذه البلاد الى الداخل « بينا ميتابا العظيمة » وهـــذه المملكة الوثنية هى نفسها التى أطلق عليها المراكشيون مملكة الكفار (وسكانها رجـال سود يسيرون عراة) وقد حاول بعض البرتغاليين بعد ذلك أن يقوم بمحـاولة جريئة للوصول الى هذه المملكة الداخلية التى سمع عنها الكثير وحاولوا التوغل فى الداخل والتقوا برسل هذه المملكه الذين كانوا يرتدون جلود الحيوانات • ويتجهون الى سوفالا لشراء الملابس القطنية والحريرية وكان بعض هؤلاء الرسل من النبلاء الذين يجرجرون أذيال ثيابهم خلفهم وهم يسيرون فى كبرياء ووقار (سيوفهم مدلاة داخل أغماد خشبية محلاة بالـذهب أو بمعادن أخرى وكان بعضهم يحمل أقواسا وسهاما متوسطة الاحجام وتبدو عليهم مظاهر القوة والسرعة فى القتال وكان بعضهم من كبار التجار) •

كانت الاحاديث تدور عند الشاطىء عن ممالك كثيرة فى الداخل ولكنها كانت جميعا تشير الى « بينا ميتابا » كأعظمها وأقواها (فهى تقع على مسافة خمسة عشر أو عشرين يوما الى الداخل حيث ينتهى المسير الى مدينة زيمبوكى ذات المنازل المتعددة من الخشب والقش وسكانها وثنيون) •

وتقع « بينا ميتابا » هذه على مسيرة ستة أيام من هذه المدينة ويوجد طريق فى الداخل يربط بين سوفالا ورأس الرجاء الصـالح وفى مدينة بينا ميتابا يعيش الملك فى قصر عظيم ويحمل اليه التجار البضائع المختلفة التى يجلبونها من التجار المراكشيين فى مقابل الذهب ، وكان هؤلاء يحصلون على الملابس الملونة والمسابح التى كانت تلقى لديهم رواجا كبيرا ، واليوم تقع الاطلال الضخمة لمدينة زيمبابوى فى جنوب شرقى روديسيا على بعـد ٢٥٠ ميلا من ميناء سوفالا القديم ولهـذا لا نستغرب أن هؤلاء الرجـال الاشداء والتجار كانوا يستطيعون الوصول الى الداخل بعد رحلة تستغرق ٢٦ يوما ويذكر لنا (ديموس) الذى ولد سنة ١٥٠١ • وهى السنة التى أبحر فيها نفسها باربوزا الى المحيط الهندى للمرة الاولى • يقول : هنـاك قلعة مبنية من الحجارة الضخمة التى لا تتخللها مادة بناء لاصقة وفى هذا السهل نفسه توجد قلاع أخرى بنيت « بالطريقة نفسها وبها قواد الملك وليس هناك ما يدل على أن البرتغاليين أو أى أوروبى قد وصل الى زيمبابوى

العظيمة وان كانوا فعلوا فاننا لا نملك ما يثبت ذلك ولكنهم بلا شك كانوا يعرفون الكثير عن هذه القلاع التى فى الداخل وقد كتب « دهباروس » عن سكان هذه البلاد ومبانيهم ولغتهم (حيث ان الملك يستحوذ على كل المنشآت والمبانى « وما زالت هناك مبان حجرية كثيرة وعظيمة تدل على المهارة فى البناء فى جنوبى أفريقيا الى يومنا هذا ، وكانت جوانب الجبال مدرجة ومزروعة على طريقة الازنيين فى شرقى افريقية ، وقد تم العثور على مصنوعات معدنية (حوالى ٦٠ ألف أو سبعين ألف قطعة) وتوجد أغلب أطلال هذه المبانى داخل مساحة الارض التى تمتد فى الوسط والجنوب وتضم روديسيا والحافة الجنوبيةللكونغو والحدود الغربية لموزمبيقوشمال الترنسغال ومن المؤكد أن الابحاث التى تجرىفىهذه المنطقة سوفتوضح لنا المزيد من هذه البلاد بيد أننا يجب أن نوضح أن كل هذه الآثار ليست من صنع مملكة واحدة وربما كان ملك « بينا ميتابا » يبسط نفوذهالمباشر أو غير المباشر على كثير من هذه الممالك التى أصبحت فيما بعد موزبيق وروديسيا فى وقت ما الا أن هذه البقايا التى تشير الى حضارة « زمبابوى » تعتبر سجلا لحضارة طويلة معقدة ونمو اجتماعى وسياسى مضطرد فقد امتدت حضارة عصر الحديد فى جنوبى أفريقيا عدة قرونوربما تكون هذه القارة قد بدأت منذ أكثر من ألف عام ، وربما تكون أصولها قد امتدت كذلك عبر سنين طويلة ونشأت على أنقاض حضارات أخرى أكثر قدما فى القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد حيث كانت الاكواخ تبنى من الطين والقش ٠

أما المبانى الحجرية والاسوار العظيمة لمدينة « زيمبابوى » فلم تتم الا سنة ١٩٥٠ أما « زيمبابوى » نفسها فهى عاصمة لنظام من الاقطاع القبلى ساد هذه البلاد وازدهر حوالى سنة ١٢٥٠ وحتى سنة ١٩٥٠ وهناك موقع أثرى هام هو « مابونبوبوى » الذى يقع الى الجنوب فى « زيبابوى » على الضفه الجنبية لنهر « ليمبوبو » فى الترنسغال والذى نشأ على الارجح قبل سنة ٩٠٠ م ولم يصبح مهجورا الا فى القرن الثانى عشر ٠

زيمبابوى :

زيمبابوى العظيم عبارة عن مجموعة من الاطلال الحجرية التى تبعد سبعة عشر ميلا جنوبى شرق بيرت فيكتوريا وعلىبعدأميال قليلة منالطريق الرئيسى الذى يربطسالسبورىعاصمة روديسيا الجنوبية وجوهانسبورج فى جنوبى افريقيا وهذه الاطلال لها شهرة واسعة بين الاطلال الكثيرة فى روديسيا لدقتها وفخامتها وحوائطها المرتفعة وأبراجها وبواباتها الدائرية وما تدل عليه من نظام مستقر قوى وموحد ومنظم ٠

وهناك بناءان من بين هذه الاطلال يقعان خارج باقى أطلال المدينة ويعرفان بالاكروبوليس ٠

وأول هذه الابنية كان فيما يبدو موقعا دفاعيا على قمة « تل » أما الآخر فيبدو أنه كان معبدا يقع على السهل المجاور وكل هذه الابنية مصنوعة من حجارة الجرانيت المجلية التى كانت تستخرج من التلال

المجاورة وكلها أيضا تنبىء عن القوة والعظمة وتبدو هذه الابنية لاول وهلة كما لو كانت من أبنية حضارة البحر المتوسط في أوروبا . فحجارتها بعضها فوق بعض دون أن تلتصق بمادة بناء كما نرى فيما خلفته الحضارة الآزانية ، وأطلال جبل أورى في دارفور . ولكن الشيء الذى يميزها عن غيرها تلك السعة والفخامة التى تتميز بها حجراتها وكأنها محاولة من أصحابها لأن يبنوا بالحجارة نفس ماكانوا يبنونه من أماكن متسعة ييسرها لهم استخدامها وهى تكشف عن دقه وقوة فى هذا المجال الذى يكشف بدوره المخلفات الحجرية التى جاءت نتيجة اهتمامهم بتسوية الحجارة قبل استخدامها وهى تكشف عن دقة وقوة فى هذا المجال الذى يكشف بدوره عن حضارة مزدهرة لعصر الحديد بدأت فى الالف الاولى بعد الميلاد تماما كما كان الامر بالنسبة للسودان الغربى ، وهو أمر يدل دلالة واضحة على رغبة أصحاب هذه المبانى فى الدفاع عن أنفسهم ضد المعتدين ، ويدل كذلك على ما أتاحته حضارة عصر الحديد من تركيز للقوة والسلطة وحياة اجتماعية جديدة الى جانب مزيد من الخيرات والافكار فى هذا الجزء من العالم طارت شهرتها جميعا حتى بلغت الساحل مع قوافل التجارة وانتقلت عن طريق التجارة البحرية الى أوروبا التى بدأ مثقفوها يقتنعون تمام الاقتناع أنه قد تم العثور أخيرا على عرش « برسترجون » (ملك افريقى عظيم فى أساطير أوروبية عن افريقيه أراد أن يوحد كل الممالك من حوله . ومهما كان الامر بالنسبة « لبرسترجون » هذا وسواء أكان هو برسترجون نفسه ملك المملكة المسيحية المفقودة التى ترددها الاسطورة أم غيره فان « موفوموتاجا » كان ولا شك على رأس نظام عقائدى لا يمكن اغفاله وان كان سيد افريقية من الداخل ولكنه كان أيضا سيد دولة قوية ذات نظام قبلى اقطاعى امتدت سيطرته عبر أرض لا تقل سعتها بحال من الاحوال عن امبراطورية مالى التى ورثها كانكمان موس الذى سبقه بقليل .. وربما لم يكن بلاط الملك مونوسوتابا متأنقا مثلما كان بلاط الامبراطورية الرومانية المقدمة أو كما كان بلاط انجلترا فى الازمان الغابرة .

وربما كان خدمه من الأميين ولكن ذلك لا يعنى بحال من الآحوال أن هذا البلاط لم يكن مثيرا ومسترعيا للنظر بالنسبة لاولئك الذين عاشوا فى هذه الايام .

ولم يثبت لنا حتى الآن أن أوروبيا واحدا قد وصل الى هذا البلاط فلم يأت الى هذا المكان من العالم الخارجى الا التجار والمسافرون من الساحل من الافريقيين والعرب الذين لم يكتبوا شيئا عن زياراتهم ، وظلت طبيعة هذه الحضارة الداخلية بآلهتها وعاداتها وأفكارها وتقاليدها ونموها الاجتماعى تتطور فى محيطها الداخلى . والواقع أنها قد حققت فعلا تطورا عظيما ولكنه لم يكن تطورا جذريا يخل بالتقاليد المتوارثة عبر السنين لان الحضارات الخارجية لم يكن لها تأثيرها الكافى فى هذه المنطقة ولكن الشواهد تظل باقية ترمز الى عظمة بناة هذه الحضارة فى الجنوب رغم عزلتهم .

٣ – كنوز الملك سليمان :

عندما شاهد الاوروبيون « زيمبابوى » لاول مرة لم يصدقوا ما رأوه
من أن الافريقيين هم الذين بنوا الاسوار العالية والقصور الشامخة هناك،
وكان الصيادون والباحثون عن الثروة والرواد يذكرون مايشاهدونه فى هذه
الارض الشاسعة من عجائب وغرائب ، فقد كانت المبانى هناك ترمز لحضارة
عظيمة تضرب أصولها فى التاريخ البعيد حينما كان الانسان يبنى أكواخا
بالطين والقش ولم يصدق واحد منهم باستثناء سيلوس – أن الافريقيين
استمروا فى بناء منازلهم من الحجارة حتى نهاية القرن التاسع عشر الا أن
الغالبية استبعدت آراء « رندرز » وهو صياد جوال رأى « زيمبابوى » سنه
١٨٦٨ ، وموخ وهو جيولوجى ألمانى وصل الى زيمبابوى سنة ١٨٧٢ ، وأعلن
لدى عودته أن الآثار التى شاهدها من صنع شعب متحضر عاش قديما فى
هذه الجهات .

لقد كانت القلعة التى شاهدها « موخ » على التل نسخة من معبد الملك
سليمان على جبل « موريا » فى حين كان البناء العظيم فى الوادى نسخة من
قصر ملكة سبأ الذى عاشت فيه فى بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد
ولم يضف زائرو هذه المناطق معلومات أكثر من التى ذكرناها حتى سنة
١٨٩٠ حين عسكرت سرية من الجيش البريطانى الذى كان يغزوا بتشوانالاند
على بعد سبعة عشر ميلا من زيمبابوى العظيمة فقد كتب واحد من أفراد
هذا الجيش يقول : « ان الانجليز يفتحون مرة أخــرى كنز التاريخ » ثم
استطرد يقول : « اننا نتوقع صورة الملكة فيكتوريا محفورة على الذهب الذى
ناء بحمله عرش الملك سليمان وتوج به أعمدة معبده .

وكان لهذا الرجل عذرا فيما قاله فقد استعار البرتغاليون من قبل أسطورة
عربية تربط بين ذهب « سوفالا » وذهب « أوفير » ولقد كان هؤلاء الرواد
الاوائل سنة ١٨٩٠ يطمعون فى العثور على الذهب ولم يصدقوا أن هــذه
الآثار والاطلال بنتها شعوب افريقيا اذ تعودوا دائما أن ينظروا اليها باحتقار
ويصفوها بالبدائية والهمجية . وقد زادت الحروب والغزوات من هــذه
النظرة .

فقد كتب مراسل «ماتابيلى تايمز» يقول : « ان نظرية اصطياد الزنوج
عند رؤيتهم لم تكن تعدو أن تكون وسيلة للتسليه .. فقــد كنا نحرق
قراهم لمجرد أنهم من الاهالى الوطنيين . وكنا نطلق عليهم الرصاص لا لسبب
الا لانهم سود » .. ولهذا لم يتصور هؤلاء الغزاة أن شعوب هذه المنطقة
بنت « زيمبابوى » ذات الحضارة العظيمة . وقد اندفع الاوروبيون بعــد
ذلك وهم يتبعون أسطورة ذهب « أوفير » الى مناطق « بتشوانالاند ...
وفى سنة ١٩٠٠ وما قبلها بقليل طالب ١١٤٫٠٠٠ من الاوروبيين بمواقع
تحوى أرضها ذهبا . وسجلوا طلباتهم فى فاشونالاند « وماتابيلى لاند» وكان
أكثر من نصف هذه الطلبات يعتمد على المواقع القديمة التى قيل ان سليمان
كان يحصل منها على الذهب . وقد أضاع هذا الاندفاع نحو الــذهب
الشواهد الاثرية القديمة التى كانت لا تزال باقية حتى ذلك الوقت .

ولقد بدأ مكتشفه يدعى « يوسلت » نهب هذه الآثار والاطلال من سنة ١٨٨٨ ٠ وبرغم انه لم يعثر على ذهب كثير ، الا أنه وصف الآثار هناك ، ولاحظ أن الحمالين كانوا ينظرون اليها باحترام وخشوع — كانوا يجلسون ويحيونها بالتصفيق وفى سنة ١٨٩٥ أسس نيل وهو أحد المغامرين شركة مع اثنين من أصحاب رءوس الاموال فى جوهانسبرج (موريس جيفورد وجيفرسون كلارك) أسموها شركة « الاطلال القديمة » حصلت على تصريح بالتنقيب عن الآثار القديمة جنوبى نهر الزامبيزى ٠ وقد حلت هذه الشركة سنة ١٩٠٠ بأمر من « سيسيل رودس » ولكن الضرر كان قد وقع ٠٠ فلم يلق هؤلاء المغامرون بالا للاطلال أو لأى شىء سوى الذهب ٠ وقد قرر « نيل » هذا سنة ١٩٠٢ ، أنه نقب فى ٤٣ موقعا من مجموع ١٤٠ موقعا كان يعرف مقدما أنها موجودة ٠ ورغم أنه لم يعثر الا على ما زنته ٥٠٠ أوقية من المصنوعات الذهبية الدقيقة مما يعتبر ذا قيمة أثرية أكثر منها مادية ، الا أن أحدا لا يعرف مدى ما عثر عليه بالضبط أمثال « نيل » من آثار ومصنوعات ذهبية صهروها وفقدت الى الابد ٠٠ أو مدى الخسارة والخراب الذى حل بهذه الاطلال ٠ غير أن الكنوز التى عثر عليها العلماء فى « مايونجوبوى » شمالى الترنسفال بعد ذلك بأربعين عاما تشير الى مدى عظمة هذه الآثار التى حطمها الغزاة الاوروبيون ٠

وهناك رأيان يتعلقان بهذه الآثار ٠ الرأى الاول يقول : ان عمر هذه الآثار ثلاثة آلاف سنة على الاقل ٠ وأن هناك فترتين من البناء ٠ الاولى ترجع الى سبأ وتمتد من ٢٠٠٠ الى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، والفترة الاخيرة فينيبقية من ١١٠٠ قبل الميلاد الى وقت قصير قبل العصر المسيحى ، وبعكس هذا الرأى الرواد الاوائل الذين لا يرجعون هذه الآثار للافريقيين الوطنيين ولا يصدقون أنهم شاركوا فى بناء هذه الحضارة والرأى الآخر لا يمت للخيال بصلة ٠ مثل الرأى الاول ٠ وهو يبحث فى أصل هذه الآثار نفسها وينادى بأن هذه الحضارة افريقية خالصة بناها اسلاف الافريقيين الذين يحكمهم الاوروبيون اليوم ٠ وترجع الى تاريخ يقارب تاريخ غزو النورمانديين للساكسون فى انجلترا ٠

٤ — الحكم من الادلة :

وقد نادت هذه المدرسة الاثرية العلمية بهذا الرأى على لسان « دافيد راندل ماكيفر » وهو من علماء الآثار المصرية الذين نقبوا فى اطلال روديسيا الجنوبية وقد توصل ما كيفر ٠ الى أن « زيمبابوى » العظيمة وأشباهها ذات أصل افريقى يرجع الى العصور الوسطى أو ما بعدها ٠ وقد بنى رأيه هذا بعد التنقيب فى سبعة مواقع من هذه الاطلال ٠ وقال ان الطراز الهندى للمبانى سواء أكانت عسكرية أم مدنية لا أثر فيها للطابع الشرقى أو الاوروبى فى أى فترة من فترات التاريخ ٠ كما أننا نلاحظ أن طابع المساكن التى كانت تحيط بها أسوار حجرية وتكون جزءا لا ينفصل عنها كان طابعا افريقيا خالصا ٠ ونلاحظ أيضا فى الاشياء التى تم العثور عليها باستثناء ما وصل الى هذه المناطق عن طريق التجارة ٠

وقد غضبت المدرسة الاولى من هذا الرأى الذى صدر عن حكم صحيح

لأول عالم متخصص فى الآثار يدرس هذه المناطق . وكان هذا الغضب يخفى وراءه أغراضاً سياسية وعنصرية واضحة . الا أن الجمعية البريطانية أوفدت بعد ذلك بربع قرن بعثة ثانية ترأسها الدكتورة « جرترود كارتون تومسون » للتنقيب فى هذه الآثار وقد جاء تقريرها عن حضارة «زيمبابوى» مؤيدا لما ذكره ماكيفر من قبل ، فقد ذكرت أن الشواهد الموجودة هناك ترجع أصولها لحضارة البانتو « فى العصر الوسيط . كما أكدت أنها لا تستطيع أن توافق بحال من الاحوال على ما تردد كثيرا من ان حضارة « زيمبابوى » ومبانيها قد شادها عمال وطنيون تحت اشراف جنس أرقى قادم من بعيد . وربما كان هناك تأثير قادم من المدن الساحلية من العرب والمسلمين الا أن البناة افريقيون . وقد صمد تقرير « جرترود تومسون » لكل الاعتراضات باستثناء نقطتين تتعلقان بتاريخ هذا العصر . اذ أثبتت الابحاث الراديو كربونية بعد ذلك أن تاريخ البناء والاستقرار بدأ قبل العصر الوسيط الاوروبى . وان سكان هذه المناطق الذين شادوا حضارة « الزيمبابوى » المتقدمة ، ربما كانوا يختلفون عمن خلفوهم من شعوب البانتو فى أنهم كانا خليطا من الهوتنتوت والزنوج . على حين كان أبناؤهم أقرب الى البانتو . غير أن هذا على أية حال لا ينفى أنهم كانوا افريقيين فى المحل الاول . وقد ورد فى كتاب « دى باروس » سنة ١٥٥٢ وكان يسجل كلامه نقلا عما يسمعه وما يشاع أنه فى وسط هذه البلاد ، توجد قلعة مربعة الشكل مبنية بالحجارة ذات الاحجام الضخمة التى تلتصق بعضها ببعض بأية مادة من مواد البناء ، ويبلغ سمك حوائطها خمسة وعشرين شبرا ، وان كان ارتفاعها لا يتناسب مع سمك هذه الحوائط ، وتعلو باب القلعة رسوم محفورة لم يستطع تاجر من التجار المغاربة أن يعرف ماهيتها أو ما ترمز اليه . والقلعة محوطة بمجموعة من التلال تعلوها بعض القلاع الاخرى المبنية بالطريقة التى لا تستخدم مواد البناء اللاصقة .. واحداها عبارة عن برج يرتفع أكثر من اثنتى عشرة قامة .

والوصف على أية حال فيه مسحة من الخيال وربما كان مليئا بالاخطاء . ولكن مما لا شك فيه أنه كان يصف « زيمبابوى » الباقية حتى اليوم . ولو أنه من المؤكد أن الحوائط أعيد بناؤها فيما بعد . وقد دخلت بعض الحواشى فى هذا الوصف مثل الشكل المربع للقلعة . فليس هناك ما يثبت وجود شىء كهذا فى روديسيا . الا أن الشواهد هنا أقوى منها فى أى مكان آخر تم اكتشافه فى الداخل فى كينيا أو تنجانيقا أو أوغندة . والسبب فى ذلك كثرة ما اكتشف فى هذه المناطق ، مما يرجع الى التجارة مع الساحل الافريقى على نطاق واسع . وليس ثمة شك فى ان علاقة وثيقة تربط بين التجارة وبين هذه الآثار الكبيرة التى تم العثور عليها . أشارت « جرترودتومسون » الى أن الصلات التجارية مع الهند كانت قوية ولا شك . وكانت فى اعتقادها السبب الرئيسى لنمو حضارة زيمبابوى فقد نمت مدنية أبناء هذه المنطقة بفضل تقدمهم فى عصر الحديد ، وبفضل الصلات التجارية الوثيقة التى كانت تربط بينهم وبين العالم الخارجى . وقد ازدهرت للاسباب نفسها التى ازدهرت بسببها تجارة الساحل والتجارة عبر الصحراء ، التى كان لها الاثر الكبير فى حضارات السودان القديم .

وقد يتساءل البعض عن سبب تركيزنا على هذه النقطة بالذات . وهي أهمية التجارة بالنسبة لداخل افريقيا أكثر من الساحل .. أو الشمال .. حيث تعتبر هذه المناطق أقرب الى الهند منها في الداخل . والسبب في ذلك أنه ستزيده الاكتشافات المستقبلة وضوحا . غير ان الذهب والنحاس كانا كثيرين في هذه المنطقة الداخلية ولم يكونا كثيرين على الساحل ومن ثم ازدهرت التجارة مع هذه المناطق ، وكان التجار يقدرون أهمية الذهب كما أوضح المسعودي كثيرا في كتابه « مروج الذهب » وكان هؤلاء التجار يترددون كثيرا على الداخل ــ ومن ثم أيضا ــ تركوا تأثيرا بالغا على الحضارة الموجودة هناك ، وساعدوا على تطورها . وقد كانت هذه الحضارة في جنوبي وسط افريقيا حضارة تعتمد على المعادن في نموها ، وكان لابد اذن أن ترتبط بالتجارة على الساحل أشد الارتباط . فقد كانت أهمية هذه المعادن واضحة في كل المنطقة الجنوبية الداخلية من حافة الكونغو حيث كاتانجا اليوم .. الى ناتال وبتشوانالاند التي بقيت مركزا لنمو وازدهار حضارة الزيمبابوى .

٥ ــ روديسيا في العصور الوسطى :

من هم اذن هؤلاء الشعوب ، ليس هناك في الواقع تحديد دقيق يمكن أن تستند اليه الاجابة عن هذا السؤال . تقول « جرترودتومسون » : ان تأسيس زيمبابوى يعود الى زمن ما بين القرن التاسع والثالث عشر . زمن يبدو فيه واضحا استخدام الآنية الفخارية على نطاق واسع . ولكن جرترورتومسون . تعتقد أن بدء البناء في « زيمبابوى » ربما كان قبل ذلك بقرن أو قرنين من الزمان . ومن ثم يمكن أن نقول أن حضارة زيمبابوى تعود الى الفترة نفسها التي كتب فيها المسعودي كتابه « مروج الذهب » وتحدث فيه عن ممالك الزنوج الساحلية ووصف أرض سوفالا التي تنتج الذهب والعجائب الاخرى بكميات وافرة .

ولقد ألقت سلسلة من الاختبارات الراديوكاربونية مزيدا من الضوء في هذا الصدد . هذه الاختبارات التي أجريت في شيكاجو سنة ١٩٥٢ وفي لندن سنة ١٩٥٤ على بقايا خشبية اكتشفت في أساس أحد حوائط مباني « زيمبابوى » فقد عادت هذه الاختبارات بقطعة الخشب الى سنة ٥٩١ ميلادية (مع مائة وعشرين سنة نقصا أو زيادة) والى سنة ٧٠٢ (مع اثنتين وتسعين سنة نقصا أو زيادة) وقد ظلت الابحاث في « زيمبابوى مستمرة ففي سنة ١٩٥٨ ، نقب كل من سمرز وروبنسون في أساس المبنى الذي سمي بالاكروبوليس ، وهو الذي سبقت الاشارة اليه ، وفي أساس بناء آخر على تل مجاور ، في محاولة لاكتشاف الطبقة الحاملة الاساسية لهذه الابنية الضخمة . وكانت « جرترودتومسون » قد أشارت من قبل الى أن هذه الطبقة الحاملة هي من صنع البنائين أنفسهم وليست طبقة من طبقة الارض نفسها وانها قد تعود الى القرنين الثامن أو التاسع عندما بدأ البناءون عملهم . ولكن سمرز وروبنسون أشارا الى أن هذه الطبقة الحاملة تدل على أن قوما آخرين قد استوطنوا هذه المنطقة ووضعوا أسس البناء فيها .

ويشير هذا كله الى أن الشعوب التي عاشت في « زيمبابوى » العظيمة في القرن السادس أو السابع الميلادى ، وربما قبلهما كانت شعوبا على دراية بصناعة الحديد . ويؤكد لنا هذا ما أثبته كلارك في اكتشافاته القريبة من شلالات كالامبو ، من أن هذه النهضة الجنوبية قد دخلت عصر الحديد في الالف سنة الاولى الميلادية .

ولما كنا نعلم الكثير عن تحركات الشعوب الافريقية داخل افريقيا الوسطى الجنوبية في العصور الوسطى وما تلاها . فلا يمكننا على وجه مرضى أن نقرن بين ما أثبتته الاكتشافات الاثرية وبين تحركات هذه الشعوب . وان كانت معظم المصادر تكاد تتفق الآن على أن زيمبابوى قد خضعت لمراحل ثلاثة من الاقامة . المرحله الاولى مرحلة ما قبل «مونوموتابا» والمرحلة الثانية هي مرحلة « مونوموتابا » نفسها أو ما يعرف بمرحلة «شونا الاولى» والمرحلة الثالثة هي مرحلة قامبو شونا الثانية » .

وأولى هذه المراحل كانت في نهاية القرن الثاني عشر — ولكن يمكن ارجاعها الى القرن الرابع الميلادى . وهذه هي الفترة التي أطلق عليها اسم عصر الحديد الروديسى . وهي تنطبق على السكان الذين أدخلوا صناعة الحديد وفنونه ، والذين قدموا من الشمال واستقروا في هذه المناطق ليأتي أبناؤهم من بعدهم ويبنوا مبانيهم بالحجارة . وكانت هذه الشعوب أول شعوب تتحدث البانتو وتقيم في روديسيا . وهناك ما يدعو للاعتقاد بأنهم كانوا يمثلون اندفاعا من شعوب الجنوب امتزج مع شعوب الشمال واستقر السكان هناك وكونوا أغلب شعوب قلب القارة الافريقية . وهنا نتساءل عن موعد ظهورهم وعن الاجناس التي ينتمون اليها . والى أى حد كانوا يشبهون صانعي الحديد الاول عند شلالات كالامبو ، وهل هم أبغدوا هؤلاء الذين وضعوا أساس البناء الاول في « زيمبابوى » أو أنهم هم الذين وضعوا بأنفسهم هذا الاساس ؟ هذه كلها أسئلة تصعب الاجابة عنها .

ولكن موجة الهجرات تتابعت من الشمال والشمال الغربى عبر القرون . ومع القرن الثاني عشر ، اندفعت شعوب من أجناس «الشونا» يحكمها حاكم يسمونه « مونوموتابا » .. اندفعت من الزامبيزى الى الجنوب لتحتل زيمبابوى وتستقر فيها . ويتفق علماء الآثار على تسميتهم بشعوب عصر الحديد الروديسى . وقد استمرت اقامتهم في زيمبابوى حتى سنة ١٤٥٠ حيث يعتقد أنهم هجروا هذا المكان . وقد ظل الاعتقاد سائدا طيلة قرن بعد هذا التاريخ أن « الشونا » قد أعادوا احتلال مبنى الاكروبوليس بزمبابوى مرة أخرى . وفي سنة ١٦٠٠ تقريبا جاءت شعوب أخرى من أجناس الشونا هم الروزوى والفندا الى هذه المنطقة وبنوا قلاعا ضخمة من الحجارة في ناليتالى ، ودهلودهلو ، وريجيناوكامى وأماكن أخرى ؛ ويبدو أنهم قد احتلوا قابونجوبوى . الى الجنوب من الليمبوبو .

وقد ازدادت قوة الروزوى « وفي سنة ١٧٠٠ قام حاكمهم شانجامير المسمى بالمامبو بغزو دولة مونوموتابا ودمرها . ولكن الغزاة قاموا في سنة ١٧٢٥ بتجديد مباني زيمبابوى العظيمة . وربما زادوا من رقعتها وخلفوا لنا هناك كثيرا مما نجده فيها اليوم . وبعد قرن من الزمان قدم الغزاة من

قبائل « نجونى من الجنوب وحطمواهذهالدولة وأتموا عملية هدمحضارتها مثلما فعل البرابرة الرحل مع الآزانيين فى شرق أفريقية ٠

٦ ـ مقابر مابونجوبوى :

تعتبر آثار مابونجوبوى على درجة كبيرة من الاهمية لسببين الاول أنها كانت غنية ببقايا الهياكل البشرية ، وبالذهب وبعـــض المخلفات الاخرى ٠ والسبب الآخر انها لم تتعرض لما تعرض له كثير من المناطق الاثرية الاخرى فى هذه المنطقة من عبث ما كان يعـــرف بشركات الآثار القديمه ، وتقع آثار مابونجوبوى هذه الى الجنوب من نهر ليمپوبو الذى يقسم جنوبى افريقيا الحالية عن روديسيا الجنوبية ، وحتى يومنا هـذا تكاد تكون هذهالمنطقةخلوا منالسكان ٠ وعندماظهرتآثار « مابونجوبوى» منذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، لم تكن تجذب انتباه الكثيرين فقد كانت الفيلة والاسود تحوم هناك ٠ وكانت مراكز الصيد تقام قريبا من هذه المنطقة طيلة أسابيع قليلة مرة كل عام ٠

وفى سنة ١٩٣٢ صمم أحد فلاحى البوير ويدعى « فان جران » عـلى أن يتسلق ما كان يسمى حينذاك بالتل المقـدس الـذى تقع عليه أطلال مابونجوبوى والذى كان يعتبره الاهالى الافريقيون هناك من المحرمات ٠ واخيرا استطاع « فان جران » وابنه وثلاثة آخرون معه أن يقنعوا أحد الاهالى الافريقيين بأن يكون دليلا لهـــم فى هذه المنطقة ٠ ومن ثم بدءوا يجولون فوق التل من خلال ممر تحيط به الاشواك حتى قمة التل حيث عثر فان جران على قطعة من الذهب ٠ وباستمرار التنقيباكتشفواقطعا أخرى ذهبية ، الى جدار هياكل بشرية كانت مدفونة فى هذا المكان ٠ وقـد اتفق الجميع على أن يظل هذا الامر طي الكتمان الا أن فان جران الصغير أسرع يخبر أستاذه « فوشيه » بجامعة بريتوريا الذى أسرع بدوره يخبر السلطان بهذا الامر بعد أن ظهر أن الذهب المكتشف على درجة كبيرة مـن النقاء الى جانب أن هذه القطع كانت تعتبر أول مصنوعات من الذهب توجد فى جنوبى افريقيا ٠ وقد أسرع اليهم مشورفانريت لدى بالتوجه الىهذه المنطقة ومن ثم بدأت اكتشافات « مابونجوبوى » العظيمة وقد سـاهمت جامعة بريتوريا فى هذا الميدان وكانت اكتشافاتها على جانب كبير الاهمية بالنسبة للافريقيين هناك ولعل هذا هو السبب نفسه الذى دفع حكـومة اتحاد جنوبى افريقيا فيما بعد الى عدم الاهتمام الجدى بهذا الموضوع ٠ وقد تابع « فان توندر » البحث على نفقته الخاصة سنة ١٩٣٤ واستطاع أن يعثر على كميات ضخمة من المصنوعات المعدنية والذهبية الاخرى وعلى بقايا ثلاثة وعشرين هيكلا بشريا بعضها مدفون بعناية دفنا ملكيا وعثر على قطع ذهبية كثيرة ٠

وفجأة ألقت حكومة جنوبى أفريقيا ســـتارا من الصـمت حول الموضوع كله برغم ما قرره فوشيه من ضرورة متابعة البحث فى هذه المنطقة حتى تتضح خيوط التاريخ للشعوب التى عاشت فى هذه المنطقة ٠ وكان واضحا إن حكومة جنوبى أفريقيا قد لجأت الى هذا الصمت حتى لا يتاح

للافريقيين القول بان لهم تاريخا يمكن أن يفخروا به أمام المستعمرين البيض ٠

وفى سنة ١٩٤٠ قام « جاردنر » بعمليات تنقيب جديدة على حسابه الخاص نشر نتائجها بعد خمسة عشر عاما فى مجلة « آثار جنوبى أفريقيا »

والواقع أن مابونجوبوى تعتبر أكبر نموذج للحضارة الافريقية الزنجيه الخالصة والتى أثبتت الاكتشافات التى تمت حتى الآن أن لها صلة وثيقة باكتشافات زيمبابوى ، واكتشافات « هلو ـ دهلو » ٠٠ وتدل جميعها على أن رجال مابونجوبوى قد كانت لهم فى عصر الحديد حضارة لا تختلف عن اية حضارة مشابهة فى اى مكان أخر من العالم ٠ حضارة مستقرة حتمتهاموانع طبيعية من التلال من الشرق والغرب وتهرليمبوبو الى الشمال وسلسلة جبال زوت بانسبرج الى الجنوب ٠ حضارة ازدهرت وبلغت أوج العظمة لتظل آثارها باقية نحو الاجيال القادمة من الافريقيين ٠

٧ ـ الترنسفال القديم :

من اذن هذه الشعوب التى عاشت وانتشرت وقاست نهايتها المؤلمة فى مابونجوبوى والمناطق القريبة منها ٠ ؟

كان فوشيه وزملاؤه على وشك أن يجيبوا عن هذا السؤال عندما بدأت عقبات معينه تعترض بحثهم ٠

كان من المعتقد أن بناة هذه الحضارة الضخمة فى الهضبة الجنوبية كانوا من البانتو التى تبدو أصولهم الطبيعية واضحه فى سلالاتهم التى تعيش هناك حتى اليوم فى قبائل الشونا والسوزو ٠ وقد أيدت هذا الرأى الشواهد الكثيرة من الفخار والادوات المعدنية التى عثر عليها فى تلال مابونجوبوى ، هكذا كان الاعتقاد حتى زعزعته نتائج ابحاث علماء الاجناس الذين أجروا ابحاثهم على الهياكل البشرية التى عثر عليها فى تلال «مابونجوبوى» حيث كشفت هذه الابحاث عن ندرة الملامح الزنجية فى هذه الهياكل التى يقول ٠٠ « جالوواى انها أقرب الى ملامح ٠٠ الهوتنتوت أو أجناس قريبة من الهوتنتوت من ملامح هياكل « البوسكون » القديمة التى كانت تعيش فى كهوف جنوبى افريقيا ٠٠ هناك بالطبع ملامح زنجية فى هذه الهياكل ولكنها أقل من ملامح البانتو الذين يعيشون اليوم فى روديسيا وجنوبى افريقيا ٠

كيف نوفق اذن بين هاتين النقطتين ؟ ان هذا الوضع يشبه تماما ما يمكن أن ينتج اذا نحن قارنا بين هياكل « وليام الفاتح » وفرسانه النورمانديين » بهياكل بشرية لشعوب الساكسون ٠

والواقع ان الخلاف لا يزال قائما فى هذه النقطة بالذات ٠٠ فاذا نحن أخذنا بالرأى الذى يقول ان الهياكل البشرية التى عثر عليها فى « مابونجوبوى » تعود الى أصل من البانتو فسوف نرى أن طريقة دفن الاجساد وهى منحنية شيء لم يثبت أن البانتو قد مارسوه ٠ ومن ناحية أخرى اذا نحن أخذنا بالرأى الذى يعود بهذه الهياكل الى أصل من الهوتنتوت فانه

ينبغي علينا بالتالى أن نقتنع بأن الهوتنتوت قد عرفوا حضارة تعتمد على تصنيع المعادن وعلى مستوى فنى دقيق فى أزمان سحيقة وهو ما لم يقل به أحد • الخلاف اذن لا يزال قائما ، وان كان الشىء المؤكد والذى لا يرقى اليه أدنى شك هو أن حضارة مابونجوبوى هذه حضارة افريقية أصيلة فى كل ما يتصل بها وأن الشىء الوحيد الذى لا يمكن اثباته على وجه اليقين هو مدى الصلة التى كانت بين ما بونجوبوى وزيمبابوى •

على أنه من الممكن استنادا الى ما قرره فوشيه وجاردنر أن نقول أن الهوتنتوت قد عاشوا فى هذه المناطق ولا شك فى عصر زراعى ثم أغار عليهم شعب قادم من الشمال تزاوج بنسائهم واستقر على تلال مابونجوبوى كى يؤسسن حضارتها هذه • ولا شك ان هذا الشعب كان الى جانب درايته بأساليب الزراعة على دراية بتصنيع الحديد • ومن ثم لا ينبغى أن نهتم بالسؤال عن مدى قرب هذه السلالات المتحضرة التى أسست حضـــارة مابونجوبوى من البانتو أو الهوتنتوت فهى أفريقيا على أية حال • ولكننا نتساءل الآن عن هذا الشعب القادم من الشمال •• من أين أتى ؟ لا شك أنه من شعوب البانتو التى أسست من قبل حضارة الزيمبابوى • وأن سلالاته لا تزال تعيش حتى الآن بين ما يعرف بالباشوتو فى باشوتولاند • وبالماشونا فى روديسيا الجنوبية وبالباجندا فى الترنسفال •

ويبدو أن الباجندا كانوا آخر هذه السلالات التى سيطرت على حضارة المابونجوبوى وان الهوتنتوت قد جاءوا بعدهم قبل أن تدفعهم هجمـــات قبائل متابيلى شمالا سنة ١٨٢٥ •

وهنا يرى جاردنر أن الغزاة « من الهوتنتوت قد أخذوا كثيرا من حضارة الزيمبابوى ممثلة فى شعوب الفندا • أخذوا منهم مثلا أساليب صناعتهم للحلى الذهبية • واذا نحن أخذنا بهذا الرأى • أصبح تفسير التناقض الذى لم نجد له حلا من قبل شيئا ميسورا • فقد كانت الهياكل البشرية من الهوتنتوت حقا ولكن الذهب الذى كان يحليها من البانتو • ومهمـــا كان الرأى فى هذا الصدد فان المسلم به الآن ان حضارة مابونجوبوى واستخدام المعادن تطورت عبر عدة قرون وكانت امتدادا نحو الجنوب لما حدث فى وسط أفريقيا الجنوبى خلال عصر الحديد وربما حدد المستقبل حقيقة تلك الشعوب التى أقامت فى هذه المناطق تلك الحضارة المبكرة التى اصطلح علماء الآثار على أن يطلقوا عليها حضـــارة العصر الحديدى الروديسى • ويعتقد البعض استنادا الى الاساطير القبلية أن حركات الهجرة نحو الجنوب والتى قام بها البانتو لم تعبر نهر الليمبوبو حتى العصر الوسيط ، وربما بدأت هذه الهجرات بعد القرن الثانى عشر • ويعتقد أن السود تحركوا جنوبا فيما يعرف الان بالترنسفال فى منتصف القرن الخامس عشر أو نحو ذلك التاريخ • ثم قدم الشونا بعدهم بقليل ثم سيطر الروزوى والفندا على حضارة زيمبابوى وارسلوا بدورهم مهاجرين نحو الجنوب • والتفسير الذى يزعم أن حضارة عصر الحديد لم تصل الى نهر ليمبوبو حتى القرن الثـــانى عشر ليس صحيحا ، ذلك أنه كان من اليسير على هذه الحضارة التى رسخت على بعد مئات قليلة من الاميال الى الشمال ان تعبر السهول المنبسطة قبل

هذا التاريخ بستة أو سبعة قرون • ثم ان هناك الدليل القائم على وجود مستعمرات ساحلية ، كما أن مابونجوبوى لا تبعد عن مصب نهر ليمبوبو بأكثر من أربعمائة ميل • ونحن نعلم مما كتبه الادريسى سنة ١١٥٤ أن المستعمرات الساحلية فى أيامه لم تكن تبعد كثيرا عن مصب نهر ليمبوبو وأنها لم تقتصر على صناعة الحديد ، بل كانت تقوم بتصدير كميات كبيرة • ولا شك أن هذه المستعمرات كانت لها صلات بداخل القارة • وقد أوضحت أعمال الحفر فى « مابونجوبوى » والاماكن القريبة منها طبيعة عصر وحضارة الحديد فى أفريقيا الجنوبية •

ونحن نرى أن شعوب البانتو الحالية ، ليست فى الواقع الا نتاجا لهجرات وتزاوج وتكاثر عبر عدة قرون موغلة فى القدم ، وهذا ما أكدته الحفريات بالفعل والنتيجة المنطقية التى تصل اليها هى أن سكان جنوبى افريقيا الحاليين هم من سلالات تطورت من اختلاط أجناس (١) « تحت الزنجية » باجناس أخرى زنجية قادمة من الشمال عن طريق الهجرة التى حدثت من سنة ١٥٠٠ على الأقل فى شكل موجات قوية متعددة على طول ضفاف نهر « ليمبوبو » هكذا نرى أن شعوب جنوبى افريقية التى وجدها الأوربيون فى القرن التاسع عشر كانت قد استقرت هناك وأصبحت تكون شعوب هذه المنطقة بعد مرحلة طويلة من التطور ، استقرت منذ أكثر من ثلثمائة أو أربعمائة سنة . الا أن شعوبا افريقية أخرى زنجية وغير زنجية قد سبقت تلك الشعوب الأولى أو قامت بدور كبير فى نمو المنطقة وتطورها . وحدثت التطورات الهامة فى الزراعة وصناعة الحديد فى الجنوب خلال الف السنة التى تعيشها الآن وقد أحدثها البانتو القادمون من الشمال ، أو ربما أحدثتها شعوب أخرى الا أن تفوق البانتو ظهر على مر السنين •

٨ — نيكركى وانيانجا :

برغم أن البرتغاليين لم يصلوا قط الى زيمبابوى أو ما بونجوبوى الا أنه ليس ثمة شك فى انهم كانوا على صلة بالدويلات التى تقع الى الداخل على حدود موزمبيق وروديسيا الحالية ، وكانت أهمية هذه الدويلات التجارية فى أنها كانت تمد البرتغاليين بثروات الداخل التى كانت تنتقل الى مينائهم سوفالا على شاطىء موزمبيق . وقد كان من نتيجة ازدهار هذه التجارة أن أصاب البرتغاليون قدرا كبيرا من الثراء تكشفه تقارير بعض الرسميين منهم . ففى سنة ١٦٠٧ أى بعد قرن من بدء احتلال البرتغاليين لهذه المنطقة كتب « لوى ده منجريد ومنكاو » سكرتير الملك فيليب الثانى ملك البرتغال فى تقرير مرفوع الى الملك يقول أن منصب القيادة فى سوفالا يدر على صاحبه أرباحا اكثر مما تدره قيادة أى ثغر آخر من الثغور البرتغالية فيما وراء البحار ، بما فيها ثغر « آرموزا » نفسه على الخليج الفارسى فان ثلاثة أعوام فى

---

(١) تحت الزنجية هى الترجمة التى اخترناها لكلمة Penegraid والتى يعنى بها الكاتب أجناسا افريقية ليست زنجية وان كانت سوداء البشرة كالبانتو مثلا •

قيادة سوفالا تدر لصاحبها ما تســـاوى قيمته ٢٠٠٫٠٠٠ كروزادوس في حين تدر قيادة آرموزا ١٨٠٫٠٠٠ الفـا وتدر قيادة مالاكا ١٣٠٫٠٠٠. واذا عرفنا ان قيمة الكروزادوس كما يقول دامز سـنة ١٩١٨ تبـلغ ما يعادل تسعة شلنات وتسعة بنسات فان ذلك يعنى أن سوفالا كانت باســعار اليوم .. فى ثلاث ســنوات فقط وخالصة الضرائب ، تدر لقائدها ٣٠٠٫٠٠ جنيه .

واذا كان الامر كذلك فلابد أن الأرباح الكلية من التجـارة التى كان يحصـل عليها البرتغاليون كانت على قدر مذهل من الضخامة . وهنا يتضح لنا مدى الحقيقة فيما كتبه الـكتاب العـرب عن ثروات افريقيـة الجنوبية الشرقية فى العصورالوسطى . هذه الارض التى كانت تخرج منها هذه الثروات الخيالية كانت عقدا من الشمال الى الجنوب فى منطقة ســـينا على الزمبيزى الادنى جنـــوبا الى ما يعـــرف الآن بسوازيلاند والناتال . ومن الطبيعى أن نتوقع ان سكان هذه المناطق الحافلة بالثروات لابد ان يكونوا قد خلفوا وراءهم آثارا تدل عليهم . وعلى أنهم على دراية فائقة باستخدام الاحجار وموارد المياه ورى الارض على طريقة المدرجات على جوانب التلال . وهذه الآثار هى آثار « ثيكـاك » « وانيـانجا » وهى حضارة آزانية جديدة .

يبدو أصحابها على دراية كبيرة بتربية الماشية وزراعة الحبوب والتنقيب عن المعادن وصـهرها والتجارة على نطاق واسـع مع الدول الشرقيـة فى المحيط الهندى . ويبدو من آثارهم أنهم كانوا يفعلـون مثلما يفعل اليوم الانيماروكا « فى كينيا وتنجانيقا » . فى طريقة حياتهم فقد كانوا يعيشون فى أكواخ أوبيوت حجرية يبنونها على أساس من الحجارة المستوية . وانهم كانوا الى جانبذلك يخزنون حبوبهم ولوازم معيشتهم فى حفر يبلغ عمقها أربع اقدام ظنها الاوربيون لاول وهلة عندمااكتشفوها حفر العبيد . هذا بالاضـافة الى أنهم عرفـوا بناء الخزانات بالحجارة الغفل دون أن يستخدموا مادة بناء لاصقة .

ونحن لا نسـتطيع على وجه اليقين أن نقـرر مدى العلاقة التى كانت تربط بين هذه المناطق جميعها وبين مناطق الحضارات فى جنوبى ووسط أفريقيا . وان كنا نستطيع أن نقرر أنها كانت جميعا على علاقات تجارية مع الساحل وأن ابناءها كانوا على دراية كبيرة بأساليب الزراعة وصناعة المعادن مما هيأ لهم حضارة مستقرة .

الفصل العاشر

الحقيقة وراء الاطلال

١ ـ بعد أوجه المقارنة :

لقد اصطلحت علوم الانثروبولوجيا الحديثة على أن تتخـذ مواقف معينة تجاه التقـدم الانسـانى .. فما الحضارة مثلا ؟ .. أليس من المبالغة أننا نستخدم هذه الكلمة كثيرا ؟ . وما الذى تعنيه كلمات مثل متوحش . بربرى . متحضر .. بالنسبة للتراث التاريخى ؟ .. وهـل النحت الافريقى مثلا يعتبر « بدائيا » ؟ . ان « وليام فاج » يقـول بعكس ذلك .. انه يراه من أعظم ما خلفته الانسانية من تراث فنى .. وقد تعلمت مدارس الفنون الحديثة كثيرا من هذه المعروضات الأفريقية التى نشاهدها فى متاحفنا . كما تعلمت من فنون المصريين والأغريق ..

وهل الديانات الافريقية بدائية ؟ الامر على النقيض من هـذا .. فنحن نجد أن هناك شعوبا افريقية كثيرة لديها طرائق فى التفكير الدينى تتصل بها وبالعالم الخارجى ، تعتبر طرائق عميقة ونامية .. وقد كتب الأب « تمبلز » عندما واجهته هذه الحقيقة .. يقـول : « أن الصـورة الزائفة للرجل البدائى المتوحش الذى يشبه الانسـان.. ولكنه محروم من نمو ذكائه الكامل ... هذه الصورة تختفى الآن بسرعة .. لقد كنا نظن ونحن نعلم الاطفـال الأفريقيين .. أن تعليمنا لهم يبـدو منطقيا وطبيعيا .. وفجأة يتضح لنا أننا نواجه انسانية ناضجة وراءها تراث من حكمة ومعرفة نمت على أساس فلسفاتها الكونية » ..

واذا كانت الفروق بين كلمة بدائى .. ولا بدائى .. ليسـت الا فروقا تكنولوجية بحتة .. فكيف اذن يمكن أن نقول أن عصر الحديد فى العصـور الوسـطى بجنوب أفريقية .. كان عصرا بدائيا .. غير متحضر ؟ .

لقد كان البرتغاليون ينظرون نظرة ازدراء الى هـذه الدول التى كانوا يتاجرون معها .. فان « باربوزا » مثلا فى سـنة ١٥١٧ يصف ـ فى عدم ارتياح ورضا ـ مملكة « مونوموتابا » بأنها مملكة عظيمة الاتساع .. ويعجب كيف استطاع « ملك بدائى » ان يسيطر عـلى هذه المناطق الشاسعة .. وهذه النظرة التى كان ينظر بها البرتغاليون الى شـعوب هذه المناطق نظرة عجيبة حقا .. ليس لها ما يسوغها اذا نحن عرفنـا أن ملك « مونوموتابا » كان يملك جيشا بالغ القوة « واذا كان البرتغاليون قد تغلبوا على هذا الجيش .. فليس ذلك راجعا الى شجاعتهم أو مدنيتهم

بقدر ما يعود الى الاسلحة النارية التى كانت فى أيديهم ٠٠ فبينما كانت سفن ٠٠ « فاسكودى جاما » تطلق قذائفهــــا النارية ٠٠ كان الابطال الافريقيون يحاربون بالسيوف والسهام والحراب وفى هذه الايام نفسها كانت مدنهم فى الداخل أو على الساحل متحضرة بالقدر الذى كـانت عليه نفسه بعض مدن أوربا الساحلية ان لم تكن قد فاقت بعضها حضارة ٠

كانت « كيلوا » مثلا كما وصفها « فان لينشوتن » الهولندى ٠٠ على درجة من الحضــــارة والمدنية « ربما لا تعادل حضــــارة ومدنية امستردام فى القرن السادس عشر ٠٠ ولكنها أيضــــا ليست على أدنى درجة من البربرية والوحشية .

وقد كتب « فان لينشوتن » هذه العبارات فى معرض حديثه عن أسرار التجارة البرتغالية .. وقد أرجع ثروة « كيلوا » الى التجارة مع الهند والخليج الفارسى وداخل أفريقية .. فقد كان أبناؤها يمتلكون الذهب الذى يأخذونه من منجم أسموه منجم « مونوموتابا » .. وكان زاخرا بالذهب الذى لا مثيل لنقائه فى العالم أجمع » ٠٠ وقـــد عـــلم « فان لينشوتن » ان البرتغاليين كانوا يحصلون فى البداية على هـذا الذهب عن طريق التجارة لا الغزو . ويستطرد موضحا لتجار بلاده من الهولنديين أسرار ثروة التجار البرتغاليين فيقول : ان قائد موزمبيق يرسل عدة زوارق خاصة يطلق عليها اسم « بانجاوى » .. مصنوعة من ألواح مربوط بعضها بالبعض بالحبال دون المسامير ، تبحـــر على طول الشاطىء وتجلب الذهب الى موزمبيق . ويقول أيضا : انه سمع أن منجم « أنجولا » على الجانب الآخر من أفريقية .. لا يبعـد عن منجم « سوفالا » بأكثر من ثلثمائة ميل ٠ وان المغاربة كانوا يأتون من أنجولا الى سوفالا فى كثير من الاحيان ٠

وحديث « فان لينشوتن » هذا يدل على نظرة أوروبا «التجارية» البحتة الى افريقية فى هذه الأيام .. غير أننا نستطيع الآن أن نحـكم على الأمور أحسن مما فعل « لينشوتن » ومعاصروه .. فنحن نعلم أن هذه السنين التى شهدت التجارة الاوروبية والاكتشــــافات البحرية واختراع الطباعة فى أوروبا . وانتشـــار القراءة والكتابة هناك ... شهدت أيضا شعوب « البانتو » وقد أقامت هى الاخرى ممالك عـــديدة فى وسط وجنوب افريقية . تربطها صلات منتظمة ، وتحكمها التقاليد ولا تختلف عن مثيلاتها من الدول والامبراطوريات فى بداية عصر الاقطاع فى أوروبا . وقد كان الأوروبيون ينظرون الى الأمور فى أفريقية .. من خلال ما تعودوا عليه من الخضوع التام لملوكهم تحت حكم الاقطاع . فلم يجدوا فرقا فى طريقة الاستحواذ على السلطة المطلقة ، بين بلادهم أو بلاد الملوك الافريقيين ٠٠ بخلاف أنهم لم يتعودوا أن تكون الوراثة عـــن طريق الأم .. غير أن طريقة الحـكم كانت متشــــابهة على أية حال ، وبخاصة فى البرتغال نفسها .. فعند ما توغل البرتغاليون فى الـكونغو بعد سنة ١٤٨٤ . عثروا على نظام للحكم يقوم على اخضـــاع الولايات الصغيرة لسيطرة الولايات الأكثر قوة ... وعلى ربط هــذه الولايات عن طريق الزواج . فقد رأوا مثلا ملك « لوانجو » مضطرا للزواج من أميرة « كاكونجو » وهى بلد مجـــــاور لبلده على حــين عمـد ملك

« كاكونجو » الى الزواج قبل ذلك من أميرات الكونغو .. وكانت هذه الحالة مشابهة تماما لما كان يحدث فى أوروبا من زيجات ملكية — وعلى العكس من ملوك أوروبا لم تكن لهؤلاء الحكام داخل القارة وحتى ساحل المحيط الهندى ، سوى قليل من السلطات المطلقة .. بل كانوا أقرب الى الزعماء الدائمين منهم الى الملوك المستبدين ... ولم يظهر الحكام الاوتوقراطيون الا بعد ذلك بكثير .. فلم يكن ملك الكونغو مثلا يستطيع أن يصدر تشريعات خارج اطار القانون والعادات القبلية فاذا خالف ذلك فانه يتعرض لما تعرض له « واكيليمى » الذى ذكره المسعودى .. فقد اختاره شعبه ليحكم بينه بالعدل ولكنه جار .. فقتلوه . وكان النظام الملكى الافريقى فى العصور الوسطى اذن أقرب الى البناء القبلى الذى تطور وأثبت فعاليته خلال هجرات الشعوب نحو الجنوب واختلاطها بالشعوب الاخرى .. ولهذا السبب نرى أن مقارنة الظروف فى افريقية .. بما كان يحدث فى أوروبا فى ذلك الحين ، لا بد أن يقود الى الخطأ .. فقد كان عصر الحديد فى افريقية الجنوبية يختلف اختلافا كليا عن مجتمع العصر الوسيط فى أوروبا . ولم تكن حضارة افريقية تسندها حضارة اليونان أو الرومان مثلما كان الحال فى أوروبا .. وعلى الرغم من ذلك كانت الحضارات الافريقية تتطور دون ما خطأ . . فى اتجاه مطرد الى الامام ..

وفى « مابونجوبوى »وفى خلال عصر « البانتو » كان الزعماء وأقاربهم يقومون فى حصون أو قصورمبنية بالحجارة..ويستمتعون بالثروة ويزينون مساكنهم بالآنية الصينيةوالزخارف والمسابح الهندية .. وكانوايختلفون عن عامة الشعب حتى فى مراسم الدفن .. وكل هذا يذكرنا بالاوضاع التى كانت سائدة فى أوروبا فى عصر الطبقات .

واذا قيل ان عامة الشعب الافريقى كانوا يقومون بأعمال لا يقوم بها سادتهم كما كانت الحال بالنسبة للشونا . والفاندا « مع عبيد «السوزو» وللباهيما مع «البايرو» فى غربى أوغندة ، فالامر لا يختلف كثيرا من الناحية الطبقية عما كان يفعله النورمانديون بالساكسون عند غزوهم للجزيرة البريطانية . وقد كانت كلها على أية حال نظما طبقية فى عصور للاقطاع، مرت بها كل المجتمعات سواء أكانت أفريقية أم أوروبية .. وكان سكان القصور والقلاع يعيشون بالطبع عيشة تفوق عيشة عامة الشعب . الا أن حضاراتهم كانت واحدة مشتركة مع أنهم كانوا يسلكون طريقتين فى الحياة العملية .. أولاهما تعد أصحابها للحكم والراحة والاخرى للعمل الشاق .

٢ — مرحلة من العظمة :

النتيجة التى نصل اليها الآن أن المجتمع فى جنوب أفريقية قبل قدوم الاوروبيين كان يتطور بعيدا عن الاستبداد الشرقى الذى كان طابع العصر البرونزى القديم وبعيدا عن استبداد عصر الاقطاع فى أوروبا ، وأن الافريقيين هناك أقاموا لانفسهم نظما اجتماعية مقبولة ومتطورة استوعبت الاهالى والوافدين من المهاجرين . وأن الافريقيين هناك ساروا خطوات واسعة نحو التقدم الانسانى الذى يقود الى الحضارة .

ولقد لاحظنا طريقة تقسيم العمل نفسها بين « الآزانيين » فى شرق أفريقية فى العصور الوسطى كما لاحظنا المدن المزدهرة على الساحل ·· وتبدو مظاهر هذا الازدهار والتقدم فى جنوب أفريقية من طريقة صنع المعادن هناك · وعلى الرغم من أن كثيرا من الآثار التى تقع شمال نهر « ليمبوبو » قد فقدت عندما انقض الاوروبيون على هذه المناطق وأعملوا فيها السلب والنهب ، الا أن الاكتشافات فى « مابونجوبوى » خففت من أثر هذا السلب والنهب · فقد تم العثور على المصنوعات الذهبية فى مابونجوبوى على صولجان مزين برقائق الذهب التى يبلغ سمكها جزءا من خمسة آلاف جزء من البوصة ·· ويمكن أن نتصور مدى المهارة والوقت والمقدرة التى يتطلبها صنع هذه الرقائق المتناهية الدقة بآلات كانت ولا شك فى أنها آلات بدائية · لقد كان الصناع فى هذه المنطقة عديدين وكانت لهم جمعياتهم « وهيئاتهم » التى كانت ترعى مصالحهم بالتالى ·

ولكن ذلك لم يحدث بالنسبة لحضارات أفريقية فى الجنوب مثلا لان هذه الحضارات كانت حضارات قبلية تسود فيها الروح الجماعة بعكس الاوتوقراطيات التى كانت تنشأ فى أحواض الانهار والتى تيسر تحكم الملوك فى أفراد الشعب · وتيسر لهم جمع الثروات الطائلة وبناء المعابد الضخمة بالصورة التى أسلفناها · ويمكننا أن نقول أن شعوب شمال أوروبا فى تلك الايام نفسها لم تكن أحسن حالا من الافريقيين فقد كتب « امارك بلوخ » يقول : « انه ليس ثمة شك فى أن غالبية الملاك الصغار ومن هم أعلى مرتبة منهم بقليل من شمال الالب والبرانس كانوا من الاميين بكل معنى الكلمة » ·· واذا كان الاوروبيون قد عرفوا اللغة اللاتينية فى هذه الايام ·· فقد عرف سكان مدن سواحل أفريقية الشرقية اللغة السواحيليه واستخدموها فى القراءة والكتابة ·

وهناك نقطة جديرة بالمناقشة فى صدد « الحضارة » بالمعنى الذى يصر الاوروبيون على استخدامه ·· فالاوروبيون ينعون على هذه الحضارات الافريقية فى عصر الحديد بجنوب أفريقية ·· أنها فشلت فى اختراع « العجلة أو حتى فى تبنى هذا الاكتشاف والاخذ به بعد أن أصبح معروفا لمعظم الحضارات واذا بدا هذا الاعتراض وجيها لاول وهلة ·· فان البحث والمناقشة يكشفان كذلك أن « العجلة » لم تستخدم فى شمال أوروبا نفسها فى العصور الوسطى حتى القرن الثانى أو الثالث عشر الميلادى ·· واذا نحن أخذنا بمنطق هذا الاعتراض لجاز لنا أن نقول ان اسكتلندا نفسها فى القرن السادس عشر كانت بلدا بربريا لا حضارة له لان التاريخ يقول ان أول عربة عرفتها « اسكتلندا » هى التى أحضرها « الكسندر لورد سيتون » عندما جاءت « الملكة مارى » من « فرنسا » ·

هنا تبرز الحاجة الى البعد عن التورط عند الحكم فى مثل هذه الأمور والواقع أن التجارة والاستفادة منها · قد طورا حضارات هذه المناطق الجنوبية من افريقية تطويرا كبيرا ·· يقول ·· ده باروس « سنة ١٥٥٢ » ان سوفالا تتميز بشهرة واسعة نتيجة الكميات الضخمة من الذهب التى يحصل عليها المغاربة من زنوج هذه الارض عن طريق التجارة · وهذه التجارة كما نعرف من كتابات العرب كانت موجوده

فى هذه المناطق لمدة تزيد على خمسمائة سنة ٠٠ ولا شك أن نمـــو المجتمعات التجارية فى هذه الاماكن الداخلية كان نموا بطيئا وجزئيا ٠٠ وكانت التجارة بينها وبين الساحل تتم بين وسطاء كثيرين ٠٠ وكان الجانب الأكبر من هذه التجارة يتم عن طريق المقايضة كما كان يحدث فى أوروبا فى العصور الوسطى الا أن أبناء هذه المناطق بدءوا يستخدمون العملات التى كانت تضرب فى «كيلوا» فى نهاية القرن الثالث عشر ٠٠ وكانت الصادرات الرئيسية لداخل القارة ٠ هى الذهب والعاج والنحاس والحديد ٠٠ والعبيد منذ القرن السابع عشر ٠٠ كان سكان الداخل يستوردون الملابس القطنية وأدوات الزينة والعقود الحمراء من الهنـد كما كانوا يستوردون الآنية الصينية فى حدود ضيقة وذلك لارتفـاع أثمانها ٠٠ فقد كانت الضرائب فى «كيلوا» على استيراد هذه البضائع فى القرن الثالث عشر تبلغ ٦٠٪ من قيمتها ٠٠ وعلى الرغم من هذا فقد استمروا فى استيراد الآنية الصينية طيلة عشرة قرون كما اتضح من اكتشافات « روديسيا الشمالية » « والترنسفال » ٠٠ وترجع أقدم القطع الروديسية التى اكتشفها « كينيون » سنة ١٩٢٩ فى أطلال «زيمبابوى» الشرقية داخل كوخ كبير كان يحوى آنية فخارية كثيرة وبعض قطـع الخزف ٠٠ وترجع الآنية الصينية الى عهد أسرة « سونج » كما قرر ذلك خبراء المتحف البريطانى ٠ وقد تم العثور أيضـا على قطعة من الصينى الكاملة أمكن اصلاحها فى «دهلو ــ دهلو» وهى أشبه بالكأس من طراز «منج» ويرجع تاريخها الى نهاية القرن السابع عشر ٠ وكل هذه الآثار تؤيد الشواهد الموجودة على الشاطىء ٠٠ والتى تدل على ازدهار «كيلوا» والمدن الساحلية الاخرى بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر ٠٠ وقد كان الاستقرار فى الداخل ٠٠ وتزايد قوة الممالك والمجتمعات المركزية ٠ يرتبط أشد الارتباط بالتوسع التجارى مع الساحل ٠ فقد شيد أهل « مونوموتابا » أعلى أسوارهم وأبراجهم عندما وصلت تجارة « كيلوا » الى قمتها ٠٠ ولهذا السبب ذكرت «جيرترود تومبسون» أن من الاســباب الرئيسية لازدهار حضارة زيمبابوى «الاتجار مع الهند ٠٠ ولم يكن هذا النمو الحضارى فى الداخل أمرا هينا ٠٠ فقد دفع جماعات من «البوشمن» الذين كانوا يعيشون فى وسط هذه الهضبة الجنوبية بعيدا عن التيار الحضارى ولم ينالوا منه شيئا ٠٠ على حين تعلم « الهوتنتو » فى أقصى الجنوب صناعة الحديد من الهولنديين » الذين استقروا فى رأس الرجاء الصالح سنة ١٦٥٢ ٠٠ على حين كانت صناعته مزدهرة فى الشمال بين شعوب البانتو «قبل ذلك بزمن بعيد جدا ٠٠ وهذا يوضح لنا طريقة نمو هذه المجتمعات ويلقى مزيدا من الضوء على طبيعتها ونظامها وحركتهـا الذاتية ٠٠ والتى قد تبدو لأول وهلة كمـا لو كانت مجتمعات بدائية راكدة لم تعرف الصناعة ٠٠ الا أن الاكتشـافات تدعو الى مزيد من الاهتمام والجـدل ٠ هذه المجتمعات قد بلغـت شأوا كبيرا فى ميدان الصناعة برغم ما تيسر لها من أدوات بدائية هزيلة ٠ وكانت غنيـه بطرائقها وأساليبها فى الحياة ، مولعة بممارسة التجربة واتباع الطرق الحديثة برغم ما كان يبدو فى هذه المجتمعات من أنها مجتمعات تعيش على الماضى والتقاليد القديمة ٠

صحيح أنه لا يمكننا أن نقارن كاتدرائيات أوروبا أو شعر دانتى

بما حققته حضارة عصر الحديد فى افريقية من أبنية وثقافة ٠٠ الا أننا لا يمكننا من ناحية أخرى أن نغفل التقدم الذى حققته هذه الحضارة أو نغفل سيطرتها على بعض مظاهر الطبيعة وتقدمها فى الناحية الفنية ٠٠ وكلها أمور تبدو كما لو كان أصحابها قد حققوها من العدم ٠

٣ ـ البرعم ٠٠ والزهرة :

هل بمقدورنا أن نعتقد أن المظاهر المختلفة لعصر الحديد فى أفريقية ليست الا فروعا من أصل واحد ؟ هل كانت القلاع الجنوبية مثلا ٠٠ والتى تشرف على احاديد نهر « بونجوى » ويحجبها ضباب الجبال ، تمت بصلة ما الى سهول «تنجانيقا» ومرتفعات «كينيا» أو حتى «اثيوبيا» نفسها فى بداية الامر ٠٠ ربما كشفت الابحاث الأثرية فى المستقبل ٠٠ عن صلة ،مابين « انجوراكا ، وايتيانجا » أو حتى بينها وبين مابونجوبوى»وقد ثبت أن بناة « زيمبابوى » العظيمة قد نقلوا أفكارهم فى نظم الحكم الى اوطانهم البعيدة عنهم وان كل هذه الحضارات تدخل فى نطاق حضـــارة ازانية خلفت آثارها فى أجزاء كثيرة من افريقية ٠٠ ان انصار المدرسه الفينيقية يزعمون ان معظم حضارات عصر الحديد وفى أفريقية ٠٠ لم تكن الا النصر الوحيد الذى أحرزته فينيقيا فى هذه الحضارات ٠٠ وأن الحضـــارات الافريقية الأخرى ترجع الى أهل «سبأ» والعرب الاوائل الذين أقاموا مدنا على الساحل ٠٠ وأن دور الافريقيين بعد ذلك لم يعد أن يكون تقليدا لهـم وقد أثبتت الإكتشافات الاثرية خطل هذا الرأى ٠٠ فقد أوضحت لهـم الاكتشافات أساسا وأصولا وطيدة لهذه الحضارات الافريقية ٠ وكشفت مدى تعقيدها وأكدت أن أصولها ترجع للشمال وأنها قد نقلت كثيرا من آرائها وفنونها من شمال أفريقية ومنتصف حوض النيل والمناطق المجاورة كمنطقة البحيرات العظمى والقرن الافريقى الى باقى مناطق أفريقية ٠٠ وقد جلب المهاجرون من الشمال كثيرا من الافكار والاراء التى تطورت عبر قرون عديدة ٠ حتى لم يبق منها الا صدى خافت لأثر بعيد موغل فى القدم حتى ساد الصدى الافريقى ٠٠ وذلك أن مؤسسى « زيمبابوى» العظيمة وأشباهها اخترعوا وطوروا وسائل وحلولا صناعية فى أراض جديدة ٠٠ وابتكر زعماؤهم وصناعهم وسائل لم تكن تقليدا منهم لغيرهم٠ وكانوا خلال حضاراتهم يقومون بتطوير ماابتكروه ويسيرون بخطا حثيثة نحو الاستقرار الحضارى مع التغيير والتنويع المتصلين ٠٠ وكان ماخلفوه لنا شاهدا على زعماؤهم وصناعهم وسائل لم تكن تقليدا منهم لغيرهم ٠ وكانوا خـــلال ذلك كله ، وقد كتب بعض أنصار المدرسة الفينيقية مثل «بنت» عندما تم العثور على تماثيل لطيور كبيرة فى « زيمبابوى» يقول : ان هذه الطيور كانت تحلى الحائط الخارجى لمعبد نصف دائرى ٠٠ ثم استطرد فقـــال : ان هذه الطيور على نمط صقور وعقبان ربما يكون لها معنى جنسى جلبها سكان هذه المنطقة من الخارج ٠٠ وكان يحاول فى هذا أن يؤيد وجهـة نظره القائلة بأن قدماء المصريين كانوا يعتبرون الصقر رمزا للأمومة على حين نعرف نحن أن قبائل « حمير » فى جنوب الجزيرة العـــربية كانت تنظر الى العقاب باعتباره حاميا لها ٠٠ وعنـــدما يقول «بنت» ذلك فانه يتصور فراغا انسانيا كبيرا بين روديسيا الجنوبية وجنـــوب الجزيرة

وأكثر تنظيما بالنسبة للساحل الافريقي وخاصة فيما يتعلق بالفترة مابين سنة ٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ ميلادية ، وبالنسبة أيضا لما يتعلق بالصلات التى كانت قائمة بين هذا الساحل وبين المناطق الداخلية ·

والامر الثانى الذى نحتاج اليه فى هذا الصدد هـ و عملية تنقيب واسعة النطاق فى أراضى الداخل التى لاتزال حتى الآن خلوا من مثـــل هذه الابحاث الأثرية ·

والامر الثالث هو مزيد من البحث فى مناطق الكشف الرئيسيةالتى عرفت حتى الآن ·

هذا بالنسبة للنواحى المتعلقة بالابحاث الأثرية ·· وهناك بالاضافة الى هذه النواحى ·· حاجه ملحة الى ترجمة الكتب العربية القديمة وترجمة الكتب العربية الحديثة أيضا التى تبحث فى هذه الامور والتى لا يمكن الحصول عليها وليست معروفة كما ينبغى · ·ثم ان هناك أيضا الوثائق الاوروبية التى يمكن أن تمدنا بالكثير عن هذا الموضوع · فلم يتم حتى الآن تنظيم لهذه الوثائق فى المكتبات المختلفة بأنحاء أوروبا ، تلكالوثائق التى تبحث أو تتعلق بالتاريخ الافريقى القديم ·

ولحسن الحظ بدأ التاريخ الافريقى والابحاث الاثرية التى ترتبـط بتاريخ الافريقيين قبل قدوم الاوروبيين ، تستحوذ على اهتمام المعـــاهد العلمية والجامعات والدراسات الاكاديمية · وقد أضافت الاعوام القليلة الماضية (منذ عشر سنين) كثيرا من المعلومات فى هذا الصدد وخاصةبعد طبع مؤلفات ماثيو وجرانفيل · الذى كشف النقاب عن حدود ألف سنة متصلة من تاريخ استقرار الافريقيين فى المناطق الساحلية ·· ووصف حضاراتهم غير أننا نطلب مزيدا من أعمال الحفر المنتظمة فى هذه الاماكن ونطلب أيضا استمرار التنقيب جنوبا حتى موزمبيق حتى رأس «دلجادو» (الذى عرفه التجار الاغريقيون والرومان والعرب قبل الاسلام والحميريون قبلهم) ·

كذلك نأمل أن تكشف الابحاث الاثرية عن الصلات بين هذه المدن الساحلية والمحطات التجارية على الساحل وفى المناطق الداخليـة والتى كانت تمدهم بالبضائع منذ زمن بعيد ·· ذلك أن توثق التجارة فى بعض المناطق كما كان الامر بالنسبة لروديسيا فى العصور الوسطى واستمرار هذا التوثيق يوضح لنا كثيرا من الامور مثل الحضارات التى لم يكتمل نموها كحضارة بيجو فى أوغنده والحضارات الكبيرة الاخرى الناميـــة كحضارة «زيمبابوى» ·· فقد كان ازدياد الطلب على تجارة الداخل عاملا من عوامل حضارة عصر الحديد فى الجنوب ·

وهذا الامر بالذات يتطلب أبحاثا أثرية منظمة فى ساحل موزمبيق والى الداخل منه حتى تنجانيقا ·· والعثور على العملات أوالأوانى الصينية أو العقود وهى المواد التى تتحمل عوامل الزمن يساعد فى هذه الابحاث·

وهنا أيضا نياسالاند التى لم تجر فيها أبحاث أثرية من قبـل على حين تستطيع مثل هذه الابحاث لو أجريت · ان تمدنا بالكثير من هـــذا

وقد كان نظام البناء بالحجارة دون استخدام «المونة» شائعا فى كل هذه الجهات من أثيوبيا الى الترانسفال ٠٠ وكانت أشكالها تتشابه فى كثير من الاحيان كما نرى فى مساكن الآزانيين فى مرتفعات «كينيا» فى العصور الوسطى ٠٠ وكان الشكل الدائرى هو أبسط أشكال هــذه المساكن ٠٠ وكانت الفكرة نفسها موجودة فى مبانى الجنوب قبـل ذلك بزمن طويل عند سكان مرتفعات جنوب شرق روديسيا مع تغييرات طفيفة

وهنا تتساءل ٠٠ هل طور أهالى الجنوب هندستهم فى البناء بتأثير من الآزانيين الذين كانوا يمارسون البناء من قبل ؟ ٠

يقول « يورك ماسون» : ان كل المبانى نشأت فى الفتـــرة نفسها تقريبا ونبعت عن تصميم واحد ٠٠ وليس من الصعوبة بمكان ان نتصور أن الشعب الذى شيد «اينيانجا» شعب « قادم من الشمال » أوأن المهاجرين من الشمال قد وفدوا اليها ، ذلك أن الروابط الهندسية بين مدينـــة «انجوراكا»فى الشمال وبين المدن المعاصرة فى الجنوب كانت أكثر من مجرد أمر عارض ٠ غير أن تبادل الآراء لم يحـــدث بين الشمال والجنوب فقط ٠ فقد أثبتت الاكتشافات الاثرية فى غرب أوغنده خلال الاعوام القليلة الماضية وجود ارتباط بين وسائل دفاعية ضخمة من التحصينات الترابية فى أماكن مختلفة ٠ (وهى أكبر هذه الوسائل الدفاعية القديمة فى أفريقية وكلها تردد أصداء «زيمبابوى» ٠

وخلاصـــة القول فى هذا الصـــدد ـ وبصرف النظر عن مختلف التفاصيل ـ ماقرره « وايلاند » سنة ١٩٣٤ ببصيرة نافذة من أن حضارة «زيمبابوى» أقدم من حضارات أخرى كحضارة بيجو الا أنهما ينبعان من أصل واحد ٠٠ فقد كانت بيجو برعما لم يتم نموه ٠ وكانت زيمبـابوى زهرة مبكرة النمو ٠٠ وكلاهما من حضارات البانتو ٠٠ ويرجعـــان بأصولهما الى جذر واحد ٠

وينطبق هذا الكلام نفسه على كثير من حضارات عصر الحـديد فى أفريقية سواء أكانت هذه الحضارات فى مرتفعات «كينيا» أم فى أوغنده ، أم فى أخاديد «اينيانجا» أم فى سهول روديسيا ، هذه الحضارات التى تمت عبر قرون من الهجرات والاستقرار والاحتكاك بشعوب أقل حضارة الا أنها جميعا أفريقية خالصة وتؤيد النظرية القائلة بأن وحدة شـــاملة ضمت هذه الحضارات برغم اختلاف أطرافها ـ وأن هذه الحضارات تابعت نموها على الرغم من عزلتها ٠

٤ ـ وما المطلوب :

ان الامر يحتاج بالنسبة للمناطق الشرقية والجنوبية من أفريقية الى مزيد من التفصيلات التى نعتقد أن الوصول اليها أصبح أمراً ممكنا ، فما نعرفه اليوم فى هذا الصدد أكبر بكثير ولا شك مما كنا نعرفه من عشرين عاما مضت ولكنه لايزال على أية حال يحتاج الى المزيد ٠

من الناحية الاركيولوجية (الحفريات) مثلا ٠٠ نحتاج الى معرفة أعمق

وأكثر تنظيما بالنسبة للساحل الافريقى وخاصة فيما يتعلق بالفترة مابين سنة ٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ ميلادية ، وبالنسبة أيضا لما يتعلق بالصلات التى كانت قائمة بين هذا الساحل وبين المناطق الداخلية ٠

والامر الثانى الذى نحتاج اليه فى هذا الصدد هـ و عملية تنقيب واسعة النطاق فى أراضى الداخل التى لاتزال حتى الآن خلوا من مثـــل هذه الابحاث الأثرية ٠

والامر الثالث هو مزيد من البحث فى مناطق الكشف الرئيسيةالتى عرفت حتى الآن ٠

هذا بالنسبة للنواحى المتعلقة بالابحاث الأثرية ٠٠ وهناك بالاضافة الى هذه النواحى ٠٠ حاجه ملحة الى ترجمة الكتب العربية القديمة وترجمة الكتب العربية الجديدة أيضا التى تبحث فى هذه الامور والتى لا يمكن الحصول عليها وليست معروفة كما ينبغى ٠ ٠ثم ان هناك أيضا الوثائق الاوروبية التى يمكن أن تمدنا بالكثير عن هذا الموضوع ٠ فلم يتم حتى الآن تنظيم لهذه الوثائق فى المكتبات المختلفة بأنحاء أوروبا ، تلكالوثائق التى تبحث أو تتعلق بالتاريخ الافريقى القديم ٠

ولحسن الحظ بدأ التاريخ الافريقى والابحاث الاثرية التى ترتبـط بتاريخ الافريقيين قبل قدوم الاوروبيين ، تستحوذ على اهتمام المعـــاهد العلمية والجامعات والدراسات الاكاديمية ٠ وقد أضافت الاعوام القليلة الماضية (منذ عشر سنين) كثيرا من المعلومات فى هذا الصدد وخاصةبعد طبع مؤلفات ماثيو وجرانفيل ٠ الذى كشف النقاب عن حدود ألف سنة متصلة من تاريخ استقرار الافريقيين فى المناطق الساحلية ٠٠ ووصف حضاراتهم غير أننا نطلب مزيدا من أعمال الحفر المنتظمة فى هذه الاماكن ونطلب أيضا استمرار التنقيب جنوبا حتى موزمبيق حتى رأس «دلجادو» (الذى عرفه التجار الاغريقيون والرومان والعرب قبل الاسلام والحميريون قبلهم) ٠

كذلك نأمل أن تكشف الابحاث الاثرية عن الصلات بين هذه المدن الساحلية والمحطات التجارية على الساحل وفى المناطق الداخليــة والتى كانت تمدهم بالبضائع منذ زمن بعيد ٠٠ ذلك أن توثق التجارة فى بعض المناطق كما كان الامر بالنسبة لروديسيا فى العصور الوسطى واستمرار هذا التوثيق يوضح لنا كثيرا من الامور مثل الحضارات التى لم يكتمل نموها كحضارة بيجو فى أوغنده والحضارات الكبيرة الاخرى الناميــة كحضارة «زيمبابوى» ٠٠ فقد كان ازدياد الطلب على تجارة الداخل عاملا من عوامل حضارة عصر الحديد فى الجنوب ٠

وهذا الامر بالذات يتطلب أبحاثا أثرية منظمة فى ساحل موزمبيق والى الداخل منه حتى تنجانيقا ٠٠ والعثور على العملات أوالأوانى الصينية أو العقود وهى المواد التى تتحمل عوامل الزمن يساعد فى هذه الابحاث٠

وهنا أيضا نياسالاند التى لم تجر فيها أبحاث أثرية من قبـل على حين تستطيع مثل هذه الابحاث لو أجريت ٠ ان تمدنا بالكثير من هــذا

الصدد وتستطيع أن تفسر لنا مثلا نمو ونجاح الحضارات في الهضبة الوسطى .. وهي المنطقة التي ترجو أن توضح لنا مستقبلا الاصول البعيدة لهذه الحضارات . ويؤيد هذا الاعتقاد ماعثر عليه « كلارك » في « كالامبو » سنة ١٩٥٣ . وكان البرتغاليون منذ خمسمائة عام تقريبا قد وجدوا ممالك مزدهرة تصنع الحديد بالقرب من مصب نهر الكونغو وقد وجدت طلائعهم العسكرية المتقدمة الى الداخل بعد ذلك قلاعا على قمم التلال قبل التي وجدوها في « بونجو آندويجو » ولم تستكمل الابحاث الاثرية في أنجولا أيضا والتي تبدو أهميتها في امكان بيان الصلة والتأثير بين ماقبل لعصور الوسطى وما بعدها في غرب أفريقية . والى الشمال في غرب أوغنده ومرتفعات كينيا والمواقع التي تجاورها قد نجد ارتباطا بين المباني الحجرية الآزانية والكونغو الشرقي وجنوب السودان وجنوب أثيوبيا .. الى جانب التأثير من « زيمبابوى » .

ولقد بدأت حكومات كثيرة في المستعمرات كما هو الحال في روديسيا وتنجانيقا .. في اجراء أبحاث أثرية ولكنها ليست كافية ولا يخصص لها المسئولون مبالغ كافية من المال .

الى هذا الحد من البحث .. نتساءل لماذا وجد الاوربيون منذ مائة عام .. أفريقية .. قارة بدائية متوحشة ؟ لقد كان بناؤها الحضارى بناء متينا .. فلماذا انهار هذا البناء واختفى ؟ ولماذا توقف نمو هذا البناء الحضارى .. هذه الاسئلة نجيب عنها في الفصل القادم من هذا البحث .

الفصل الحادى عشر

إنحلال وسقوط

فى سنه ١٨٥٦ وعلى طول حوض الزمبيزى كـــان ليفنجستون ينتقل من مكان الى مكان ومن رحلة الى أخرى وتتناهى اليه الأصــداء الاخيرة الحزينة لقصة «مونوموتابا»•• فان هذا الملك العظيم الغامض الذى كان يخضع بدوره لملك آخر غامض •• أسبغ عليه البرتغاليون من قبـل مظاهر التكريم فقدموا له بعض المعونات •• وخصصوا له حرسا يطلقون النار عند أية جنازة •

لم تبق لدى خلفائه • من شواهد عظمته سوى مائة زوجة ••وعندما كان يموت الملك كان يبدأ نزاع طويل وقتال مرير حتى يستقر الملك مرة أخرى •

ولم يكن انحلال امبراطورية « مونوموتابا» وسقوطها هى والدويلات الاخرى الاقطاعية فى جنوبى أفريقية• لم يكن هذا يعنى بالضرورة اختفاء الحضارة التى قامت عليها هذه الامبراطورية والدويلات •• ولكن هكذا كان الامر بالنسبة لافريقية •• ســـقطت الامبراطوريات •• واندثرت الحضارات معا •

لقد كانت أراضى هذه المناطق من أفريقية تبدو بالنسبـــة للرواد الاوروبيين في القرن التاسع عشر ، مجاهل ميئوسا منها • وكان الامر يبدو أكثر سوءا بالنسبة لجمهرة الشعوب الاوروبية التى نشـــأت على احتقار هؤلاء العبيد ولكن الحقائق ليست على هذا القدر من البساطة فقد استمر كثير من حضارات عصر الحديد فى الجنوب ينمو ويترعرع ويمتـــد لفترة طويلة من الزمن بعد أول اتصال لها بالبرتغـــاليين •• فالاطلال العظيمة في دهلو ــ دهلو وكامى وينكركى واينيانجا •• ترجع كلها الى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى حين استمر الخيط الملكى لعـــائلة مامبو حكام « بوروزوى» التى كانت تسود فى بداية القرن السابع‌عشرقائما حتى بداية القرن التاسع عشر •• ثم ان تقدير الاوروبيين لما شاهدوه كان يختلف باختلاف شخصية المشاهد نفسه •• فقد تأثر «فاسكودى جاما» ومعاصروه مثلا أشد التأثر بالمدن الساحلية التى وجدوها وحطموها •• وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر •• تغيرت نظرة الاوروبيين تغييرا كبيرا •• لان أوروبا تطورت خلال قرنين بفضل العلم والصناعة ، على حين لم تتمكن أفريقية من مسايرتها بل انهارت هنا وهناك وساعد على هـــذا الانهيار تجارة العبيد على نطاق لم يسبق له مثيل وكانت بعض العبارات

والشعارات التى تصف انحطاط الافريقيين الطبيعى ، وقد أصبحت عادية ومألوفة تدمغ حضاراتهم وكانت حضارات الافريقيين على الســـاحل قد تحطمت وأصبحت تؤيد هذا الشعور بالاحتقار ٠٠ الا آن الامر فى وسط أفريقية كان يختلف بعض الشىء بالنسبة لتقدير الاوروبيين وتأثرهـــم بشعار الوحشية والبربرية التى تسود أفريقية ٠

وتروى لنا سنة ١٨٣١ قصة لقاء بين بعثة برتغاليه يرأسها الماجور «مونتيرو» وبلاط حاكم «لوندا» جنوب الكونغو نلمس من خلالها طبيعة التطور البطىء الذى أدى الى ازدهار حضارة عصر الحديد فى قلب القارة٠

ويروى »مونتيرو» قصته فيقول انه استدعى للمثول فى حضرةالملك «مواتاكازيمى» فدخل قصرا فسيحا ملأه جمهور كبير وكان جمهور حامية «لوندا» الذين يتألفون من أربعة أو خمسة آلاف رجل من المسلحين بالسهام والحراب والاقواس يقفون فى أماكنهم دون نظام عســـكرى على حين كان ضباطهم يتمنطقون بسيوف داخل أغمادها ، وهذا هو ماشاهده باربوزا نفسه قبل ذلك بثلثمائة عام ٠

وقد وجد البرتغاليون «مولتا» يجلس على عرشه بعظمة يرتدى أفخم الثياب كما لم يشهد البرتغاليون حاكما أفريقيا من قبل ٠٠ وكان يرتدى قبعة عالية من الريش لونها أحمر تحيط بها الاحجار الكريمة متعـــددة الالوان كما كان يضع شارات الملك وأساور من الخرز الازرق فى ساعدية ويقف من حوله ضباط البلاط والجنود والمهرجون وزوجاته ومحظياته ٠

هكذا كان المظهر الخارجى لحاكم مجهول فى أرض مجهولة فى القرن التاسع عشر ٠٠ وبالطبع ينطبق وصف «مواتاكازيمى» الذى يحمل فى طياته معنى النظام والحكومة المركزية المستقرة على حكام آخرين ٠٠ ولقد روى الشعب «البوشونجو» على ضفاف نهر «سونكورو» جنوب الكونجو (البلجيكى) لامبل توردای فى الاعوام الاولى من القرن العشرين عن عصر البوشونجو الذهبى حينما أبطل الملك «شامبابولونجونجو» استخدام نوع خاص من المدى اللولبية٠٠ وأدخل فنونا وصناعات سلمية كصناعة الغزل كما يدلنا الحفر الدقيق الرائع فى الخشب والذى انتقل الينا من صناع مملكة شعب البوشونجو على حضارة عريقة متقدمة، وقد أشاد ليفنجستون مرارا بالسلام والامان اللذين يرفرفان على هذه المناطق الشاسعة من داخل القارة ٠٠ وربما لم يكن الاهالى شديدى الحماس لاعتناق المسيحية ولكنهم كانوا يتقبلون التعليم والمعرفة ٠٠ بل ان رؤساءهم وزعمـــاءهم كانوا يفخرون بوجود أوروبى زائر أو مقيم فى مناطقهم ٠ ولم يكن أحد يخشى على حياته أو ممتلكاته ٠٠ وبالطبع كان ليفنجستون يشير الى الاهالى ولم يتحدث عن أخطار الحيوانات أو الامراض ٠٠ أما ما أشاعه الاوروبيون عن طهى المبشرين فى الاوانى الضخمة ٠٠ فلم يكن سوى دعـاية أوروبية ٠٠ فحتى سنة ١٨٨٤ لم يثبت سوى قتل ستة من المبشرين من بين ثلثمائة مبشر توغلوا فى شرقى وسط أفريقية قبل سنة ١٨٨٤ ٠٠ ومن ذلك نرى أن الفوضى المزعومة لم يكن لها أساس وأن الاخطار المزعومة شابها كثير من المبالغة ٠٠ وعلى العكس من ذلك فان الحياة فى وسط أفريقية كانت أكثر أمنا وسلاما للمسافر بالنسبة للحروب وحوادث القتل) عما كانت

عليه الحال فى أوروبا٠٠ ويفسر لنا استقبال الافريقيين الودى للأوروبيين وترحيبهم بهم ٠٠ طبيعة هؤلاء الافريقيين المسالمة ٠

ولقد كان هذا الأمن يعكس احترام الحياة واستتباب النظام والقانون على حين أنه كان من العسير على الاوروبيين أن يفسروا سبب وجودهم وسبب مجيئهم وماذا يريدون من الافريقيين ٠ وكما ذكرت « مارجورى بيرهام» فان سلوك الاوروبيين كان شيئا لايمكن تفسيره وكان فى أغلب الاحيان مثيرا للتهديد ٠٠ وبالرغم من ذلك كان يسمح لهم (وهم يعملون لحسابهم الخاص) بالتنقل من قبيلة لاخرى ، ومن زعيم الى آخر تحت قيود بسيطة ٠٠ وفى قليل من الاحيان كانوا يضطهدون لعدم تقديمهم هدايا للزعماء ٠٠ ولو أن هذا الاضطهاد لم يكن يصل الى حد العنف ، وفى كثير من الاحيان كان العون يقدم لهم ٠

كل هذا يعكس لنا فهما ومعرفة فى مجتمع غير صناعى لقيم الحياة وأنماطا من التفكير والسلوك توضح لنا الحد الذى وصلت اليه هذه الشعوب داخل القارة من حيث الملاءمة بين معيشتها وبين البيئة المحيطة بها ٠٠ ولم تكن الفنون الافريقية التى كثيرا ما أثارت الاعجاب والدهشة فى نفوس أولئك الذين عاشوا فى العصر «الفيكتورى» ٠٠ لم تكن هذه لتصدر الا عن مجتمعات بلغت شأوا كبيرا فى التفكير الحضارى ٠٠ وكانت لها فلسفتها وآراؤها عن الانسان والعالم ٠٠ واستطاعت أن توفق بين مجهود الفرد ومجهود المجتمع ٠٠ ولم تكن هذه الفنون ولا هذه الديانات مجرد فرق مبعثرة كما كان يصفها الاوروبيون الذين ينتقلون داخل أفريقيا السوداء ٠٠ ولم تكن أبدا تكشف عن نمو ضحل لايام قليلة مضت ولا عن استسلام يائس للعنف والسخرة كما كانوا يتصورون ٠٠ وقد اتضحت هذه الحقيقة أكثر وأكثر فى منتصف القرن العشرين ٠٠ وازددنا يقينا أن الافريقيين قد تطوروا تحت تأثير حركتهم الدائبة فى التقدم وانهم وجدوا طريقهم الى الامام بأنفسهم ٠٠ وانهم واجهوا مشكلاتهم بأنفسهم أيضا ٠٠ كل هذا تم بمعزل عن التأثيرات التى كانت تؤثر دائما فى مختلف الحضارات الاخرى ٠٠ وظل الافريقيون يتقدمون فى طريقهم الى الامام ببطء ولكن فى اصرار: فيما عدا تلك المناطق التى كانت تنتشر فيها تجارة العبيد بكل مساوئها ومخازيها التى أوقفت هذا التقدم ٠

أما فى المناطق التى لم تصل اليها هذه اللعنة فقد كان التقدم فى بعض نواحى الحياة مذهلا بالغا حد الروعة ٠٠ فقد نأت مثلا قبائل لوزى فى جنوب غربى روديسيا عن هذه اللعنة ٠٠ ومن ثم وجدنا مجموعة قوانين هذه الشعوب على درجة كبيرة من الرقى بحيث نستطيع أن نضع أساليب القضاء والمحاكم عندها على المستوى نفسه من التناسق والاحكام اللذين نجدهما فى نظم القضاء الأوروبية أو الامريكية ٠٠ يقول «جلكمان» انه لمن الواضح أن الاجراءات القضائية لدى شعب لوزى تتفق مع الاجراءات القضائية فى المجتمعات الغربية أكثر مما تختلف عنها فان قضاتهم يستمدون أحكامهم من الاصول والمبادىء نفسها التى يستمد منها قضاة الغرب أحكامهم بمعنى مراعاة ظروف البيئة والمملكة الحيوانية والانسان وعاداته وقوانينه وثرائه والمساواة بين الافراد مع مراعاة أحكام الطبيعة والبشر والسياسة العامة والاخلاق ٠

كان كيان المجتمع الافريقي اذن ٠٠ قويا وقادرا على البقاء ٠٠ ومع ذلك فقد انهارت دول جنوب أفريقية فى عصر الحديد وآلت الى زوال ٠

٢ ـ البرابره على الأبواب :

عنـــــدما بدأ الاوروبيون يزحفون نحو «ماتابيليـــــلاند» ونحو «ماشونالاند» منذ حوالى سبعين عاما ٠٠ لم يجدوا من الشواهد مايدل على أدنى صلة بين مارأوه من أطلال قديمة ٠٠ وبين أولئك الذين كانوا يعيشون في جوارها أو قريبا منها ٠٠ فقد انقطعت الصلة بينهـم وبين ماضيهم بعد أن انهارت حضاراتهم ومن الممكن أن نضع أسبابا رئيسية ثلاثة لهذا الانهيار الذى أصاب تلك الحضارات ٠

السبب الاول يكمن فى طبيعة غير مستقرة لنظام اقطاعى أو قـريب من الاقطاعى كان يسود دولا وممالك تشتد المنافسة فيما بينها ٠٠ ومن ثم تندلع الحروب ٠ تماما كما كان يحدث في أوروبا فى القرون الوسطى

والسبب الثاني يعود فى المحل الاول الى ما نُتج عن التدخل البرتغالى بعد بداية القرن السادس عشر فى شئون التجارة الخارجية ٠

والسبب الثالث يرجع الى تلك الغزوات البربرية التى جاءت من الجنوب أما بالنسبة للسبب الاول ٠٠ فانه من الثابت أن البرتغاليين قدموا لاول مرة الى أفريقية في الوقت الذى كانت تندلع فيه الحروب وتســـود الحزازات بين قوة أفريقية وأخرى ٠٠ فقد ذكر البرتغاليون أن الحروب كانت تسود ممالك الكونغو فى الاعوام الاخيرة من القرن الخامس عشر ٠٠ وذكرت تقاريرهم أيضا أن الحروب والمنازعات سادت الممالك الجنوبيـة فيما وراء «سوفالا» ٠٠ فقد كتب «الكانكوفا» فى سنة ١٥٠٦ أن الحروب امتدت فى هذه المناطق الداخلية طيلة ثلاثة عشر عاما أو تزيد بين الشمونا بطائفتيها الاولى والثانية مما كان سببا فى انهيار «زيمبابوى» العظيمـة وتاريخ هذه المنطقة حافل بالحروب بين القبائل والممالك المختلفـــة التى أدت فى النهاية الى انهيار حضاراتها جميعا ٠

أما بالنسبة للسبب الثانى فان انهيار التجارة الذى سببه تدخل البرتغاليين قد أدى بالتالى الى انقطاع مورد الرخاء الطبيعى لهذه المناطق وقد أشرنا من قبل الى النتيجة التى أدى اليها هذا كله ٠٠ ثم يجىء بعد ذلك السبب الثالث فى غزوات قبائل أقصى الجنوب التى لم يكن لهـــا نصيب من الحضارة ٠٠ لهذه المناطق ذات الحضارات المستقرة مما أسرع بانهيارها ٠

٣ ـ الباب يفتح على مصراعيه :

ظلت أحلام الثروة تراود أذهـــــان المكتشفين البرتغاليين الأوائل فاندفعوا فى جنون مع أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الى مدن أفريقية الساحلية التى ترامت شهرتها بعيدا حتى وصلت الى أوروبا فى تلك الايام ٠ واستطاعوا أن يسيطروا عليها بالحديد والنار فى محاولة للاستئثار وحدهم بالتجارة الافريقية الهندية ، تدفعهم أحلامهم

الاستعمارية فى نهب أكبر قدر ممكن من هذه الثروات وبأسرع وقت ممكن ولكنهم فشلوا فى تحقيق هذا الغرض ·· حتى لقد بدأت شكاوى مبعوثيهم الرسميين الى هذه المناطق ترد الى ملك البرتغال فى سنة ١٥١٢ تنعى ضآلة ما استطاعوا نهبه من هذه الثروات ·· لقد واجهتهم فى بادىء الامر مقاومة سلبية ·· فقد بدأ التجار فى «سوفالا» مثلا ينسجون ملابسهم القطنية بأنفسهم حيث لم يعد باستطاعتهم استيرادها من الهند الا عن طريق البرتغاليين واحتكارهم ، هذا من ناحية ·· أما من ناحية الذهب فيما وراء الساحل الى الداخل من جنوبى القارة الافريقية فقد انقطع وروده بسبب الحروب المتصلة بين القبائل هناك ·· وكان الامر بالنسبة للبرتغاليين يتطلب توسعا الى الداخل ·· وهو أمر لم يكن باستطاعتهم تحقيقه فى تلك الايام نظرا للصعوبة الكامنة وراءه ·· ذلك كله على الرغم من أن كثيرا من البرتغاليين قد استطاعوا بعد أربعين عاما من رحلات « فاسكودى جاما» أن يستقروا فى حوض الزامبيزى الادنى ·· ويتاجروا هناك ·· وقد اضطر البرتغاليون بعد ذلك بوقت طويل الى أن يبعثوا بحملات عسكرية الى الداخل فيما وراء «سوفالا» لكى يضعوا أيديهم على مناجم الذهب فى هذه المناطق ·· ولكن الدهشة أصابتهم عند مارأوا أن الذهب أصبح فجأة نادر الوجود،وعادت معظم هذه البعثات العسكرية الى قواعدها بخفى حنين وكان الدرس قاسيا ·· ولكن المحاولات على الرغم من ذلك استمرت للنفاذ الى داخل جنوبى القارة لاحتكار مصادر الذهب حتى توصل البرتغاليون فى بعض الاوقات الى اغراء بعض رؤساء القبائل بكشف أماكن مناجم الذهب فى أسلوب مخادع كما حدث بالنسبة لامبراطورية مونوموتابا التى تمكن البرتغاليون من تثبيت مراكزهم فيها بالاتفاق مع أحد ملوكها بعد سلسلة طويلة من الحروب ·

ومن ثم أيضا تمكن البرتغاليون من تثبيت مراكزهم باطراد متزايد الى الداخل واستطاعوا أن يفعلوا مايشاءون تحميهم بنادقهم وأسلحتهم النارية كما استطاعوا أن يحققوا سيطرتهم التامة على هذه المناطق بتأليب الأفريقيين بعضهم على بعض حتى استطاعوا فى النهاية أن يحطموا كل تلك الدول التى كانت قائمة هناك ·· ولكنهم أيضا حطموا أنفسهم لان أعمالهم التى كانت تتسم بالخديعة والنفاق والخبث والقسوة جعلت كثيرا من رؤساء القبائل المجاورة يمتنعون عن الاتفاق معهم حتى تحت ضغط بنادقهم خشية أن يحدث لهم ماحدث لكثير من الملوك والزعماء قبلهم الذين أغراهم البرتغاليون بمساعدتهم فى التنقيب عن الذهب ·· وبعد أن تم لهم ماأرادوا اغتصبوا أرضهم باسم معاهدات لم تكن تساوى قيمة الورق الذى كتبت عليه ·· وأجبروهم هم أنفسهم على السخرة فى هذه المناجم بل أن الافريقيين كثيرا ماكانوا يهربون من أراضيهم تاركين البرتغاليين عاجزين عن أن يستخرجوا مايريدون من الذهب لنقص الأيدى العاملة كما حدث بالنسبة لشعوب «الكافير» ·· التى هربت من وجه البرتغاليين وتنقلت من مكان الى آخر ·

وهكذا ·· فان البرتغاليين وجدوا شعوب جنوب شرقى أفريقيا تعيش فى ثقة ورخاء عندما بدأت أنظارهم تتطلع الى أفريقية ·· ثم هيئوا بهمجيتهم ووحشيتهم نهاية هذا الرخاء ·

لقد كان قدوم البرتغاليين الى هذه المناطق من أفريقية قرصنة أرستقراطية كان كل همها الحصول على الثروة والرخاء الذى كان يبسط جناحيه على هذه المناطق ولم يكن لقدومهم وغزواتهم من نتيجة سوى أنهم حطموا فى أيام قليلة مانسجته عشرات القرون من الصلات التجارية القائمة وعندما حطموا مدن السواحل الافريقى المزدهرة فى بربرية ووحشية وعندما ضربوا بمدافعهم ـ بأوامر ملكية ـ مراكز التجارة الساحلية هناك . كان ذلك نذيرا بأنهم فقدوا أول مصدر من مصادر الثروة التى اندفعوا من أجلها الى أفريقية .. وعندئذ فكروا فى أن يعوضوا هذه الخسارة بذهب الداخل .. ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك فاندفعوا كالمجانين يبحثون عن بديل للذهب فى الفضة مثلا .. وعندما فشلوا أيضا فى هذه الناحية بدءوا يبحثون عن أى نوع آخر من المعادن .. ولم تكن النتيجة أحسن مما سبقها من نتائج .. ومن ثم لم يجد البرتغاليون وسيلة لتحقيق الثروة التى جاءوا من أجلها الى أفريقية .. الا أن يبدءوا ـ بقذارة متناهية ـ فى هذه القارة .. بعهد لتجارة العبيد .. وصمهم بالخزى والعار ..

الفصل الثاني عشر

اذا كان منتصف هذا القرن يبدو باعثا على التشاؤم وهو يتأرجح بين فناء ذرى وسلام مشكوك فى أمره فانه يأتى معه بأشياء طيبة خيرة من بينها شمس التحرير الشامل التى بدأت تغمر بأشعتها القارةالافريقية وربط شعوب افريقيا الى العائلة الانسانية والى مبدأ المساواة بين البشر فقد شهدت السنوات الوسيطة من هذا القرن بدء انتشال الافريقيين من وهدة التفرقة البغيضة بين الاجناس ، تلك التى عاقت تقدم البشرية فى كثير من الازمان وبطريقة ما هنا وهناك فى أنحاء متفرقة من العالم ولكنها لم تكن فى صورة أسوأ منها مما هى فى أفريقية ٠

فهذه الاعوام تعيد المسئوليةالى الافريقيين أنفسهم ليملكوا حياتهم وليتأهب من ٧٠ الى ٨٠ مليونا من الآفريقيين السود فى المستعمرات الاوروبية ليتولوا زمام أمورهم بأنفسهم ويسيروا فى حياتهم قدما ٠٠ كما أن الافريقيين البيض أو عرب الشمال قد ساروا فى الاتجاه نفسه ٠٠ ولا توجد الآن منطقة فى أفريقية مهما كانت صغيرة أو نائية أو محجوبة عن العالم الخارجى ، لايتقابل أهلها ليناقشوا أمور مستقبلهم ٠

ولست أزعم أننى أوفيت الموضوع حقه أو ألممت بكل جوانب التاريخ الافريقى أو ذكرت كل مايمكن أن يقال فى هذا الصدد ، فقد اكتفيت بالتلميح أحيانا ولكن يكفى كتاب أكبر من هذا بكثير ، أو كاتب أقدر منى على أن يوفى كل الموضوع حقه ، سيتقرر التاريخ الافريقى ٠٠ وسوف تتلاحق صوره بانتظام واطراد وسيكتب دون جهل أو أحقاد خلال هذه السنين التى ستقرر مصير مشكلات كبيرة حيث تكون الامور قد اتخذت شكلا واضحا فى هذه القارة ٠

فحضارة أفريقية التى ارتبطت بالعالم الخارجى وحركتها عوامل افريقية خلاقة خالصة من بدايتها ، كما تشهد بذلك ممالك السودان القديمة ومدن الساحل العظيمة وأسوار زيمبابوى وأبراجها ، تقررانتصار شعوب غير معروفة قامت فى داخل أفريقية وحققت ذلك الانتصار ٠ وقد كانت هذه الشعوب وحياتها حركة متصلة دائبة تضرب فى أعماق التاريخ وتواصل زحفها دائما ، وكانت تمثل نموا لايختلف فى أساسه وجوهره عن نمو أى مجتمع فى أى مكان آخر من العالم ٠ ولقد اسهمت هذه الشعوب بأفكارها وفنونها وآرائها فى الحكم والفن ومختلف نواحى الحياة فى تراث الانسانية المشترك ٠

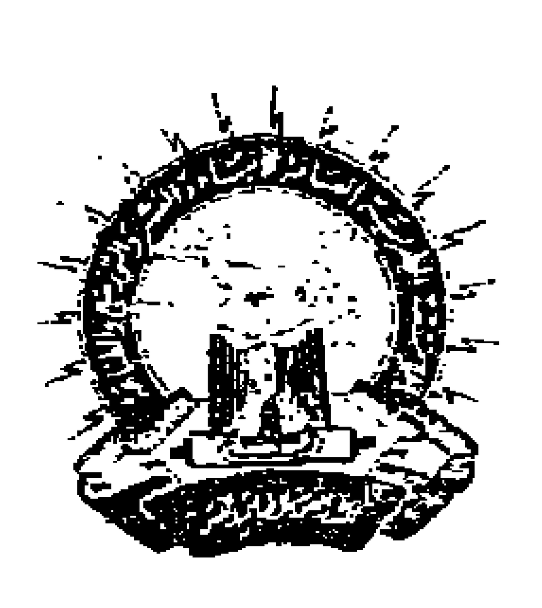
ان تاريخ هذه الشعوب يبدأ اليوم من جديد وعلى الرغم من أنها تظهر اليوم فى عالم متفرق ، فان تقاليدها لم تكن تؤمن قط بحدود الوطن

الضيق ، وكانت عبقرياتها عبقرية امتزاج وتداخل ، كانت فى الماضى تتم عن طريق الغزو ولكنها أثمرت عن طريق الهجرات ، وكانت تنمو فى وحدات كبيرة ، وكانت امبراطورية «كانم» مع «مالى» و «سنفهوى» أكبر هذه التجمعات فى السودان القديم وكان لها بناؤها الفيدرالى ومجلسها الحاكم الذى يتكون من اثنى عشر أميرا حكموا مساحات واسعة عبر أجيال كثيرة -

وقد مزق الاستعمار فى القرن التاسع عشر أوصال هذه القـــادة ، وفرق بين شعوبها ، ولا يبقى أمام الافريقيين الآن الا أن يعيدوا رسم حدود بلادهم ، فهل يكتفى الافريقيون باستقلال بلادهم متبعين الدول الاوروبية أو يسعون للوحدة •

وأجدر بالافريقيين الا يكتفوا بحدود استقلالهم داخل بلادهم التى وضع الاستعمار حدودها • وأن يضعوا نصب أعينهم تكوين دول كبيرة بدل أن يزيدوا فى اتساع الخلافات التى تفصل عادة بين الدول فى وقت فقدت فيه الدولة الواحدة قوتها وأصبحت فى أغلب الاحيان عقبـــة فى سبيل نموها •

لقد تحدث العالم طويلا عن افريقية المتخلفة •• وقد آن الأوان ليتحدث العالم كله الآن عن أفريقية العظيمة •• أفريقية قارة المستقبل •



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٣٩ الثمن ١٢ قرش